
أدب الدنيا
والدين
الماوردي
كتاب آداب
الدنيا والدين
٩٠٦


King Saud University 1957
جامعة الملك سعود

٢١٨
أ ٠ م
أدب الدنيا والدين ، تأليف علي بن محمد ، ابي الحسن الماوردى سنة ٤٥٠هـ، خط سنة ١١٠٠هـ.

١٦٠ ق
٩٠٦ ٢٣ س ٢١×١٤٫٥ سم

نسخة جيده ، خطها نسخ حسن ، بأولها ورقتين مستحدثين ، بها ترميم ، طبع .

الأعلام ٥ : ١٤٦ ، دارالكتب المصريه ١ : ٢٦٣

١- الشعائر والتقاليد والاخلاق الاسلامية
أ- الماوردى ، علي بن محمد ٤٥٠هـ
ب- تاريخ النسخ .

كتاب

ادب الدنيا والدين

تأليف

العالم العلامة الحبر الفهامة

الامام اللبيب المحقق الشهير

اقضى القضاة ابي

الحسن علي ابن محمد

بن حبيب البصري

الماوردي

رحمه الله تعالى

امين

امين

امين

١٢٩٩/١١/٢٠ م

١/٤٠-٥٧ ق

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه نستعين

قال القاضي أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب
الماوردي البصري رحمه الله تعالى
الحمد لله ذي الطول والآلاء وصلى الله على سيدنا
محمد خاتم الرسل والانبياء وعلى آله واصحابه
الاتقياء (اما بعد) فان شرف المطلوب
بشرف نتائجه وعظم خطره بكثرة منافعه
وبحسب منافعه تجب العناية به وعلى
قدر العناية به يكون اجتناء ثمرته واعظم
الامور خطرا وقدرا واعمها نفعا ورفدا
ما استقام به الدين والدنيا وانتظم به
صلاح الآخرة والاولى لانه باستقامة
الدين تصح العبادة وبصلاح الدنيا
تتم السعادة وقد توخيت بهذا
الكتاب

الكتاب الاشارة الى آدبهما
وتفصيل ما اجمل من احوالهما
على اعدل الامرين
من ايجاز وبسط اجمع فيه
بين تحقيق الفقهاء
وترقيق الادباء
فلا ينبو عن فهم
ولا يدق في وهم مستشهدا
من كتاب الله جل اسمه
بما يقتضيه ومن سنن
رسول الله صلوات
الله عليه بما يضاهيه

ثم متبعا ذلك بامثال الحكماء وآداب
البلغاء واقوال الشعراء لان
القلوب ترتاح الى الفنون المختلفة
وتسأم من الفن الواحد وقد قال علي بن
ابي طالب رضي الله تعالى عنه ان القلوب
تمل كما تمل الابدان فاهدوا اليها طرايف الحكمة
فكان هذا الاسلوب يجب التنقل في
لعله المطلوب من مكان الى مكان وكان
المأمون المؤمن رحمه الله تعالى يتنقل كثيرا في
داره من مكان الى مكان وينشد قول ابي
العتاهية رحمه الله تعالى

لا يصلح النفس اذ كانت مدبرة الا التنقل من حال الى حال

وجعلت ما تضمنه هذا الكتاب خمسة ابواب (الباب الاول)
في فضل العقل وذم الهوى (الباب الثاني) في ادب العلم
(الباب الثالث) في ادب الدين (الباب الرابع)
في ادب الدنيا (الباب الخامس) في ادب
النفس وانما استمد من الله تعالى حسن
معونته واستودعه حفظ موهبته بحوله
ومشيئته وهو حسبي من معين وحفيظ

(باب)

مدح

فضل العقل وذم الهوى

اعلم ان لكل فضيلة أسّا ولكل ادب
ينبوعا وأسّ الفضائل وينبوع الادب هو العقل الذي جعله الله
سبحانه للدين اصلا وللدنيا عمادا فاوجب التكليف بكماله وجعل
الدنيا مدبرة باحكامه وألّف به بين خلقه مع اختلاف هممهم
ومآربهم وتباين اغراضهم ومقاصدهم وجعل ما تعبدهم به قسمين قسما
وجب بالعقل فوكده بالعقل فاوجبه الشرع وكان العقل عليهما عمادا
وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ما اكتسب المرء مثل
عقل يهدي صاحبه الى هدى او يرده عن ردى وروي عنه صلى الله
عليه وسلم انه قال لكل شيء دعامة ودعامة عمل المرء عقله فبقدر عقله
تكون عبادته لربه اما سمعتم قوله تعالى في حق الفاجر لو كنا نسمع او
نعقل ما كنا في اصحاب السعير وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه
اصل الرجل عقله وحسبه دينه ومروته خلقه وقال الحسن
البصري ما استودع الله احدا عقلا الا استنقذه به يوما ما وقال
بعض الحكماء العقل افضل مرجو والجهل انكى عدو وقال بعض
الادباء صديق كل امرئ عقله وعدوه جهله وقال بعض البلغاء خير
المواهب العقل وشر المصائب الجهل وقال ابرهيم بن حسان شعر

يزين الفتى في الناس صحة عقله :: وان كان محظورا عليه مكاسبه
يشين الفتى في الناس قلة عقله :: وان كرمت اعراقه ومناسبه
يعيش الفتى في الناس بالعقل انه :: على العقل يجري علمه وتجاربه
وافضل قسم الله للمرء عقله :: فليس من الاشياء شيء يقاربه
اذا اكمل الرحمن للمرء عقله :: فقد كملت اخلاقه ومآربه

واعلم ان بالعقل تعرف حقائق الامور ويفصل بين الحسنات
والسيئات وقد ينقسم قسمين غريزي ومكتسب فالغريزي هو العقل الحقيقي

وله حدٌ يتعلق به التكليف ولا يتجاوزه الى زيادة ولا يقصر عنه الى
نقصان وبه يمتاز الانسان من ساير الحيوانات فاذا تم في الانسان
سمي عاقلاً وخرج به الى حد الكمال وقد قال صالح بن عبد القدوس شعر
اذا تم عقل المرء تمت اموره … وتمت اياديه وتم ثناؤه
وروي عن الضحاك في قوله تعالى لينذر من كان حيًّا اي من كان عاقلا
واختلف الناس فيه وفي صفته على مذاهب شتى فقال قوم هو
جوهر شريف لطيف يفصل به بين حقايق المعلومات ومن قال
بهذا القول اختلفوا في محله فقالت طايفة منهم محله الدماغ
لان الدماغ محل الحس وقالت طايفة محله القلب لان القلب
معدن الحياة ومادة الحواس وهذا القول في العقل بانه جوهر
لطيف فاسد من وجهين احدهما ان الجواهر متماثلة فلا يصح
ان يوجب بعضها ما لا يوجبه سايرها ولو اوجب سايرها ما لا يوجبه
بعضها لاستغنى العاقل بوجود نفسه عن وجود عقله والثاني ان
الجوهر يصح قيامه بذاته فلو كان العقل جوهرا لجاز ان يكون العقل
بغير عاقل كما جاز ان يكون جسما بغير عقل فامتنع بهذين ان يكون
العقل جوهرا وقال اخرون العقل هو المدرك للاشيا على ما هي
عليه في حقايق المعنى وهذا القول وان كان اقرب مما قبله فبعيد من
الصواب من وجه واحد وهو ان الادراك من صفات الحي والعقل
عرض يستحيل ذلك منه كما يستحيل منه ان يكون ملتذا او متالما او
مشتهيا وقال اخرون من المتكلمين العقل من جملة العلوم الضرورية
وهذا الحد غير محصور وكاشف لما تضمنه من الاجمال وتناوله من
الاحتمال وقال اخرون وهو القول الصحيح ان العقل هو العلم بالمدركات
الضرورية وذلك نوعان احدهما ما وقع عن درك الحواس والثاني

ذهنه فابى ان يحكم بينهما فرجعا الى هرم فحكم وفيه يقول لبيد
يا هرم بن الاكرمين منصبا … انك قد اوتيت حكما معجبا
وقد قالت العرب عليكم بمشاورة الشباب فانهم ينتجون رايا
لم يعله طول القدم ولا استولت عليه رطوبة الهرم قال الشاعر
رايت العقل لم يكن انتهابا … ولم يقسم على عدد السنينا
ولو ان السنين تقاسمته … حوى الاباء انصبة البنينا
حكي الاصمعي قال قلت لغلام حدث من اولاد العرب كان يحادثني
فامتعني بفصاحته وملاحته ايسرك ان يكون لك مائة الف درهم
وانت احمق قال لا والله قلت لم قال اخاف ان يجني علي حمقي جناية
تذهب بمالي ويبقى علي حمقي فانظر الى هذا الصبي كيف استخرج
بفرط ذكائه واستنبط بجودة قريحته ما لعله ان يدق على من هو اكبر
منه سنا واكثر تجربة واحسن من هذا الذكا والفطنة ما حكى ابن
قتيبة ان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه مر بصبيان يلعبون وفيهم
عبد الله بن الزبير فهربوا الا عبد الله منهم فقال له عمر ما لك لم تهرب مع
اصحابك فقال يا امير المومنين لم اجن فاخافك ولم يكن بالطريق
ضيق فاوسع لك انظر الى ما تضمنه هذا الجواب من الفطنة وقوة
المنة وحسن البديهة كيف نفى عنه اللوم واثبت له الحجة وليس
للذكا غاية ولا للجودة القريحة نهاية حكي ان سليمان بن عبد الملك امر
الفرزدق بضرب اعناق اسارى من الروم فاستعفاه الفرزدق فلم
يفعل فاعطاه سيفا لا يقطع شيا فقال الفرزدق بل اضربهم بسيف
ابي غزوان مجاشع يعني سيف نفسه فقام فاستل سيفه فضرب به عنق احدهم
فنبا السيف عنه فضحك سليمان ومن حوله فقال الفرزدق شعر
ايعجب الناس ان اضحكت سيدهم … خليفة الله يستسقى به المطر

اي حدث السن

عنده

غزوان

لم ينبُ سيفي من عيبٍ ولا دهشٍ ... عن الاسير ولكن اخر القدر
ولن يقدم نفسا قبل ميتتها ... جمع اليدين ولا الصمصامة الذكر
ثم اغمد سيفه وهو يقول
ما ان يعاب سيد اذا صبا ... ولا يعاب صارم اذا نبا
ولا يعاب شاعر اذا كبا ثم جلس وهو يقول كاني بابن جريرة يعني
جريرا قد هجاني فقال شعر
بسيف ابي رغوان سيف مجاشع ... ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم
فقام فانصرف فحضر جرير فخبر بالخبر ولم ينشد الشعر فقال
بسيف ابي رغوان سيف مجاشع ... ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم
ثم قال يا امير المومنين كاني بابن القين وقد اجابني فقال
ولا نقتل الاسرى ولكن نفكهم ... اذا اثقل الاعناق حمل المغارم
فاستحسن سليمان حدس الفرزدق على جرير ثم اخبر الفرزدق بما قال جرير
فانصرف جرير ودخل الفرزدق ولم يخبر بحدسه عليه فقال شعرا
كذاك سيوف الهند تنبو ظباتها ... وتقطع احيانا مناط التمائم
ولا نقتل الاسرى ولكن نفكهم ... اذا اثقل الاعناق حمل المغارم
وهل ضربة الرومي جاعلة لكم ... ابا عن كليب او اخا مثل دارم
فشاع حديث الفرزدق بهذا حتى حكي ان المهدي اتي باسرى من
الروم فامر بقتلهم وكان عنده شبيب ابن شيبة فقال له اضرب
عنق هذا العلج فقال يا امير المومنين قد عرفت مما ابتلي به الفرزدق
فعير به قومه الى اليوم فقال له انما اردت تشريفك وقد اعفيتك وكان
ابو الهول الشاعر حاضرا فقال
جزعت من الرومي وهو مقيد ... فكيف ولو لاقيته وهو مطلق
دعاك امير المومنين لقتله ... وكاد شبيب عند ذلك يفرق

فنحن نشيبا عن فرح لبتة ... وادن نشيبا من كلام ملفق
وليس العجب من كلام الفرزدق ان صلح من جودة القريحتين
والا من اتفاق الخاطرين ولمثل ذلك قالت الحكماء العقل سرعة الفهم
وغايته اصابة الوهم وليس لمن منح جودة القريحة وسرعة الخاطر
عجز عن الجواب وان اعضل كما قيل لعلي رضي الله تعالى عنه كيف يحاسب الله
العباد على كثرة عددهم فقال كما يرزقهم على كثرة عددهم وقيل لعبد الله
بن عباس رضي الله تعالى عنهما اين تذهب الارواح اذا فارقت الاجساد فقال
اين تذهب انوار المصابيح عند فناء الادهان وهذان الجوابان جوابه
اسكاتا تضمناه ليلي ادعان وحجتي قهر ومن غير هذا الفن وان كان مسلتنا ما حكي
عن ابليس لعنه الله انه حين ظهر لعيسى ابن مريم عليه السلام قال الست تقول انه
لن يصيبك الا ما كتب الله عليك قال نعم قال فارم نفسك من ذروة هذا الجبل فانه
ان يقدر لك السلامة تسلم فقال له يا ملعون ان الله يختبر عباده وليس للعبد
ان يختبر ربه ومثل هذا الجواب لا يستغرب من انبياء الله تعالى الذين امدهم بوحيه
وايدهم بنصره وانما يستغرب ممن يلجا الى خاطره ويعول على بديهته وروي عن ابن
عباس رضي الله تعالى عنهما قال قيل لعلي بن ابي طالب رضي الله تعالى عنه كم بين السماء والارض قال دعوة
مستجابة قيل فكم بين المشرق والمغرب قال مسيرة يوم للشمس فكان هذا السوال من سائله
اما اختبار واما استصعاب فصدر عنه من الجواب ما اسكت فاما اذا اجتمع هذان
الوجهان في العقل المكتسب وهو ما ينفيه فرط الذكاء بجودة الحدس وصحة
القريحة بحسن البديهة مع ما ينميه الاستعمال بطول التجارب ومرور الزمان
بكثرة الاختبار فهو العقل الكامل على الاطلاق في الرجل الفاضل الاستحقاق روي عن انس
بن مالك رضي الله تعالى عنه قال اثني على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير فقال
كيف عقله قالوا يا رسول الله ان من عبادته ان من خلقه ان من ادبه فقال كيف عقله
قالوا يا رسول الله نثني عليه بالعبادة واصناف الخير وتسالنا عن عقله فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم ان الاحمق انما يصيب بجهله اعظم من فجور الفاجر وانما يقرب
الناس من ربهم بالزلفى على قدر عقولهم واختلف الناس في العقل المكتسب اذا تناهى
وزاد هل يكون فضيلة ام لا فقال قوم لا يكون فضيلة لان الفضايل هيات متوسطة
بين فضيلتين ناقصتين كما ان الخير متوسط بين رذيلتين فما جاوز التوسط خرج عن
حد الفضيلة وقد قالت الحكماء للاسكندر ايها الملك عليك بالاعتدال في كل الامور فان

الزيادة عيب والنقصان عجز هذا مع ما وردت به السنة عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم أنه قال خير الأمور أوساطها وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه
خير الأمور النمط الأوسط إليه يرجع العالي وبه يلحق التالي وقال الشاعر
لا تذهبن في الأمور فرطا لا تسألن إن سألت شططا وكن من الناس جميعا وسطا
قالوا لأن زيادة العقل تفضي بصاحبها إلى الدهاء والمكر وذلك مذموم وصاحبه
ملوم وقد أمر عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أبي موسى الأشعري أن يعزل
زيادا عن ولايته فقال زياد يا أمير المؤمنين أعن موجدة أو خيانة فقال
لا عن واحدة منهما ولكن خفت أن أحمل الناس فضل عقلك وأقل هذا المحكي
عن عمر ما قيل قديما إفراط العقل مضر بالجسد وقال بعض الحكماء كفاك من
عقلك ما دلك على سبيل رشدك وقال بعض البلغاء قليل يكفي خير من كثير
يطغي وقال آخرون وهو أصح القولين زيادة العقل فضيلة لأن المكتسب
غير محدود وإنما تكون زيادة الفضائل المحدودة نقصانا مذموما لأن ما جاوز
الحد لا يسمى فضيلة كالشجاع إذا زاد على حد الشجاعة نسب إلى التهور والسخي
إذا زاد على السخاء نسب إلى التبذير وليس كذلك حال العقل المكتسب لأن
الزيادة فيه زيادة علم بالأمور وحسن إصابة بالظنون ومعرفة
ما لم يكن إلى ما يكون وذلك فضيلة لا نقص وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
أفضل الناس أعقل الناس وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال العقل حيث
كان الف مألوف وقد قيل في تأويل قوله تعالى (قل كل يعمل على شاكلته)
أي حسب عقله وقال القاسم بن محمد كانت العرب تقول من لم يكن عقله
أغلب خصال الخير عليه كان حتفه في أغلب خصال الخير عليه وقيل في منثور
الحكم كل شيء إذا كثر رخص إلا العقل فإنه إذا كثر غلا وقال بعض البلغاء
إن العاقل من عقله في إرشاد ومن رأيه في إمداد فقوله سديد وفعله
حميد والجاهل من جهله في إغواء ومن هواه في إغراء فقوله سقيم وفعله
ذميم وأنشدني ابن لنكك لأبيه (من يكن أكثر عقله ... أهلكه أكثر ما فيه)

لا يرقع ولا يشعب وقال بعض البلغاء دولة الجاهل عبر العاقل وقال
انوشروان لبزرجمهر اي الاشياء خير للمرء قال عقل يعيش به قال
فان لم يكن قال فاخوان يسترون عليه قال فان لم يكن قال فمال
يتحبب به الى الناس قال فان لم يكن قال فعي صامت قال فان
لم يكن قال فموت خارف وقال سابور بن اردشير العقل نوعان
احدهما مطبوع والاخر مسموع ولا يصلح منهما واحد الا بصاحبه
فاخذ ذلك بعض الشعرا فنظمها فقال

رايت العقل نوعين فمسموع ومطبوع ٭ فلا ينفع مسموع اذا لم يكن مطبوع
كما لا تنفع العين وضوء الشمس ممنوع ٭

وقد وصف بعض الادبا العاقل بما فيه والاحمق بما فيه من الرذائل فقال اذا والى بذل
في المودة نصحه واذا عادى رفع عن الظلم قدره فيسعد مواليه
بعقله ويعتصم معاديه بعدله ان احسن الى احد ترك المطالبة
بالشكر وان اساء اليه مسيء سبب اليه اسباب العذر ومنحه
الصفح والعفو والاحمق ضال مضل ان اونس تكبر وان اوحش
تكدر وان استنطق تخلف وان ترك تكلف مجالسته مهينة
ومعاتبته محنة ومجاورته تغر وموالاته تضر مقاربته عنا
ومفارقته شفا وكانت ملوك الفرس اذا غضبت على عاقل حبسته
مع جاهل والاحمق يسيء الى غيره ويظن انه قد احسن اليه فيطالبه
بالشكر ويحسن اليه فيظن انه قد اساء اليه فيطالبه بالوزر فمساوي
الاحمق لا تنقضي وعيوبه لا تتناهى ولا يقف النظر منها الى غاية
الا لوحت مما وراها بما هو ادنى منها واردى وامر وادهى فما اكثر
العبر لمن نظر وانفعها لمن اعتبر وقال الاحنف بن قيس ما من شي
يحفظ الاحمق الا من نفسه وقال بعض البلغا الدنيا ربما اقبلت على

قال بعض الحكما الحاجة الى العقل قبيح والحاجة الى المال صح

من الفضايل صح

العاقل صح

على الجاهل بالاتفاق وادبرت على العاقل بالاستحقاق فان اتتك
منها سهمة مع جهل او فاتتك فيها بغية مع عقل فلا يحملنك
ذلك على الرغبة فى الجهل والزهد فى العقل فدولة الجاهل من
الممكنات ودولة العاقل من الواجبات وليس من امكنه شئ
من ذاته كمن استوجبه بآلاته وادابه **وبعد** فدولة الجاهل
كالغريب الذي يحن الى وطنه ودولة العاقل كالنسيب الذي
يحن الى الوصلة ولا يفرح المرء بحالة جليلة نالها بغير عقل
او منزلة رفيعة حلها بغير فضل فان الجهل ينزله منها ويزيله
عنها ويحطه الى رتبته ويرده الى قيمته بعد ان تظهر عيوبه وتكثر
ذنوبه ويصير مادحه هاجيا ووليه معاديا **واعلم** ان بحسب ما
ينشر من فضايل العاقل كذلك يظهر من رذايل الجاهل حتى
يصير مثلا فى الغابرين وحديثا للاخرين مع هتكه فى عصره
وقبح ذكره فى دهره كالذى **يروى** عطا عن جابر قال كان فى
بني اسرائيل رجل له حمار فقال يا رب لو كان لك حمار لعلفته
مع حماري فهم به نبي من الانبيا فاوحى الله تعالى اليه انما
اثيب كل انسان على قدر عقله **واستعمل** معاوية رجلا من
كلب فذكر المجوس عنده يوما فقال لعن الله المجوس ينكحون امهاتهم
والله لو اعطيت عشرة الاف درهم ما نكحت امي فبلغ ذلك
معاوية فقال قبحه الله اترونه لو زادوه فعل وعزله وولى الربيع
العامري وكان من نوكى اليمامة فاقاد كلبا بكلب فقال فيه **الشاعر**

شهدت بان الله حق لقاوه ۞ وان الربيع العامري رقيع
اقاد لنا كلبا بكلب ولم يدع ۞ دماء كلاب المسلمين تضيع

وليس للجهل غاية ولا لمضار الحمق نهاية وقد قال **الشاعر**

لمنافع

لكل داء دواء يستطب به ۞ الا الحماقة اعيت من يداويها

فصل فاما الهوى فهو عن الخير صاد وللعقل مضاد لانه
ينتج من الاخلاق قبايحها ويظهر من الافعال فضايحها ويجعل
ستر المروة منهتوكا ومدخل الشر مسلوكا **وقال** عبد الله بن
عباس رضي الله عنهما الهوى اله يعبد من دون الله ثم تلا هذه الاية
افرايت من اتخذ الهه هواه **وقال عكرمة** فى قوله تعالى ولكنكم
فتنتم انفسكم يعني بالشهوات وتربصتم يعني بالتوبة وارتبتم
يعني فى امر الله وغرتكم الاماني يعني بالتسويف حتى جاء امر الله يعني
الموت وغركم بالله الغرور يعني الشيطان **ويروى** عن النبي صلى
الله عليه وسلم انه قال طاعة الشهوة داء وعصيانها دواء **وقال**
عمر رضي الله عنه اقرعوا هذه النفوس عن شهواتها فانها طلاعة
تنزع الى شر غاية ان هذا الحق ثقيل مري وان الباطل خفيف
وبي **وترك** الخطيئة خير من معالجة التوبة ورب نظرة زرعت شهوة
وشهوة ساعة اورثت حزنا طويلا **وقال علي ابن ابي طالب كرم الله**
وجهه اخاف عليكم اثنتين اتباع الهوى وطول الامل فان اتباع الهوى
يصد عن ذكر الله وطول الامل ينسي الاخرة **وقال** الشعبي انما سمي
الهوى هوى لانه يهوي بصاحبه **وقال** اعرابي الهوى هوان ولكن
غلط باسمه فاخذه بعض الشعرا **وقال**

ان الهوان هو الهوى قلب اسمه ۞ فاذا هويت فقد لقيت هوانا

وقيل فى منثور الحكم من اطاع هواه اعطا عدوه مناه **وقال**
بعض الحكما العقل صديق مقطوع والهوى عدو متبوع **وقال**
بعض البلغا افضل الناس من عصا هواه وافضل منه من رفض دنياه
وقال هشام بن عبد الله بن مروان شعرا

اذا انت لم تعص الهوا قادك الهوى :. الى كل بعض ما فيه عليك مقال
وقال ابن المعتز لم يقل هشام غير هذا البيت
شعر
اذا ما رايت المرء يقتاده الهوى :. فقد ثكلته عند ذاك ثواكله
وقد اشمت الاعداء جهلا بنفسه :. وقد وجدت فيه مقالا عواذله
وما يردع النفس اللجوج عن الهوا :. من الناس الا حازم الراى كامله
فلما كان الهوى غالبا والى سبيل المهالك موردا جعل العقل عليه
رقيبا مجاهدا يلاحظ عثرة غفلته ويدفع سطوة بادرته
ويوضح خداع حيلته لان سلطان الهوى قوي ومدخل مكره
خفي ومن هذين الوجهين يوتى العاقل حتى تنفذ احكام الهوى
عليه اعني باحد الوجهين قوة سلطانه وبالاخر خفاء مكره واما
الوجه فهو ان يقوى سلطان الهوى بكثرة دواعيه حتى تستولي عليه
مغالبة الهوى والشهوات فيكل العقل عن دفعها ويضعف عن
منعها مع وضوح قبحها في العقل المقهور بها فهذا يكون في
الاحداث اكثر وعلى الشباب اغلب لقوة شهواتهم وكثرة دواعي الهوى
المتسلطة عليهم وانهم ربما جعلوا الشباب عذرا لهم كما قال محمد بن
بشير كل يرى ان الشباب له :. في كل مبلغ حاجة عذر ولذلك
قال بعض الحكما الهوى ملك غشوم ومتسلط ظلوم وقال بعض الادبا
الهوى عسوف والعدل مالوف قال الشاعر
يا غافلا اردى الهوى عقله :. مالك قد سدت عليك الامور
اتجعل العقل اسير الهوى :. وانما العقل عليه امير
وحسم ذلك ان يستعين العقل بالنفس النفورة ويشعرها ما في
عواقب الهوى من شدة الضرر وقبح الاثر وكثرة الاجرام وتراكم الاثام
فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حفت الجنة بالمكاره

وحفت

وحفت النار بالشهوات فاخبر صلى الله عليه وسلم ان الطريق الى الجنة
احتمال المكاره والطريق الى النار اتباع الشهوات وقد قال علي
كرم الله وجهه اياكم وتحكيم الشهوات على انفسكم فان عاجلها ذميم
واجلها وخيم فان لم ترها تنقاد لذلك بالتحذير والارهاب فسوفها
بالتاويل والارغاب فان الرغبة والرهبة اذا اجتمعا على النفس ذلت
لهما وانقادت وقد قال ابن السماك كن لهواك مسوفا ولعقلك
مستضعفا وانظر ما تسوء عاقبته فوطن نفسك على مجانبته فان ترك
النفس وما تهوى داؤها واجتناب ما تهوى دواؤها فاصبر على
الدوا لما تخاف من ضر الداء وقد قال الشاعر
صبرت عن اللذات حتى تولت :. والزمت نفسي صبرها فاستمرت
وما النفس الا حيث يجعلها الفتى :. فان اطمعت تاقت والا تسلت
فاذا انقادت النفس للعاقل بما قد اشعرت من عواقب الهوى لم
يلبث الهوى ان يصير بالعقل مزجورا وباليقين مقهورا ثم له
الحظ الاوفر من ثواب الخالق وثناء المخلوقين قال الله تعالى واما
من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي الماوى
وقال الحسن البصري افضل الجهاد جهاد الهوى وقال بعض الحكما
اعز العز الامتناع من تملك الهوى وقال بعض خير الناس من
اخرج الشهوة من قلبه وعصى هواه في طاعة ربه وقال بعض الادبا
من امات شهوته احيا مروته وقال بعض العلما ركب الله في الملائكة
من عقل بلا شهوة وركب البهائم من شهوة بلا عقل وركب ابن ادم
من شهوة وعقل فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة ومن غلبت
شهوته عقله فهو شر من البهائم وقيل لبعض الحكما من اشجع الناس
واحراهم بالظفر في مجاهدته قال من جاهد الهوى طاعة لربه واحتر

من ورود خواطر الهوى على قلبه وقد قال بعض الشعرا
قد يدرك الحازم ذو الرأي المنى ۞ بطاعة الحزم وعصيان الهوى
فاما الوجه الثاني فهو ان يخفي الهوى حتى تمو افعاله على العقل
فيتصور القبيح حسنا والضرر نفعا وهذا يدعو اليه احد شيئين
اما ان يكون للنفس ميل الى ذلك الشيء فيخفى عنها القبيح لحسن
ظنها وتتصوره حسنا لشدة ميلها الى ذلك الشيء قال
النبي صلى الله عليه وسلم حبك للشيء يعمي ويصم اي يعمي عن
الرشد ويصم عن الموعظة وقال علي ابن ابي طالب كرم الله تعالى وجهه
الهوى عمى قال الشاعر حسن في كل عين من تود
وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن ابي طالب
ولست براء عيب ذا الود كله ۞ ولا بعض ما فيه اذا كنت راضيا
فعين الرضا عن كل عيب كليلة ۞ ولكن عين السخط تبدي المساويا
واما السبب الثاني فهو استثقال الفكر في تمييز ما اشتبه
وطلب الراحة في اتباع ما يسهل حتى يظن ان ذلك اوفق امريه
واحمد حالتيه اغترارا بان الاسهل محمود والاعسر مذموم
فلن يعدم ان يتورط بخدع الهوى وزينة المكر في كل مخوف حذر
ومكروه عسر ولذلك قال عامر بن الظرب الهوى يقظان والعقل
راقد فمن ثم غلب وقال سليمان بن وهب الهوى امتع والرأي
انفع وقيل في المثل العقل وزير ناصح والهوى وكيل فاضح وقال
اذا المرء اعطى نفسه كلما اشتهت ۞ ولم ينهها تاقت الى كل باطل
وساقت اليه الاثم والعار الذي ۞ دعته اليه من حلاوة عاجل
وحسم السبب الاول ان يجعل فكرة قلبه حكما على نظر عينه فان
العين رايد الشهوة والشهوة من دواعي الهوى والقلب رايد

الحق والحق من دواعي العقل وقال بعض الحكما نظر الجاهل
بعينه ونظر العاقل بقلبه وخاطره ثم يتهم نفسه في صواب
ما علمت وتحسين ما اشتهت ليصح له الصواب ويستبين
له الحق فان الحق اثقل محملا واصعب مركبا فان اشكل عليه امران
اجتنب احبهما اليه وترك اسهلهما عليه فان النفس عن الحق
انفر وللهوى آثر وقال العباس بن عبد المطلب اذا اشتبه عليك
امران فدع احبهما اليك وخذ اثقلهما عليك وعلة هذا القول هو
ان الثقيل تبطي النفس عن التسرع اليه فيتضح مع الابطا وتطاول
الزمان صواب ما استعجم وظهور ما استبهم وقد قال علي بن ابي
طالب كرم الله تعالى وجهه من تفكر ابصر والمحبوب تسرع النفس اليه
وتعجل بالاقدام عليه فيقصر الزمان عن تصفحه ويفوت استدراكه
لتقضي فعله فلا ينفع التصفح بعد العمل ولا الاستبانة بعد الفوت
وقد قال بعض الحكما من كان عنك معرضا فلا تكن له متعرضا وقال الشاعر
اليس طلاب ما قد فات جهلا ۞ وذكر المرء ما لا يستطيع
ولقد وصف بعض البلغا حال الهوى وما يقارنه من محن الدنيا
فقال الهوى مطية الفتنة والدنيا دار المحنة فانزل عن الهوى
تسلم واعرض عن الدنيا تغنم ولا يغرنك هواك بطيب الملاهي
ولا تفتننك دنياك بحسن العواري فمدة اللهو تنقطع وعارية
الدهر ترتجع ويبقى عليك ما ترتكبه من المحارم وتكتسبه من المآثم
وقال علي بن عبد الله الجعفري سمعتني امراة بالطواف وانا انشد
اهوى هوى الدين واللذات تعجبني ۞ فكيف لي بهوى اللذات والدين
فقالت هما ضرتان فذر ايتهما شئت وخذ الاخرى فاما فرق ما بين
الهوى والشهوة مع اجتماعهما في العلة والمعلول واتفاقهما في الدلالة

والمدلول فهو ان الهوى يختص بالآراء والاعتقادات والشهوة تختص
بنيل المستلذات فصارت الشهوة من نتايج الهوى وهي اخص
والهوى اصل فهو اعم ونحن نسال الله ان يكفينا داعي الهوى ويصرف
عنا سبيل الردى ويجعل التوفيق لنا قايدا والعقل لنا مرشدا وقد
حكي ان الله تعالى اوحى الى عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام عظ نفسك
فان اتعظت فعظ الناس والا فاستحي مني وقال محمد بن كناسة

يا من روى ادبا فلم يعمل به ... ويكف عن زيغ الهوى تاديبي
حتى يكون بما يعلم عاملا ... من صالح فيكون غير معيب

وقال غيره

ابدا بنفسك فانهها عن غيها ... فاذا انتهيت عنه فانت لبيب

وقال اخر

فهناك تعذر ان وعظت ويبتدا ... بالقول منك ويقبل التعليم
لا تنه عن خلق وتاتي مثله ... عار عليك اذا فعلت عظيم

حكى ابو فروة ان طارقا صاحب شرطة خالد القسري مر بابن
شبرمة وطارق في موكبه فقال ابن شبرمة

اراها وان كانت تخب كانها ... سحابة صيف عن قليل تقشع

اللهم لي ديني ولهم دنياهم فاستعمل ابن شبرمة بعد ذلك على
القضا فقال له ابنه اتذكر قولك يوم كذا اذ مر بك طارق في موكبه
فقال يا بني انهم يجدون مثل ابيك ولا يجد ابوك مثلهم ان
اباك اكل من حلوايهم فحط في اهوايهم اما ترى هذا الدين الفاضل
كيف عوجل بالتقريع وقوبل بالتوبيخ من اخص ذويه ولعله من
ابر بنيه فكيف بنا ونحن اطلق منه عنانا وانطق منه جنانا اذا
رمقتنا اعين المتتبعين وتناولتنا السن المتعنتين هل نجد

غير

غير توفيق الله تعالى ملاذا او سوى عصمته معاذا وبالله التوفيق

الباب الثاني في آداب العلم

اعلم ان العلم
اشرف ما رغب فيه الراغب وافضل ما طلبه وجد فيه الطالب
وانفع ما كسبه واقتناه الكاسب لان شرفه ينم على صاحبه وفضله
ينمو عند طالبه قال الله تعالى هل يستوي الذين يعلمون والذين
لا يعلمون فمنع من المساواة بين العالم والجاهل بما قد خص به
العالم من فضيلة العلم وقال الله تعالى وما يعقلها الا العالمون
فنفى ان يكون غير العالم يعقل عنه امرا او يفهم عنه زجرا وروي
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال اوحى الله تعالى الى ابرهيم
عليه الصلاة والسلام اني عليم احب كل عليم وروى ابو امامة
قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجلين احدهما
عالم والاخر عابد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل العالم
على العابد كفضلي على ادناكم وقال علي رضي الله تعالى عنه الناس
ابناء ما يحسنون وقال مصعب بن الزبير لابنه تعلم العلم فان كان
لك مال كان لك جمالا وان لم يكن لك مال كان لك مالا وقال عبد الملك
ابن مروان لبنيه يا بني تعلموا العلم فان كنتم سادة فقتم وان كنتم
وسطا سدتم وان كنتم سوقة عشتم وقال بعض الحكما العلم شرف
لا قديم له والادب مال لا خوف عليه وقال بعض الادبا العلم افضل
خلف والعمل به اكمل شرف وقال بعض البلغا تعلم العلم فانه يقومك
ويسددك كثيرا ويصلح زيغك وفسادك ويرغم عدوك وحاسدك
ويقوم عوجك وميلك ويصحح همتك واملك وقال علي كرم الله تعالى
وجهه قيمة كل امرئ ما يحسن فاخذه الخليل فنظمه شعرا فقال

لايكون العلي مثل الدني لا ❊ ولا ذو الذكا مثل الغبي ❊
قيمة المرء قدر ما يحسن ❊ المرء قضاء من الامام علي ❊

وليس يجهل فضل العلم الا اهل الجهل لان فضل العلم انما يعرف بالعلم وهذا ابلغ في فضله لانه لا يعلم الا به فلما عدم الجهال الذين يتوصلون به الى فضل العلم جهلوا فضله واسترذلوا اهله وتوهموا انما تميل اليه نفوسهم من الاموال المقتناة والطرف المشتهاة اولى ان يكون اشتغالهم بها وقد قال ابن المعتز في منثور الحكم العالم يعرف الجاهل لانه كان جاهلا والجاهل لا يعرف العالم لانه لم يكن عالما وهذا صحيح ولاجله انصرفوا عن العلم واهله انصراف الزاهدين وانحرفوا عنه انحراف المعاندين لان من جهل شيئا عاداه وانشد

ابن لنكك لابن دريد

جهلت فعاديت العلوم واهلها ❊ كذاك يعادي العلم من هو جاهله
ومن كان يهوى ان يرى متصدرا ❊ ويكره لا ادري اصيبت مقاتله

وقيل لبزرجمهر العلم افضل ام المال قال بل العلم قيل فما بالنا نرى العلماء على ابواب الاغنيا ولا نكاد نرى الاغنياء على ابواب العلما قال ذلك لمعرفة العلما بمنفعة المال وجهل الاغنياء بفضل العلم وقيل لبعض الحكما لم يجتمع العلم والمال قال لعز الكمال وانشد

بعض اهل العصر

وفي الجهل قبل الموت موت لاهله ❊ وان امرء لم يحيى بالعلم ميتا ❊ فليس له حين النشور نشور ❊

ووقف بعض المتعلمين على باب عالم فنادى تصدقوا علينا بما لا يتعب ضرسا ولا يسقم جسما فاخرج له طعاما فقال فاقتي الى كلامكم اشد من حاجتي الى طعامكم اني لطالب هدى لا سائل ندى فاذن له العالم وافاده من كل ما سال عنه فخرج مسرورا فرحا وهو

يقول علم اوضح لبسا خير من مال اغنا نفسا واعلم ان كل العلوم شريفة ولكل علم منها فضيلة والاحاطة بجميعها محال قيل لبعض الحكما من يعرف كل العلم فقال كل الناس وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من ظن ان للعلم غاية فقد بخسه حظه ووضعه في غير منزلته التي وضعه الله بها حيث يقول وما اوتيتم من العلم الا قليلا وقال بعض الحكما لو كنا نطلب العلم لنبلغ غايته كنا قد بدانا العلم بالنقيصة ولكن كنا نطلبه لننقص في كل يوم من الجهل ونزداد من العلم وقال بعض العلما المتعمق في العلم كالسابح في البحر ليس يرى ارضا ولا يعرف طولا ولا عرضا وقيل لحماد الراويه ما تشبع من هذه العلوم فقال استفرغنا فيها المجهود فلم نبلغ فيها المحدود وكما قال الشاعر

اذا قطعنا علما بدا علم

يا نفس خوضي بحار العلم او غوصي ❊ فالناس ما بين معموم ومخصوص ❊
لا شيء في هذه الدنيا يحيط به ❊ الا احاطة منقوص بمنقوص ❊

فاذا لم يكن الى معرفة جميع العلوم سبيل وجب صرف الاهتمام الى معرفة اهمها والعناية باولاها وافضلها وذلك علم الدين لان الناس بمعرفته يرشدون وبجهله يضلون اذ لا تصح عبادة فاعلها بجهل صفات ادائها ولم يعلم شروط اجزائها ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم فضل العلم خير من فضل العبادة وانما كان كذلك لان العلم يبعث على فضل العبادة ومع خلو فاعلها من العلم بها لا تكون عبادة فلزم علم الدين كل مكلف وقال صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم وفيه تاويلان احدهما علم ما لا يسع جهله من العبادات والثاني جملة العلوم اذا لم يقم بطلبه من فيه كفاية واذا كان علم الدين قد اوجب الله تعالى فرض بعضه على الاعيان وفرض

جميعه على الكفاية وجب طلبه وكان أولى مما لم يجب فرضه على الاعيان
ولا على الكافة قال الله تعالى فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة
ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون
وروى عبد الله بن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد
فاذا هو بمجلسين احدهما يذكرون الله تعالى والاخر يتفقهون
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا المجلسين على الخير واحدهما
احب الي من صاحبه اما هولاء فيذكرون الله تعالى ويسالونه فان
شاء اعطاهم وان شاء منعهم واما المجلس الاخر فيتعلمون الفقه
ويعلمون الجاهل وانما بعثت معلما وجلس الى اهل الفقه وروى
مروان ابن جناح عن يونس بن ميسرة عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم انه قال الخير عادة والشر لجاجة ومن يرد الله به خيرا يفقهه
في الدين وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال خيار امتي
علماؤها وخيار علمائها فقهاؤها وروى معاذ بن رفاعة عن ابرهيم
ابن عبد الله العذري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل
هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال
المبطلين وتاويل الجاهلين وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
انه قال عليكم بخلفائي قالوا ومن خلفاؤك قال الذين يحيون
سنتي ويعلمونها عباد الله وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
انه قال الفقه في الدين حق على كل مسلم الا فتعلموا وعلموا وتفقهوا
ولا تموتن جهالا وروى سليمان بن يسار عن ابي هريرة ان النبي صلى
الله عليه وسلم قال ما عبد الله بشيء افضل من فقه في الدين ولفقيه
واحد اشد على الشيطان من الف عابد ولكل شيء عماد وعماد الدين
الفقه وربما مال بعض المتهاونين بالدين الى العلوم العقلية وراى

انها

بالتكرم

انها احق بالفضيلة واولى بالتقديم استثقالا لما تضمنه الدين من
التكليف واسترذالا لما جاء به الشرع من التعبد والتوقيف والكلام
مع مثل هذا في اصل لا يتسع له هذا الفصل ولم نر ذلك فيمن
سلمت فطرته وصحت رويته لان العقل يمنع من ان يكون الناس
هملا او سدى يعتمدون على ارائهم المختلفة وينقادون لاهوائهم المتشعبة
لما تؤول اليه امورهم من الاختلاف والتنازع وتفضي اليه احوالهم
من التباين والتقاطع فلم يستغنوا عن دين يتالفون به ويتفقون
عليه ثم العقل موجب له او متابع ولو تصور هذا المتخيل لتصور ان
الدين ضرورة في العقل وان العقل للدين اصل لقصر عن التقصير
واذعن للحق ولكن اهمل نفسه فضل واضل وقد يتعلق بالدين علوم
قد بين الشافعي رضي الله عنه فضيلة كل واحد منها فقال من تعلم
القران عظمت قيمته ومن تعلم الفقه نبل مقداره ومن كتب الحديث
قويت حجته ومن تعلم الحساب جزل رايه ومن تعلم العربية رق
طبعه ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه ولعمري ان صيانة النفس اصل
الفضائل لان من اهمل صيانة نفسه ثقة بما منحه العلم من فضيلته
وتوكلا على ما يلزم الناس من صيانته سلبوه فضيلة علمه ووسموه
بقبيح تبذله فلم يف ما اعطاه العلم بما سلبه التبذل لان
القبيح انم من الجميل والرذيلة اشهر من الفضيلة اذ الناس لما في
طباعهم من بغضة الحسد ونزاع المنافسة تنصرف عيونهم عن
المحاسن الى المساوي فلا ينصفون محسنا ولا يحابون مسيئا لا سيما
من كان بالعلم موسوما واليه منسوبا فان زلته لا تقال وهفوته
لا تعذر اما لقبح اثرها واغترار كثير من الناس به فقد قيل في منثور
الحكم زلة العالم كالسفينة تغرق ويغرق معها خلق كثير وقيل

صورة

لعيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام من اشد الناس فتنة قال زلة العالم
اذا زل زل بزلته خلق كثير فهذا وجه ولان اهل الجهل بزمه اغرى
وعلى تنقصه احرى ليسلبوه فضيلة التقدم ويمنعوه مباينة
التخصيص عنادا لما جهلوه ومقتا لما باينوه لان الجاهل يرى العلم
تكلفا ولوما كما ان العالم يرى الجهل خلفا وذما وانشد
الربيع الشافعي رضي الله تعالى عنه

ومنزلة السفيه من الفقيه ... كمنزلة الفقيه من السفيه
فهذا زاهد في قرب هذا ... وهذا فيه ازهد منه فيه
اذا غلب الشقا على سفيه ... تنطع في مخالفة الفقيه

وقال يحيى بن خالد لابنه عليك بكل نوع من العلم فخذ منه فان
المرء عدو ما جهل وانا اكره ان تكون عدو شي من العلم وانشد

تفنن وخذ من كل علم فانما ... يفوق امرؤ في كل فن له علم
فانت عدو للذي انت جاهل به ... وللعلم انت تتقنه سلم

فاذا صان ذو العلم نفسه حق صيانتها ولازم فعل ما يلزمها
امن تعيير الموالي وتنقص المعادي وجمع الى فضيلة العلم جمال
الصيانة وعز النزاهة فصار بالمنزلة التي يستحقها بفضائله
روى ابو الدردا رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
العلما ورثة الانبيا فان الانبيا لم يورثوا دينارا ولا درهما
وانما ورثوا العلم وروي عن ابي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم
قال للانبيا فضل على العلما فضل درجتين وللعلماء على الشهداء
فضل درجة وقال بعض البلغا ان من الشريعة ان تجل اهل الشريعة
ومن الصنيعة ان ترب رب الصنيعة فينبغي لمن استدل بفطرته
على استحسان الفضائل واستقباح الرذائل ان ينفي عن نفسه رذائل

الجهل

نقد؟

الجهل بفضائل العلم وغفلة الاهمال باستيقاظ المعانات ويرغب
في العلم رغبة متحقق لفضائله واثق بمنافعه ولا يلهيه عن
طلبه كثرة مال وجدة ولا نفوذ امر وعلو منزلة فان من تفقد
امره فهو الى العلم احوج ومن علت مرتبته فهو بالعلم احق وروى
انس عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الحكمة تزيد الشريف
شرفا وترفع العبد المملوك حتى تجلسه مجالس الملوك وقال بعض
الادبا كل عز لا يؤكده جود مذلة وكل علم لا يؤيده عقل مضلة وقال
بعض علماء السلف اذا اراد الله تعالى بالناس خيرا جعل العلم في ملوكهم
والملك في علمائهم وقال بعض العلما العلم عصمة الملوك لانه يمنعهم من
الظلم ويردهم الى الحكمة ويصدهم عن الاذية ويعطفهم على الرعية
فمن حقهم ان يعرفوا حقه ويستبطوا اهله فاما المال فظل زائل
وعارية مسترجعة وليس في كثرته فضيلة ولو كانت فيه فضيلة
لخص الله به من اصطفاه لرسالته واجتباه لنبوته وقد كان اكثر
الانبياء عليهم الصلاة والسلام مع ما خصهم الله به من كرامته وفضلهم
على سائر خلقه فقراء لا يجدون بلغة ولا يقدرون على شي حتى
صاروا في الفقر مثلا فقال البحتري فقر كفقر الانبيا وغربة وصبابة
ليس البلاد بواحد ولعدم الفضيلة في المال منحه الله تعالى الكافر
وحرمه المومن قال الشاعر في المال

كم كافر بالله امواله ... تزداد اضعافا على كفره
ومومن ليس له درهم ... يزداد ايمانا على فقره
يا لائم الدهر وافعاله ... مشتغلا يزري على دهره
الدهر مامور له امر ... ينصرف الدهر الى امره

وقد سئل علي بن ابي طالب رضي الله تعالى فضله ابين العلم

كفرا؟

عن؟ بين؟

والمال فقال العلم خير من المال انعلم يحرسك وانت تحرس المال والعلم
حاكم والمال محكوم عليه مات خزان الاموال وبقي خزان العلوم اعيانهم
مفقودة واشخاصهم في القلوب موجودة وقال صالح بن عبد القدوس
وسئل بعض الحكما ايما افضل العلم ام المال فقال الجواب غير هذا ايما
افضل المال او العقل وقال صالح بن عبد القدوس كان خير ثنائه في
الناس قولهم غني واجد وربما امتنع الانسان من طلب العلم لكبر
سنه واستحيا من تقصيره في صغره ان يتعلم في كبره فرضي بالجهل
ان يكون به موسوما واثره على العلم ان يصير به مبتديا وهذا
من خدع الجهل وغرور الكسل لان العلم اذا كان فضيلة فرغبة
ذوي الاسنان فيه اولى والابتدا بالفضيلة فضيلة ولان يكون
شيخا متعلما خير من ان يكون شيخا جاهلا حكي ان بعض العلما راى
شيخا يحب النظر في العلم ويستحي فقال له يا هذا اتستحي ان تكون
في اخر عمرك افضل مما كنت في اوله وذكر ان ابرهيم بن المهدي
دخل على المامون وعنده جماعة يتكلمون في الفقه فقال يا عم ما
عندك فيما يقول هولاء فقال يا امير المومنين شغلونا في الصغر
واشتغلنا في الكبر فقال لم لا تتعلم اليوم قال او يحسن بمثلي طلب
العلم قال نعم والله لان تموت طالبا للعلم خير من ان تعيش قانعا
بالجهل قال والى متى يحسن بي طلب العلم قال ما حسنت بك الحياة
ولان الصغير اعذر وان لم يكن في الجهل عذر لانه لم تطل به مدة
التفريط ولا استمرت عليها ايام الاهمال وقد قيل في منثور الحكم جهل
الشباب وعلم محقور واما الكبير فالجهل به اقبح ونقصه عليه افضح لان
علو السن اذا لم يكسبه فضلا ولم يفده علما وكانت ايامه في الجهل
ماضية ومن الفضل خالية كان الصغير افضل منه لان الرجا له اكثر

والامل

والامل فيه اظهر وحسبك نقصا برجل يكون الصغير المساوي له
في الجهل افضل منه وانشد بعض اهل الادب

اذا لم تكن مر السنين مترجما ... عن الفضل في الانسان سميته طفلا
وما تنفع الاعوام حين تعدها ... ولم تستفد منهن علما ولا فضلا
ارى الدهر من سوء التصرف مائلا ... الى كل ذي جهل كان به جهلا

وربما امتنع من طلب العلم لتعذر الكفاية ويشغله اكتسابها
عن التعلم وهذا وان كان من غيره اعذر مع انه قلما يكون
ذلك الا عند ذي شره غريب وشهوة مستعبدة فينبغي ان يصرف
الى العلم حظا من زمانه فليس كل الزمان زمان الاكتساب ولا بد
للمكتسب من اوقات الراحة والاستراحة وايام العطلة ومن
صرف نفسه الى الكسب حتى لم يترك لها فراغا الى غيره فهو من عبيد
الدنيا واسراء الحرص وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه
قال لكل شي فطرة فمن كانت فطرته الى العلم فقد نجا وروي عنه صلى
الله عليه وسلم انه قال كونوا علماء صالحين فان لم تكونوا علماء صالحين
فجالسوا العلما واسمعوا علما يدلكم على الهدى ويردكم عن الردى
وقال بعض الحكما من صاحب العلما وقر ومن جالس السفها
حقر وربما منعه من طلب العلم ما يظنه من صعوبته وبعد
غايته ويخشى من قلة ذهنه وبعد فطنته وهذا الظن
اعتذار ذوي النقص وخيفة اولي العجز لان الاخبار قبل الاختبار
جهل والخشية قبل الابتلا عجز قال الشاعر

لا تكونن للامور هيوبا ... فالى خيبة يصير الهيوب

وقال رجل لابي هريرة اريد ان اتعلم العلم واخاف ان اضيعه
فقال كفى بترك العلم اضاعة وليس وان تفاضلت الافهام

وتفاوتت الفطن ما ينبغي لمن قلّ منهما حظّه ان ييأس من
نيل القليل وادراك اليسير الذي يخرج به من حدّ الجهالة
الى ادنى مراتب التخصيص فان الماء مع لينه يوثر في صمّ الصخور
وكيف لا يوثر العلم الزكي في نفس راغب شهيّ وطالب خليّ
لا سيّما وطالب العلم معان قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الملائكة
لتضع اجنحتها لطالب العلم رضا بما طلب وربما منع ذا
سفاهة من طلب العلم ان يصوّر في نفسه حرفة اهله وتضايق
الامور مع الاشتغال به حتى يستهم بالادبار ويتوسمهم
بالحرمان فان راى محبرة تطيّر منها او وجد كتابا اعرض عنه وان
راى متحلّيا بالعلم هرب منه كانه لم يره عالما مقبلا وجاهلا
مدبرا ولقد رايت من هذه الطبقة جماعة ذوي منازل
واحوال كنت اخفي عنهم ما يصحبني من محبرة او كتاب لئلا اكون
عندهم مستثقلا وان كان البعد منهم مونسا ومصلحا والقرب
منهم موحشا ومفسدا فقد قال بزرجمهر الجهل في القلب كالنز
في الارض يفسد ما حوله لكني اتبعت فهم الحديث المروي عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خالقوا الناس باخلاقهم وخالفوهم
في اعمالهم ولذلك قال رب جهل وقيت به علما وسفه حميت به حلما
وهذه الطبقة مما لا يرجى لها صلاح ولا يومل لها فلاح لانه
من اعتقد ان العلم شين وتركه زين وان للجهل اقبالا مجديا
وللعلم ادبارا مكديا كان ضلاله مستحكما ورشاده مستبعدا
وكان هو الخامس الهالك قال فيه علي ابن ابي طالب كرم الله تعالى
وجهه اغد عالما او متعلما او مستمعا او محبا ولا تكن الخامس
فتهلك وليس لمن هذه حاله في العذل نفع ولا في الاستصلاح

وكان في طرق قول بزرجمهر الجهل في القلب كالنز في الارض يفسد ما حوله

بعض البلغا

سه الذي

وقد روى خالد الحديث عن عبد الرحمن بن ابي بكر عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا صح

له

مطمع وقد قيل لبزرجمهر ما لكم لا تعاتبون الجهال فقال انا لا نكلف
العمي ان يبصروا ولا الصمّ ان يسمعوا وهذه الطائفة التي تنفر
من العلم هذا النفور وتعاند اهله هذا العناد ترى العقل بهذه
المثابة وتنفر من العقلاء هذا النفور وتعتقد ان العاقل محارف وان
الاحمق محظوظ وناهيك بضلال من هذا اعتقاده في العلم والعقل
هل يكون للخير اهلا وللفضل موضعا قال بعض البلغا احسن الناس
المساوي بين المحاسن والمساوي وعلة هذا انهم ربما راوا عاقلا
غير محظوظ وعالما غير مرزوق فظنوا ان العلم والعقل هما السبب
في قلة حظه ورزقه وقد انصرفت عيونهم عن حرمان اكثر النوكى
وادبار اكثر الجهال لان في العقلاء والعلماء قلة وعليهم من فضلهم سمة
ولذلك قيل العلماء غربا لكثرة الجهال فاذا ظهرت سمة فضلهم و
صادف ذلك قلة حظ بعضهم تنوهوا بالتمييز واشتهروا بالتعيين
فصاروا مقصودين باشارة العائبين ملحوظين بايماء الشامتين
والجهال والحمقى لما كثروا ولم يتخصصوا انصرفت عنهم النفوس
فلم يلحظ المحروم منهم بطرف شامت ولا قصد المحدود منهم باشارة
عائب فلذلك ظن الجاهل المرزوق ان الفقر والضيق مختصان
بالعلم والعقل دون الجهل والحمق ولو فتشت احوال العلماء
والعقلاء مع قلتهم لوجدت الاقبال في اكثرهم ولو خبرت امور
الجهال والحمقى مع كثرتهم لوجدت الحرمان في اكثرهم وانما يصير
ذو الحال الواسعة منهم ملحوظا لان حظه عجب واقباله مستغرب
كما ان حرمان العاقل مشتهرا والعالم غريب واقلاله عجيب ولم
يزل الناس على سالف الدهور من مثل ذلك متعجبين وبه
معتبرين حتى قيل لبزرجمهر ما اعجب الاشياء فقال نجح الجاهل

فلذلك

شتهرا صح

واكيآء العاقل لكن الرزق بالجد والحظ لا بالعلم والعقل حكمة
منه يدل بها على قدرته واجرآء الامور على مشيئته وقد
قالت الحكما لو جرت الاقسام على قدر العقول لم تعش البهايم
فنظمه ابو تمام فقال

ينال الفتا من عيشه وهو جاهل ... ويكدى الفتا في دهره وهو عالم
ولو كانت الارزاق تجرى على الحجا ... هلكن اذن من جهلهن البهايم

وقال كعب بن زهير بن ابي سلمى

لو كنت اعجب من شيء لاعجبني ... سعي الفتى وهو مخبو له القدر
يسعى الفتى لامور ليس يدركها ... والنفس واحدة والهم منتشر

على ان العلم والعقل سعادة واقبال وان قل معهما المال وضاق
معهما الحال فكيف يكون الجاهل الغني رفيعا والجهل يضعه
ام يكون العالم الفقير شقيا والعلم يرفعه وقد قيل في منثور
الحكم كم من ذليل اعزه علمه وكم من عزيز اذله جهله وقال
عبد الله بن المعتز نعمة الجاهل كروضة على مزبلة وقال
بعض الحكما كلما حسنت نعمة الجاهل ازداد فيها قبحا وقال
اخر يا بني تعلموا العلم وان لم تنالوا به من الدنيا حظا فلان
يذم الزمان لكم احب من ان يذم الزمان بكم وقال بعض الادبا
من لم يستفد بالعلم مالا اكتسب به جمالا وقال ابن طباطبا

حسود مريض القلب يخفي انينه ... ويضحى كئيب البال عندي حزينه
يلوم على ان رحت للعلم واعيا ... اجمع من عند الرواة فنونه
واعرف اركان الكلام وعونه ... واحفظ مما استفيد عيونه
ويزعم ان العلم لا يجلب الغنى ... ويحسن بالجهل الذميم ظنونه
فيا لايمى دعني اغالي بقيمتي ... فقيمة كل الناس ما يحسنونه

يستدل
خ ٢ الارزاق
سعيد ٧
الجهل والحمق حرمان وادبار ان كثر معهما المال واتسعت بهما الحال لان السعادة مكتسبة بكثرة المال فكم من شقي ومقل سعيد
خ ٢ خير

وانا

وانا استعيذ بالله من خدع الجهل المذلة وبوادر الحمق المضلة
واسال الله السعادة بعقل رادع يستقيم به من ذل وعلم نافع
يستهدي به من ضل فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه
قال اذا استرذل الله عبدا اخطر عليه العلم فينبغي لمن زهد في
العلم ان يكون فيه راغبا ولمن رغب فيه ان يكون له طالبا و
لمن طلبه ان يكون منه مستكثرا ولمن استكثر منه ان يكون به
عاملا فلا تطلب لتركه احتجاجا وللتقصير فيه عذرا قال الشاعر

فلا تعتذر اني في الاساءة انه ... شرار الرجال من يسي فيعتذر

ولا يسوف به نفسه بالمواعيد الكاذبة ويمنيها بانقطاع
الاشغال المتصلة فان لكل وقت شغلا وفي كل زمان عذرا

وقال الشاعر

نروح ونغدو لحاجاتنا ... وحاجة من عاش لا تنقضي

ويقصد طلب العلم وانقيادا لتيسير الله قاصدا به وجهه بنية خالصة
وعزيمة صادقة فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من
تعلم علما لغير الله واراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار وقد
روي ابو هريرة رضي الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال تعلموا العلم قبل ان يرفع ورفعه ذهاب اهله
فان احدكم لا يدري متى يحتاج اليه وليحذر ان يطلبه
مماريا او مرائيا فان المماري به مهجور لا ينتفع والمرائي
محقور لا ير تفع وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا تعلموا
العلم لتماروا به السفها ولا تعلموا العلم لتجادلوا به العلما فمن
فعل ذلك فالنار النار وليس المماري به هو المناظر فيه طلبا
للصواب منه ولكنه القاصد لدفع ما يرد عليه من فاسد او صحيح

وفيهم جاءت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لا يجادل
الا منافق او مرتاب وقال الاوزاعي اذا اراد الله بقوم شرا
اعطاهم الجدل ومنعهم العمل وانشد الرياشي لمصعب بن عبد الله

اجادل كل معترض ظنين ... فاجعل دينه عرضا لديني
واترك ما علمت لراي غيري ... وليس الراي كالعلم اليقين
وما انا والخصومة وهي شي ... تصرف في الشمال وفي اليمين
واما ما علمت فقد كفاني ... واما ما جهلت فجنبوني

وقد بين ذلك بعض الحكما فقال لصاحبه لا يمنعك حذر
المرا من حسن المناظرة فان المماري هو الذي لا يريد ان
يتعلم منه احد ولا يرجو ان يتعلم من احد واعلم ان لكل مطلوب
باعثا والباعث على المطالب شيان رغبة او رهبة فليكن طالب
العلم راغبا راهبا اما الرغبة ففي ثواب الله تعالى لطالبي مرضاته
وحافظي مفترضاته واما الرهبة فهي من خوف عقاب الله تعالى
لتاركي اوامره ومهملي زواجره فاذا اجتمعت فيه الرهبة والرغبة
الرهبة من عقاب الله والرغبة في ثواب الله اديا الى كنه العلم
وحقيقة الزهد لان الرغبة اقوى الباعثين على العلم والرهبة
اقوى السببين في الزهد وقد قال بعض الحكما اصل العلم الرغبة
وثمرته السعادة واذا اقترن الزهد والعلم فقد تمت السعادة و
عمت الفضيلة وان افترقا فيا ويح مفترقين ما اضر افتراقهما و
اقبح انفرادهما وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من ازداد
في العلم رشدا ولم يزدد في الدنيا زهدا لم يزدد من الله الا بعدا
وقال مالك بن دينار من لم يكن له من الورع ما يمنعه فما اوتي
من العلم ما ينفعه وقد قال بعض الحكما الفقيه بغير ورع كالسراج

مفترضاته

واصل الزهد الرهبة وثمرته العبادة صح

يضيء البيت ويحرق نفسه **فصل** واعلم ان للعلوم اوايل
تودي الى اواخرها ومداخل تفضي الى حقايقها فلا تطلب الاخير
قبل الاول ولا تطلب الحقيقة قبل المدخل فلا تدرك الاخير
ولا تعرف الحقيقة لان البنا على غير اس لا يبنى والثمر من غير
غرس لا يجنى ولذلك اسباب فاسدة ودواع واهية منها
ان يكون في النفس اغراض تختص بنوع من العلم فيدعو الغرض
الى قصد ذلك النوع ويعدل عن مقدماته كرجل يوثر القضا
ويتصدى للحكم فيقصد من علم الفقه اداب القاضي وما
يتعلق عليه من الدعاوي والبينات او يحب الاتسام بالشهادة
فيتعلم كتاب الشهادات لئلا يصير موسوما فاذا ادرك
ذلك ظن انه قد حاز من العلم جمهوره وادرك منه مشهوره
ولم ير ما بقي منه الا غامضا طلبه عنا وعويصا استخراجه
فناى لقصور همته على ما ادرك وانصرافها عما ترك ولو نصح
نفسه لعلم ان ما ترك اهم مما ادرك لان بعض العلم مرتبط
ببعض ولكل باب منه تعلق بما قبله فلا تقوم الاواخر الا
باوايلها وقد يصح قيام الاوايل بانفسها فيصير طلب الاواخر
بترك الاوايل تركا للاواخر والاوايل فاذا ليس يعرى من لوم
وان كان تارك الكل الوم ومنها ان يحب الاشتهار بالعلم اما
لتكسب او لتجمل فيقصد من العلم ما يشتهر به من مسايل الجدل
وطريق النظر ويتعاطى علم ما اختلف فيه دون ما اتفق عليه
ليناظر على الخلاف وهو لا يعرف الوفاق ويجادل الخصوم وهو
يجهل مذهبه مخصوم ولقد رايت من هذه الطبقة عددا
قد تحققوا بالعلم تحقق المتكلمين واشتهروا به اشتهار المتبحرين

بلغ

اواخرها

يجنى

بجهل ما يدعيه صح

وذلك

اذا اخذوا في مناظرة الخصوم ظهر كلامهم فاذا سئلوا عن واضح
مذهبهم قلت افهامهم حتى انهم ليخبطون في الجواب خبط عشواء
فلا يظهر لهم صواب ولا يستقر لهم جواب ثم لا يرون ذلك نقصا اذا
نطقوا في المجالس كلاما موصوفا ولفقوا على المحافل حجاجا مألوفا
وقد جهلوا من المذاهب ما يعلمه المبتدي ويتداوله الناشي فهم
دائما في غلط مضل او لفظ مزل ورايت قوما منهم يرون
الاشتغال بالمذهب تكلفا والاستكثار منه تخلفا وحاججني بعضهم
عليه فقال كيف يكون علم حافظ المذهب مستورا وعلم المناظر
عليه مشهورا فقلت لم يكن علم حافظ المذهب سريع الجواب
كثير الصواب فقال لان لم يسال سكت فلم يعرف والمناظر ان لم
يسأل سئل فعرف فقلت اليس اذا سئل الحافظ فاصاب بان
فضله واذا سئل المناظر فاخطا بان نقصه قال نعم وقد قيل
عند الامتحان يكرم الرجل او يهان فامسك عن جوابه لانه
ان انكر كابر المعقول ولو اعترف لزمته الحجة الا مسالة ادعان
والسكوت رضا ولان ينقاد المرء الى الحق اولى من ان يستفزه
الباطل وهذه طريقة لمن يقول اغرفوني وهو غير معروف
وبعيد مما لا يعرف العلم ان يعرف به وقد قال زهير
ومهما تكن عند امرئ من خليقة ... ولو خالها تخفى على الناس تعلم
ومن اسباب التقصير ايضا ان يغفل عن التعلم في الصغر ثم يشتغل به في
الكبر فيستحي ان يبتدئ بما ابتدأ به الصغير ويستنكف ان يساوي الحدث
الغرير فيبدأ باواخر العلوم واطرافها ويهتم بحواشيها واكنافها
ليتقدم على الضعيف الصغير المبتدي ويساوي الكبير المنتهي وهذا ممن
رضي بخداع نفسه وقنع بمداهنة حسه لان معقوله اذا حس

لهم صح

مستورا وهو

لانه صح

لمسود

واصلا

بما يبتدي به صح

ومعقول كل ذي حس يشهد بفساد هذا التصور وينطق باختلال هذا
التخيل لانه شيء لا يقوم في وهم والجهل بما يبتدي به المتعلم اقبح
من جهل ما ينتهي اليه العالم وقال الشاعر
ترق الى صغر الامر حتى ... يرقيك الصغير الى الكبير
فتعرف بالتفكر في صغير ... كبيرا بعد معرفة الصغير
ولهذا المعنى واشباهه كان التعلم في الصغر احمد وعن ابي الدرداء
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يتعلم في الصغر كالنقش على
الحجر والذي يتعلم في كبره كالذي يكتب على الماء قلت الحدث كالارض
الخالية اذا القي عليها شيء قبلته وانما كان كذلك لان الصغير افرغ
قلبا واقل شغلا وايسر تبذلا واكثر تواضعا وقد قيل في منثور
الحكم المتواضع من طلاب العلم اكثرهم علما كما ان المنخفض من الارض
اكثر البقاع ماء واما ان يكون الصغير اضبط من الكبير اذا عري من هذه
الموانع واوعى منه اذا خلا من هذه القواطع فكلا ان الاحنف بن قيس
سمع رجلا يقول التعلم في الصغر كالنقش في الحجر فقال الاحنف الكبير
اكبر عقلا ولكنه اشغل قلبا ولعمري لقد فحص الاحنف عن المعنى و
نبه على العلة لان قواطع الكبير كثيرة فمنها ما ذكرنا من الاستحيا
وقد قيل في منثور الحكم من رق وجهه رق علمه وقال الخليل
ابن احمد يزيغ الجاهل بين الحيا والكبر في العلم ومنها وفور شهوته
وتقسيم افكاره وقال الشاعر
صرف الهوى عن ذي الهوى عزيز ... ان الهوى ليس له تمييز
وقال بعض البلغا القلب اذا علق كالرهن اذا غلق ومنها الطوارق
المزعجة والهموم المذهلة وقد قيل في منثور الحكم الهم قيد الحواس
وقال بعض الحكما من بلغ اشده لاقى من العيش اشده ومنها كثرة

فيه

فيدرو عن مروان بن سالم
عن اسمعيل صح

وقال علي بن ابي طالب كرم الله

المكان صح

حكي صح

اشتغاله وترادف خلاله حتى انها تستوعب زمانه وتستنفد ايامه
ولذلك قيل لبزرجمهر الشغل مجهدة والفراغ مفسدة فينبغي
لطالب العلم ان لا ينا في طلبه وينتهز الفرصة فربما شح الزمان
بما سمح وظن بما منح ويبتدي من العلم باوله ويأتيه من مدخله
ولا يتشاغل بما لا يضر جهله فيمنعه ذلك من ادراك ما لا يسع جهله
فان لكل علم فضولا مذهلة وشذورا مشغلة ان صرف اليها
نفسه قطعته عن هواه منها وقال ابن عباس العلم اكثر من ان يحصى فخذوا من
كل شي احسنه وقال المامون ما لم يكن من العلوم بارعا فبطون الصحف
اولى به من قلوب الرجال وقد قال بعض الحكما بترك ما لا يعنيك
يتم لك ما يعنيك ولا ينبغي ان يدعوه ذلك الى ترك ما استصعب
عليه استعارا لنفسه ذلك من فضول علمه واعذارا بها في ترك الاشتغال
به فان ذلك مطية النوكى وعذر المقصرين ومن اخذ من العلم ما تسهل
وترك منه ما تعذر كان كالقناص اذا امتنع عليه الصيد تركه فلا يرجع
الا خائبا اذ ليس يرى الصيد الا ممتنعا كذلك العلم كله صعب على من جهله سهل
على من علمه لان معانيه التي يتوصل اليها مستودعة في كلام مترجم عنها وكل
كلام يستعمل فهو يجمع لفظا مسموعا ومعنى مفهوما فاللفظ كلام يعقل
بالسمع والمعنى تحت اللفظ يفهم بالقلب وقد قال بعض الحكما العلوم
مطالعها من ثلاثة اوجه قلب مفكر ولسان معبر وبيان مصور
فاذا عقل الكلام بسمعه فهم معانيه بقلبه واذا فهم المعاني سقطت
عنه كلفة استخراجها وبقي عليه معاناة حفظها واستقرارها لان
المعاني شوارد تضل بالاغفال والعلوم وحشية تنفر بالارسال
فاذا حفظها بعد الفهم انست واذا ذكرها بعد الانس رسخت وقال
بعض الحكما من اكثر المذاكرة بالعلم لم ينس ما علم واستفاد ما لم يعلم.

تتفقهوا قبل ان تسودوا وقال عمر

بطلب ما لا

وان

بها يتعلم العلوم ينفرها

وقال الشاعر

اذا لم يذاكر ذو العلوم بعلمه ... ولم يستفد علما نسي ما تعلما
فكم جامع للكتب في كل مذهب ... يزيد مع الايام في جمعه عما

وان لم يفهم معاني ما سمع كشف عن السبب المانع منها ليعلم العلة
في تعذر فهمها فان بمعرفة اسباب الاشيا وعللها تصل الى تلافي
ما شذ منها وصلاح ما فسد وليس يخلو السبب المانع من ذلك من
ثلاثة اقسام اما ان يكون لعلة في السامع المستخرج او في القايل
المخرج او في الكلام المترجم عنها ولم يخل من ثلاثة احوال احدها
ان يكون لتقصير اللفظ عن المعنى وهذا قد يكون من احد وجهين
اما من حصر المتكلم وعيه واما من بلادته وقلة فهمه والحالة
الثانية ان يكون لزيادة اللفظ على المعنى فتصير الزيادة عنه مانعة
من فهم المقصود منه وهذا يكون من احد وجهين اما من هذر المتكلم
واكثاره واما من سوء ظنه بفهم سامعه والحالة الثالثة ان يكون
لمواضعة يقصدها المتكلم بكلامه فاذا لم يعرفها السامع لم يفهم
معانيها فاما تقصير اللفظ وزيادته فمن الاسباب الخاصة دون
العامة لانك لست تجد ذلك عاما في كل كلام وانما تجده في بعضه
فان عدلت عن الكلام المقصود الى المستوفي وعن الزايد الى الكافي
ارحت نفسك من تكلف ما يكد خاطرك فان اقمت على استخراجه
اما لضرورة دعتك اليه عند اعواز غيره او لحمية داخلتك عند
تعذر فهمه فانظر في سبب الزيادة والتقصير فان كان التقصير لحصر
والزيادة لهذر سهل عليك استخراج المعنى منه لان ما له من الكلام
محصور لا يجوز ان يكون المحتمل منه اكثر من الصحيح وفي الاكثر على
الاقل دليل وان كانت زيادة اللفظ على المعنى لسوء فهم المتكلم فهو
اصعب الامور حالا وابعدها استخراجا لان ما لا يفهمه متكلمه فانت من

جهله

منها خ

اما ان يكون لعلة في الكلام المترجم واما ان يكون في المعنى المستودع فيه فيكون لتقصير اللفظ عن [illegible] المعنى سيما اذا كان من فهم المعنى صح

اشغاله وترادف خلاله حتى انها تستوعب زمانه وتستنفد ايامه
ولذلك قيل لبزرجمهر الشغل مجهدة والفراغ مفسدة فينبغي
لطالب العلم ان لا يناى في طلبه وينتهز الفرصة فربما شح الزمان
بما سمح وظن بما منح ويبتدي من العلم باوله ويأتيه من مدخله
ولا يتشاغل بما لا يضر جهله فيمنعه ذلك من ادراك ما لا يسعه جهله
فان لكل علم فضولا مذهلة وشذورا مشغلة وان صرف اليها
نفسه قطعته عن هواه منها وقال ابن عباس العلم اكثر من ان يحصى فخذوا من
كل شيء احسنه وقال المامون ما لم يكن من العلوم بارعا فبطون الصحف
اولى به من قلوب الرجال وقد قال بعض الحكما بترك ما لا يعنيك
يتم لك ما يغنيك ولا ينبغي ان يدعوه ذلك الى ترك ما استصعب
عليه اشعارا للنفسه بذلك من فضول علمه واعذارا بها في ترك الاشتغال
به فان ذلك مطية النوكى وعذر المقصرين ومن اخذ من العلم ما تسهل
وترك منه ما تعذر كان كالقناص اذا امتنع عليه الصيد تركه فلا يرجع
الا خايبا اذ ليس يرى الصيد الا ممتنعا كذلك العلم كله صعب على من جهله سهل
على من علمه لان معانيه التي يتوصل اليها مستودعة في كلام مترجم عنها وكل
كلام يستعمل فهو يجمع لفظا مسموعا ومعنى مفهوما فاللفظ كلام يعقل
بالسمع والمعنى تحت اللفظ يفهم بالقلب وقد قال بعض الحكما العلوم
مطالعها من ثلاثة اوجه قلب مفكر ولسان معبر وبيان مصور
فاذا عقل الكلام بسمعه فهم معانيه بقلبه واذا فهم المعاني سقطت
عنه كلفة استخراجها وبقي عليه معاناة حفظها واستقرارها لان
المعاني شوارد تضل بالاغفال والعلوم وحشية تنفر بالارسال
فاذا حفظها بعد الفهم انست واذا ذكرها بعد الانس رسخت وقال
بعض الحكما من اكثر المذاكرة بالعلم لم ينس ما علم واستفاد ما لم يعلم.

تفقهوا قبل ان تسودوا
وقال صو

بطلبه ولا

بها
معاليها العلوم
انهرها

وقال الشاعر

اذا المرء لم يرد العلوم بعلمه ... ولم يستفد علما نسي ما تعلما
فكم جامع للكتب في كل مذهب ... يزيد مع الايام في جمعه عما

وان لم يفهم معاني ما سمع كشف عن السبب المانع منها ليعلم العلة
في تعذر فهمها فان بمعرفة اسباب الاشيا وعللها تصل الى تلافي
ما شذ منها وصلاح ما فسد وليس يخلو السبب المانع من ذلك من
ثلاثة اقسام اما ان يكون لعلة في الشامع المستخرج او في القايل
المخرج او في الكلام المترجم عنها ولم يخل من ثلاثة احوال احدها
ان يكون لتقصير اللفظ عن المعنى وهذا قد يكون من احد وجهين
اما من حصر المتكلم وعيه واما من بلادته وقلة فهمه والحالة
الثانية ان يكون لزيادة اللفظ على المعنى فتصير الزيادة عند ما نعة
من فهم المقصود منه وهذا يكون من احد وجهين اما من هذر المتكلم
واكثاره واما من سوء ظنه بفهم سامعه والحالة الثالثة ان يكون
لمواضعة يقصدها المتكلم بكلامه فاذا لم يعرفها الشامع لم يفهم
معانيها فاما تقصير اللفظ وزيادته فمن الاسباب الخاصة دون
العامة لانك لست تجد ذلك عاما في كل كلام وانما تجده في بعضه
فان عدلت عن الكلام المقصود الى المستوفى وعن الزايد الى الكافي
ارحت نفسك من تكلف ما يكد خاطرك فان اقمت على استخراجه
اما لضرورة دعتك اليه عند اعواز غيره او لحمية داخلتك عند
تعذر فهمه فانظر في سبب الزيادة والتقصير فان كان التقصير لحصر
والزيادة لهذر سهل عليك استخراج المعنى منه لان ما له من الكلام
محصور لا يجوز ان يكون المحتمل منه اكثر من الصحيح وفي الاكثر على
الاقل دليل وان كانت زيادة اللفظ على المعنى لسوء فهم المتكلم فهو
اصعب الامور حالا وابعدها استخراجا لان ما لا يفهمه متكلمه فانت من

في جهله

منها

اما ان يكون لعلة في الكلام
المترجم واما ان يكون لعلة
في المعنى المستودع وا
فيكون تقصير اللفظ
عن تعديل المعنى
سيما ما نعا من فهم ذلك
المعنى صح

فهمه ابعد الا ان يكون بفرط ذكائك وجودة خاطرك تتنبه باشارة
على استنباط ما عجز عنه واستخراج ما قصر فيه فتكون فضيلة
الاستقلال لك حق التقديم له واما المواضعة فضربان عامة وخاصة
فاما العامة فهي مواضعة العلما فيما جعلوه الفاظا تواضعوها لمعان
اتفقوا عليها لا يستغنى المتعلم عنها ولا يقف على معاني كلامهم الا
بها كما جعل المتكلمون الجواهر والاعراض والاجسام الفاظا تواضعوها
لمعان اتفقوا عليها فلست تجد من العلوم علما يخلوا من هذا وهذه
المواضعة العامة تسمى عرفا واما الخاصة فمواضعة الواحد بقصد
بباطن كلامه غير ظاهره فان كانت في الكلام كانت رمزا وان كانت في
الشعر كانت لغزا فاما الرمز فلست تجده في علم معتبر ولا في كلام
لغوي وانما يختص غالبا باحد شيئين اما بمذهب شنيع يخفيه
معتقده ويجعل الرمز سببا لتطلع النفوس اليه واحتمال التاويل
فيه سببا لدفع التهمة عنه واما لما يدعي اربابه انه علم معوز وان
ادراكه بديع معجز كالصيغة التي وضعها اربابها اسما لعلم الكيميا
فرمزوا باوصافه واخفوا معانيها ليوهموا الشح به والاسف عليه
خديعة للعقول الواهية والاراء الفاسدة وقال الشاعر

منعت شيابا كثرت الولوع به ... احب شيء الى الانسان ما منعا

ثم ليكونوا من عهدة ما قالوه اذا اجرب ولو كان ما تضمن هذين
النوعين واشباههما من الرموز معنى صحيحا وعلما مستفادا لخرج
من الرمز الخفي الى العلم الجلي لان اغراض الناس تختلف باختلاف
اهوايهم ولا تتفق على سنن سليم واخفاء مفيد قال زهير

الستر دون الفاحشات فلا ... يلقاك دون الخير من ستر

وربما استعمل الرمز من الكلام فيما يراد تفخيمه من المعاني وتعظيمه من
الالفاظ ليكون احلا في القلوب موضعا واجل في النفوس موقعا
فيصير بالرمز جايزا وفي الصحف مخلدا كالذي حكي عن فهد عورس
في قضاياه المرموزة فانه قال احفظ ميزانك من النداوة وارانك
من الصدا يريد بحفظ الميزان من الندا حفظ اللسان من الحيف
وبحفظ الاوزان من الصدا حفظ العقل من الهوى فصار هذا الرمز
مستحسنا ومدونا ولو قاله باللفظ الصريح والمعنى الفصيح لما سار
عنه ولا استحسن منه وعلة ذلك ان المحجوب عن الابصار فيما
يحصل له في النفوس من التعظيم وفي القلوب من التفخيم استحلى
واستحسن وما ظهر منهما ولم يحتجب هان واسترذل وهذا انما
يصح استحلاوه فيما قل وهو باللفظ الصريح مستقل واما العلوم
المنتشرة التي تطلع النفوس اليها فقد استغنت بقوة الباعث
عليها وشدة الداعي لها عن الاستدعا بها برمز مستخرج او لفظ
مستغرب بل ذلك منفر عنها في التشاغل باستخراج رموزها عن
الابطا عن ذكرها وتصور معانيها فهذا حال الرمز واما اللغز فهو تحدي
اهل الفراغ وشغل اهل البطالة ليتنافسوا في تباين قرائحهم وتفاخروا
في سرعة خواطرهم فيستفيدوا خواطر قد منعوا صحتها فيما لا يجدي
نفعا ولا يفيد علما كاهل الصراع الذين قد صرفوا ما منحوه من صحة
اجسامهم كاصراع كدود يصرع عقولهم ويهد اجسامهم ولا يكسبهم
حمدا ولا يجدي عليهم نفعا انظر الى الشاعر حيث يقول

رجل مات وخلف رجلا ... ابن عم ابن اخي عم اخيه

معه ام بني اولاده ... وابا اخت بني عم اخيه

اخبرني عن هذين البيتين وقدر وقع صعوبة ما تضمنهما من
السوال اما استكدك الفكر في استخراجه فقلت انه اراد ميتا خلف

ابا او زوجة وعمًّا ما الذي افادك من العلم ونفا عنك من الجهل
الست بعد علمه تجهل ما كنت جاهلا من قبله ولو ان السايل
قلب لك السؤال فاخر ما قدم وقدم ما اخر لكنت في الجهل بتقل
استخراجه كما كنت في الاول فاذا تعبت خاطرك ثم لا تعدم ان يرد
عليك مثل هذا مما تجهله فتكون كما كنت فيما قبل فاصرف نفسك
تولى الله رشدك من علوم النوكى وتكلف البطالين وقد روي عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال من حسن اسلام المرء تركه ما لا
يعنيه ثم اجعل ما منّ الله به عليك من صحة القريحة وسرعة الخاطر
مصروفا الى علم ما يكون اتعاب خاطرك فيه لك مذخورا وكد
ذكرك مشكورا فقد روي عن ابن عباس قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة
والفراغ ونحن نستعيذ بالله من ان تغبن فضل رحمته علينا
ونجهل نفع احسانه الينا وقد قيل في منثور الحكم من الفراغ
تكون الصبوة وقال بعض العلما من امضى يومه في غير حق قضاه
او فرض اداه او مجد اثله او حمد حصله او خير اسسه
او علم اقتبسه فقد عق يومه وظلم نفسه وقال بعض الشعرا
لقد هاج الفراغ عليك شغلا ... واسباب البلاء من الفراغ
فهذا تعليل ما في الكلام من الاسباب المانعة من فهم معانيه
حتى خرج بنا الاستيفا الى الاطالة واما القسم الثاني وهو ان يكون
السبب المانع من فهم السامع لعلة في المعنى المستودع فلا يخلو
ذلك من ثمانية اقسام اما ان يكون مستقلا بنفسه او يكون مقدمة
لغيره او يكون نتيجة من غيره فاما المستقل بنفسه فضربان
جلي وخفي فاما الجلي فهو ما سبق الى فهم مقصوده من اول وهلة

سعيد بن ابي هند صح

خير

كتسبه

وليس هو من اقسام ما يشكل على كل ذي تصور واما الخفي فيحتاج
الى زيادة تامل في ادراكه وفضل معاناة ليتجلى عما اخفي وينكشف
عما اغمض واستعمال الفكر فيه يكون بالارتياض به والارتياض
يسهل منه ما استصعب ويقرب منه ما بعد فان للرياضة
حرارة وتاثيرا واما ما كان لغيره فضربان احدهما ان تكون المقدمة
بنفسها وان تعدت الى غيرها فيكون الكلام مستقلا بنفسه
في تصور فهمه وان كان مستدعيا لتحقيقه الثاني ان يكون مفتقرا
الى نتيجة فيتعذر فهم المقدمة الا بما يتعقبها من النتيجة لانها تكون
بعضا منه وتبعض المعنى اشكل له وبعضه لا يغني عن كله واما ما
كان نتيجة من غيره فهو لا يدل الا باوله ولا يتصور على حقيقته
الا اخذ منه والاشتغال به قبل المقدمة عناء واتعاب والفكر في
استنباطه قبل قاعدته اذى واما القسم الثالث فهو ان يكون
السبب المانع لعلة في المستمع وهو ضربان احدهما من ذاته والثاني
من طارئ يطرئ عليه فاما ما كان من ذاته فهو متنوع نوعين احدهما
ما كان من تصور المعنى وفهمه والثاني ما كان مانعا من حفظه بعد
تصوره وفهمه فاما المانع من تصور المعنى فيه فهو البلادة وقلة
الفطنة وهو الداء العياء وقد قال بعض الحكما اذا فقد العالم
الذهن قل على الاضداد احتجاجه وكثر الى الكتب احتياجه وليس لمن
بلي به الا الصبر والاقلال لانه على القليل اقدر وبالصبر احرى ان ينال ويظفر
وقد قال بعض الحكما قدم لحاجتك بعض حاجتك وليس يقدر على
الصبر من هذه حاله الا ان يكون غالبا للشهوة بعيد الهمة فيستمر قلة الصبر
بقوة شهوته ويجد نفسه في احتمال التعب لبعد همته فاذا تلوح له المعنى
بمساعدة الشهوة اعقبه ذلك نجاح الاملين ونشاط المذكرين فقل

استنباطه

فهذا يوضح تعليل ما في المعاني من الاسباب المانعة من فهمها

العطال

عنده كل كثير ويسهل لديه كل عسير وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال لا تنالون ما تحبون الا بالصبر على ما تكرهون ولا تبلغون
ما تهوون الا بترك ما تشتهون وقيل في منثور الحكم اذا اشتدت
الكلف هانت الكلف وانشد بعض الادبا شعر العلي بن ابي طالب كرم الله وجهه
لا تحزنن ولا يدخلك مضجرة ... فالنجح يهلك بين العجز والضجر
واما المانع من حفظه بعد تصوره وفهمه فهو النسيان الحادث
عن غفلة التقصير واهمال التواني فينبغي لمن بلي به ان يستدرك
تقصيره بكثرة الدرس ويوقظ غفلته بادامة النظر فقد قيل
لن يدرك العلم من لا يطيل درسه ويكد نفسه وكثرة الدرس لا يصبر
عليه الا من يرى العلم مغنما والجهالة مغرما فيحتمل تعب الدرس
ليدرك راحة العلم وينفي عنه معرة الجهل فان نيل العظيم
بامر عظيم وعلى قدر الرغبة يكون الطلب وبحسب الراحة يكون
التعب وقيل علة الراحة قلة الاستراحة وقال بعض الحكما اكمل
الراحة ما كان عن كد التعب واعز العلم ما كان عن ذل الطلب وربما
المتعلم استثقل الدرس والحفظ واتكل بعد فهم المعاني على الرجوع
الى الكتب والمطالعة فيها عند الحاجة اليها فلا يكون الا كمن اطلق ما
صاده ثقة بالقدرة عليه بعد الامتناع منه فلم تعقبه الثقة الا خجلا
والتفريط الا ندما وهذه حال قد يدعو اليها احد ثلاثة اشياء اما
الضجر من معاناة الحفظ ومراعاته او طول الامل في التوفر عليه عند
نشاطه وفساد الراي في عزيمته وليس يعلم ان الضجر خايب وان
طويل الامل مغرور وان فاسد الراي مصاب والعرب تقول في
امثالها حرف في قلبك خير من الف في كتبك وقالوا لا خير في علم لا
يعبر معك الوادي ولا يعمر بك النادي وانشدت للشافعي رضي الله عنه

الربيع

حرف

علمي معي حيثما يممت ينفعني ... قلبي وعاء له لا بطن صندوق
ان كنت في البيت كان العلم فيه معي ... او كنت في السوق كان العلم في السوق
وربما اعتمد المتعلم بالحفظ من غير تصور ولا فهم حتى يصير حافظا للالفاظ
قيما بتلاوتها ولا يتصورها ولا يفهم ما يتضمنها يروي بغير روية
ويخبر عن غير خبرة وهو كالكتاب الذي لا يدفع شبهة ولا يزيل بحجة وقد
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال همة السفها الرواية
وهمة العلما الرعاية وقال ابن عباس كونوا للعلم رعاة ولا تكونوا له
رواة فقد يرعوي من لا يروي ويروي من لا يرعوي وحدث الحسن
البصري فقال له رجل يا ابا سعيد عن من قال ما تصنع بعن
من اما انت فقد نالتك عظته وقامت عليك حجته وربما اعتمد
على حفظه وتصوره واغفل تقييد العلم في كتبه ثقة بما استقر
في نفسه وهذا خطا منه لان الشك معترض والنسيان
طاري وقد روى انس عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال قيدوا
العلم بالكتابة وروي ان رجلا اشتكى الى النبي صلى الله عليه وسلم
النسيان فقال استعمل يدك اكتب حتى ترجع اذا نسيت الى ما
كتبت وقال الخليل بن احمد اجعل ما في الكتب راس المال وما في
قلبك النفقة وقال بجير ولولا ما عقدته الكتب من تجارب
الاولين لانحل مع النسيان عقود الاخرين وقال بعض البلغا
ان هذه الاداب نوافر تند عن عقل الاذهان فاجعلوا الكتب
عليها حماة والاقلام لها رعاة واما طاري النسيان فنوعان احدهما
شبهة تعترض المعنى فتمنع من تصوره وتدفع عن ادراك حقيقته
فينبغي ان يزيل تلك الشبهة عن نفسه بالسوال والنظر ليصل
الى تصور المعنى وادراك حقيقته ولذلك قال بعض الحكما لا تخل

عنهم

رواية

عن غير

قلبك من المذاكرة فيعود عقيما ولا تعف طبعك عن المناظرة
فيصير سقيما وقال بشار بن برد شفاء العمى طول السوال وانما
دوام العمى طول السكوت على الجهل والثاني افكار تعارض
الخاطر فتذهل عن تصور المعنى وهذا سبب قل ما يبرا منه
احد لا سيما فيمن انبسطت آماله وانفسحت امانيه وقد يقل فيمن
لم يكن له غير العلم ارب ولا فيما سواه همة فان طرات على الانسان
لم يقدر على مكاثرة ذهنه على الفهم وغلبة القلب على التصور لان
القلب مع الاكراه اشد نفورا وابعد قبولا وقد جاء في الاثر
القلب اذا اكره عمي ولكن يعمل على دفع ما طرى عليه من هم مذهل
او فكر قاطع يستجيب له القلب مجيبا مطيعا قال الشاعر
وليس بمغن في المودة شافع ۞ اذا لم يكن بين الضلوع شفيع
وقال بعض الحكما ان هذه القلوب تنافر كما تتنافر الوحوش
فتالفوها بالاقتصاد في التعليم والتوسط في التقويم لتحسن طاعتها
ويدوم نشاطها فهذا تعليل ما في المستمع من الاسباب المانعة
من فهم المعاني وها هنا قسم رابع يمنع من معرفة الكلام وفهم
معانيه ولكنه قد يعرى من نقص الكلام فلذلك لم يدرجه من
جملة اقسامه ولم يستخرج الاحال تذكره وهو الخط فان من الكلام
ما كان مسموعا لا يحتاج في فهمه الى تامل الخط به والمانع من
فهمه وهو على ما ذكرنا من اقسامه ومنه ما كان مستودعا بالخط
محفوظا بالكتابة ماخوذا بالاستخراج فكان الخط حافظا
ومعبرا عنه وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى
او اثارة من علم قال الخط وقال في قوله تعالى ومن يوت الحكمة
فقد اوتي خيرا كثيرا قال الخط والعرب تقول الخط احد اللسانين

وحسنه

وحسنه احدى الفصاحتين وقال جعفر بن يحيى الخط سمط الحكمة
يفصل شذورها وينظم منثورها وقال ابن المقفع اللسان
مقصور على القريب الحاضر والخط على الشاهد الغايب وهو للغابر
الكاين مثله وقال حكيم الروم العرب الخط اصل في الروح وان
ظهر بحواس الجسد واختلف في اول من كتب الخط فذكر كعب الاحبار ان
اول من كتب الخط ادم عليه السلام كتب سائر الكتب قبل موته
بثلثمائة عام في طين ثم طبخه فلما غرقت الارض في زمن نوح عليه السلام
بقيت الكتابة فاصاب كل قوم كتابتهم وبقي الكتاب العربي الى ان
خص الله به اسمعيل عليه السلام فاصابه وتعلم العربية وحكى
ابن قتيبة ان اول من كتب ادريس وكانت العرب تعظم الخط
وتعده من اجل نفع حتى قال عكرمة بلغ فداء اهل بدر اربعة
آلاف درهم حتى ان الرجل ليفادى به على ان يتعلم الخط لما هو
مستقر في نفوسهم من عظم خطره وجلالة قدره وظهور نفعه
واثره وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم اقرا وربك
الاكرم الذي علم بالقلم فوصف نفسه بان علم بالقلم كما وصف
نفسه بالكرم واعتد ذلك في نعمه العظام ومن اياديه
الجسام حتى اقسم به في كتابه فقال تعالى ن والقلم وما يسطرون
فاقسم بالقلم كما اقسم بما خطه القلم واختلف في اول من كتب
بالعربية فذكر كعب الاحبار ان اول من كتب بها ادم عليه السلام
ثم وجدها بعد الطوفان اسمعيل وحكى ابن عباس وعروة بن الزبير
ان اول من كتب بها ووضعها على لفظه ومنطقه اسمعيل وقيل اول
من كتب بها قوم من الازد اسماوهم ابجد هوز حطي كلمن
سعفص قرشت وكانوا ملوك مدين وحكى ابن قتيبة في المعارف

وهو الانبار

ان اول من كتب بها مرامر بن مروة من اهل الانبار وعنهم انتشرت
وحكى المداينى ان اول من كتب بها مرامر بن مروة واسلم بن
سدرة وعامر بن جدرة فمرامر وضع الصور واسلم فصل
ووصل وعامر وضع الاعجام ولما كان الخط بهذا الحد وجب على
من اراد حفظ العلم ان يعتني بامرين احدهما تقويم الحروف على اشكالها
الموضوعة الثانى ضبطه ما اشتبه منها بالنقط والشكلات المميزة لها
ثم ما زاد على هذين من تحسين الخط وملاحة نظمه فانما هو زيادة حذق
بصنعته وليس بشرط فى صحته وقال على بن عبيدة حسن الخط لسان
اليد وبهجة الضمير وقال ابو العباس المبرد رداءة الخط زمانة الادب
وقال عبد الحميد البيان فى اللسان والبنان وانشد
بعض اهل العلم لشاعر بصرى

اعذر اخاك على رداءة خطه ∴ واغفر نزالته لجودة ضبطه

واعلم بان الخط ليس يراد من ∴ تركيبه الا تبين سمطه

فاذا ابان عن المعانى لم يكن ∴ تحسينه الا زيادة شرطه

ومحل ما زاد على الخط المفهوم من فصاحة الالفاظ وصحة
الاعراب معظم ولذلك قالت العرب حسن الخط احدى الفصاحتين
وكما انه لا يعذر من اراد التقدم فى الخط ان يطرح تصحيح الحروف
وتحسين الصور وان فهم وافهم وربما يقدم بالخط من كان الخط
اجل فضائله واشرف خصائله حتى صار علما مشهورا وسيدا
مذكورا غير ان العلما اطرحوا صرف الهمة الى تحسين الخط لانه
يشغلهم عن العلم ويقطعهم عن التوفر عليه ولذلك نجد خطوط العلما
فى الاغلب ردية لا يخط الا من اسعده القضا وقد قال الفضل بن سهل
من سعادة المرء ان يكون ردى الخط لكون الزمان الذى يفنيه

بالكتابة يشغله بالحفظ والنظر وليست رداءة الخط هى السعادة
وانما السعادة ان لا يكون له صارف عن العلم وعادة ذى الخط الحسن
ان يتشاغل بتحسين خطه عن العلم فمن هذا الوجه صار برداءة
خطه سعيدا وان لم تكن رداءة الخط سعادة واذا كان كذلك فقد
تعرض للخط اسباب تمنع من قراءته ومعرفته كما يعرض للكلام
اسباب تمنع من فهمه وصحته والاسباب المانعة من قراءة الخط وفهم
ما تضمنه قد تكون من ثمانية اوجه احدها اسقاط الفاظ من اثناء
الكلام يصير الباقى بها مبتورا لا يعرف استخراجه ولا يفهم معناه
وهذا لا يكون اما من سهو الكاتب او من فساد نقله وهذا يسهل
استنباطه على من كان مرتاضا بذلك النوع فيستدل بحواشى الكلام وما علم
منه على ما سقط وفسد لا سيما اذا قل لان الكلمة تستدعى ما يليها
ومعرفة المعنى توضح ما شذ من الفاظه فاما ما كان قليل الارتياض
بذلك النوع فانه يصعب عليه استنباط ما سقط منه لا سيما
اذا كان كثيرا لانه يحتاج فى فهم المعانى الى الفكرة والروية فيما قد
اهمله فى الكتبة واذا هو لم يعرف تمام الكلام المترجم عن المعنى قصر
فهمه عن ادراكه وضل فكره عن استنباطه والوجه الثانى زيادة
الفاظ فى اثناء الكلام اشكل بها معرفة الصحيح وتمييزه عن السقيم
الزايد فيصير الكل مشكلا وهذا لا يكاد يوجد كثيرا الا ان يقصد
الكاتب تعمية كلامه فيدخل فى اثنائه ما يمنع من فهمه فيصير ذلك
رمزا يعرف بالمواضعة وانما وقوعه سهوا فقد يكون بالكلمة و
الكلمتين وذلك لا يمنع من فهمه على المرتاض وغيره والوجه الثالث
اسقاط حروف من اثناء الكلمة يمنع من استخراجها على الصحة وقد يكون
هذا تارة من السهو فيقل وتارة من ضعف الهجاء فيكثر والقول فيه

كالقول في الوجه الاول والوجه الرابع زيادة حروف في اثناء الكلمة
يشكل بها معرفة الصحيح من حروفها وهذا تارة يكون من سهو
الكاتب فيقل ولا يمنع من استخراج الصحيح ويكون تارة لتعمية
ومواضعة يقصد بها الكاتب اخفاء غرضه فيكون كالتراجم ويكون
القول فيه كالقول في الوجه الثاني والوجه الخامس وصل الحروف
المفصولة وفصل الحروف الموصولة فيدعو ذلك الى الاشكال لان
الكلمة بنية عليها وصل حروفها ويمنع فصلها من مشاركة غيرها
فاذا كان ذلك من سهو قل فسهل اخراجه وان كان من قلة معرفة
بالخط او مشقا تسبق به اليد كثيرا فصعب استخراجه الا على المرتاض
به ولذلك قال عمر رضي الله عنه شر الكتابة المشق كما شر القراءة
الهذرمة وان كان للتعمية والرمز لم يعرف الا بالمواضعة والوجه
السادس تغيير الحروف عن اشكالها وابدالها عن غيرها حتى يكتب الحا على
شكل البا والصاد على شكل الراء وهذا يكون في رموز التراجم ولا يوقف
عليه الا بالمواضعة الا من زاد فيه الذكا فقدر على استخراجه بالمعنى
والوجه السابع ضعف الخط عن تقويم الحروف على الاشكال الصحيحة
واثباتها على الاوصاف الخفية حتى لا تكاد تميز عن اغيارها فتصير
العين الموصولة كالفا والمفصولة كالحا وهذا يكون من رداءة الخط
وضعفه واستخراج ذلك يمكن بفصل المعاناة وشدة التامل وان
كان ربما ضجر قاريه وا وهي معانيه ولذلك قيل ان الخط الحسن يزيد
الحق وضوحا والوجه الثامن اغفال النقط والشكل اللذين تتميز
بهما الحروف المشتبهة وهذا ايسر امرا واخف حالا لان من كان متميز
مميز الخط بصحة الاستخراج ومعرفة الخط لم يخف عليه معرفة الخط
وفهم ما تضمنه مع اغفال النقط والشكل بل قد استقبح ذلك في

المكاتبات ورأوه من تقصير الكاتب او من سوء ظنه بفهم المكاتب
وكان استقباحهم له في المكاتبة من الرؤساء اكثر وقد حكى قدامة
ابن جعفر ان بعض الكتاب حاسب عاملا فشكى العامل منه
الى عبيد الله بن سليمان وكتب رقعة يذكر فيه احتجاجا بصحة دعواه
ووضوح شكواه فوقع عبيد الله فيها صحيح هذا فاخذها العامل وقراها
فظن عبيد الله انه اراد هذا اثباتا لصحة دعواه وصدق قوله كما
يقال في اثبات الشيء هو هو فحمل الرقعة الى كاتب الديوان وقال
ان عبيد الله قد صدق قولي وصحح ما ذكرت فخفي على ذلك واطيف
به على كتاب الدواوين فلم يقفوا على مراده فرد اليه ليسئل عنه
فشدد الكلمة الثانية وكتب تحتها والله المستعان استعظاما منه
لتقصيرهم في استخراج مراده حتى احتاج الى ابانته بالشكل فهذه
حال الكتاب في استقباحهم اعجام المكاتبات فاما غير المكاتبات
من سائر العلوم فلم يروه قبيحا بل استحسنوه لا سيما في كتب الادب
التي يعرف بها معرفة صيغة الالفاظ وكيفية مخارجها مثل كتب
النحو واللغة والشعر والغريب فان الحاجة الى ضبطها اكثر وهي
فيما سواه من العلوم ايسر وقد قال الثوري الخطوط المعجمة كالبرود
المعلمة وقال بعض البلغا اعجام الخط يمنع من استعجامه واشكاله
يومن من اشكاله وقال بعض الادبا رب علم لم تعجم فصوله استعجم
محصوله وكما استقبح الكتاب الشكل والاعجام في المكاتبات وان
كان في كتب العلوم مستحسنا فكذلك استحسنوا مشق الخط في
المكاتبات وان كان في كتب العلوم مستقبحا وسبب ذلك انهم لفرط ادلالهم
بالصيغة وتقدمهم في الكتابة يكتفون بالاشارة ويقتصرون على
التلويح ويرون الحاجة الى استيفاء شروط الابانة تقصيرا والفضل

ما يعتقدونه من التقدم بهذه الحال وامانته عليه من سواد
المداد اثرا جميلا وعلى التحصيل والفضل دليلا **حكي** ان عبيد الله بن
سليمان راى على بعض ثيابه اثر صفرة فاخذ من مداد الدواة فطلاه
ثم قال المداد بنا احسن من الزعفران **وانشد**

انما الزعفران عطر العذارى ... ومداد الدوي عطر الرجال

فهذه جملة كافية في الابانة عن الاسباب المانعة من فهم الكلام
ومعرفة معانيه لفظا كان او خطا والله ولي التوفيق **فينبغي**
لطالب العلم ان يكشف عن الاسباب المانعة ان تعذر عليه فهم
المعنى ليسهل عليه الوصول اليه ثم يكون من بعد ذلك سايسا
لنفسه مدبرا لها في حال تعلمه فان للنفس نفورا يفضي الى التقصير
ووفورا يؤول الى السرف وقيادها عسير ولها احوال ثلثة حال
عدل وانصاف وحال غلو واسراف وحال تقصير واجحاف **فاما**
حال العدل والانصاف فهي ان تختلف قوى النفس من جهتين
متقابلتين طاعة مسعفة وشفقة كافة فطاعتها تمنع من
التقصير وشفقتها تصد عن السرف وهذا احمد الاحوال لان ما منع
من التقصير نام وما صد عن السرف مستديم والنمو اذا استدام فاخلق
به ان يستكمل **وقال بعض** الحكما اياك ومفارقة الاعتدال فان المسرف
مثل المقصر في الخروج عن الحد **واما** حال الغلو والاسراف فهو ان
تختص النفس بقوى الطاعة وتعدم قوى الشفقة فيبعثها اختصاص
الطاعة على افراغ الجهد ويفضي بها افراغ الجهد الى عجز الكلال
ويؤديها عجز الكلال الى الترك والاهمال فتصير الزيادة نقصانا والربح
خسرانا **وقد قالت الحكما** طالب العلم وعامل البر كآكل الطعام ان اخذ
منه قوتا عصمه وان اسرف فيه ابشمه وربما كان فيه منيته وكآخذ

الادوية

الادوية التي القصد فيها شفا ومجاوزة الحد فيها السم المميت **واما** حال
التقصير والاجحاف فهي ان تختص بقوى الشفقة وتعدم قوى
الطاعة فيدعوها الاشفاق الى المعصية وتمنعها المعصية من الاجابة
فلا تطلب شاردا ولا تقبل عايدا ولا تحفظ مستودعا مستودعا
ومن لم يطلب الشارد ويقبل العايد ويحفظ المستودع فقد
الموجود ولم يجد المفقود ومن فقد ما وجد فهو مصاب محزون **وقد**
قال بعض الحكما العجز مع التواني والفوز مع التداني وقد يكون للنفس مع
الاحوال الثلاث حالتان مشتركتان بغلبة احدى القوتين فيكون
للنفس طاعة واشفاق واحدهما اغلب من الآخر فان كانت الطاعة اغلب
كانت الى الوفور المجاوز اميل وان كان الاشفاق اغلب كانت الى التقصير
المقصر به اقرب فاذا عرف من نفسه قدر طاعتها وخبر منها كثرة
شفقتها راض نفسه لتثبت على احمد حالتيها وقد اشار الى ما
وصفناه من حال النفس الفرزدق في قوله

لكل امرئ نفسان نفس كريمة ... واخرى يعاصيها الفتى ويطيعها
ونفسك من نفسيك تشفع للفتى ... اذا قل من احوازهن شفيعها

فان اهمل سياستها واغفل رياضتها ورام ان ياخذها بالعنف و
يقهرها بالعسف استشاطت نافرة ولجت معاندة فلم تنقاد الى
طاعة ولم تنكف عن معصية وقد قال سابق البربري **الشاعر**

اذا زجرت لجوجا زدته علقا ... ولجت النفس منه في تماديها
فعد عليه اذا ما نفسه جمحت ... باللين منك فان اللين يثنيها

فان استصعب عليه قياد نفسه ودام منه نفور قلبه مع سياستها
ومعانات رياضتها تركها تركا اراحة ثم عاودها بعد استراحة فان
اجابتهما تسرع وطاعتهما ترجع **وقد روي** عن رسول الله صلى الله

وحزن لم يجد ما فقد فهو خايب

يدينها

عليه وسلم انه قال ان القلب يموت ويحيى ولو بعد حين وقال ابن
مسعود للقلوب شهوة واقبال وفترة وادبار فاتوها من قبل
شهوتها ولا تاتوها من قبل فترتها وقد قال الشاعر
وما سمي الانسان الا لانسه ۞ ولا القلب الا انه يتقلب
واما الشروط التي يتوفر بها علم الطالب وينتهي معها كمال الراغب مع
ما يلاحظ به من التوفيق ويمد به من المعونة فتسعة شروط احدها
العقل الذي يدرك به حقايق الامور الثاني الفطنة التي يتصور بها
غوامض العلوم الثالث الذكاء الذي يستقر به حفظ ما تصوره
وفهم ما علمه الرابع الشهوة التي يدوم بها الطلب ولا يسرع اليها الملل
الخامس الاكتفا بمادة تغنيه عن طلب ما لا بد منه السادس الفراغ
الذي يكون معه التوفر ويحصل بها الاستكثار الى مراتب الكمال
السابع عدم القواطع المذهلة من هموم واشغال وامراض الثامن
طول العمر واتساع المدة لينتهي الاستكثار الى مراتب الكمال
والتاسع الظفر بعالم يسمح بعلمه متانٍ في تعليمه واذا استكمل
هذه الشروط التسعة فهو اسعد طالب وانجح متعلم وقال
الاسكندر يحتاج طالب العلم الى اربع مدة وجدة وقريحة وشهوة
وتمامها في الخامسة معلم ناصح

فصل

وساذكر طرفا مما يتادب به المتعلم ويكون عليه العالم واعلم ان
للمتعلم في زمان تعلمه ملقا وتذللا ان استعملهما غنم وان تركهما حرم
لان التملق للعالم يظهر مكنون علمه والتذلل له سبب لادامة صبره وباظهار
مكنونه تكون الفايدة وباستدامة صبره يكون الاكثار منه وقد روى
عن معاذ ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ليس من اخلاق المومن الملق الا
في طلب العلم وقال عبد الله بن عباس ذللت طالبا فعززت مطلوبا و
قال بعض الحكما من لم يحتمل ذل التعلم ساعة بقي في ذل الجهل ابدا واذا فعلت

وانت صغير حيث تحب فعد ستوانت كبير حيث لا تحب ثم ليعرف له
فضل علمه ويشكر له جميل فعله فقد روت عايشة رضي الله تعالى
عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من وقر عالما فقد وقر ربه
وقال علي كرم الله تعالى وجهه لا يعرف فضل اهل الفضل الا
اهل الفضل وقال بعض الشعرا
اكرم طبيبك ان اردت دواه ۞ وكذا العلم ان اردت تعلما
ان المعلم والطبيب كليهما ۞ لا ينصحان اذا هما لم يكرما
فاصبر لدايك ان جفوت طبيبه ۞ واصبر لجهلك ان جفوت معلما
ولا يمنعه من ذلك علو منزلة ان كانت له وان كان العالم خاملا
فان العلما بعلمهم استحقوا التعظيم لا بالقدرة والمال
وانشدني بعض اهل الادب وقيل هو ابن دريد
لا تحقرن عالما وان خلقت اثوابه في عيون رامقه
وانظر اليه بعين ذي ادب ۞ مهذب الراي في طرايقه
فالمسك بينا تراه ممتهنا ۞ بفهر عطاره وساحقه
حتى تراه في عارضي ملك ۞ او موضع التاج من مفارقه
ولتكن مقتديا بهم في رضى اخلاقهم متشبها بهم في جميع
افعالهم لتصير لها الفا وعليها ناشيا ولما خالفها مجانبا فقد
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خيار شبابكم المتشبهون
بشيوخكم وشرار شيوخكم المتشبهون بشبابكم وروى ابن
عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من تشبه بقوم فهو
منهم وانشدني بعض اهل الادب للشافعي رحمه الله شعرا
العالم العاقل ابن نفسه ۞ اغناه جنس علمه عن جنسه
كن ابن من شئت وكن مؤدبا ۞ فانما المرء بفضل كيسه

كم بين من تكرمه لغيره ؞ وبين من تكرمه لنفسه ؞

وليحذر المتعلم التبسط على من يعلمه وان انسه والادلال عليه وان تقدمت صحبته فقد قيل لبعض الحكما من اذل الناس فقال عالم يجري عليه حكم جاهل وكلمت رسول الله صلى الله عليه وسلم جارية من السبي فقال لها من انت فقالت بنت الرجل الجواد حاتم فقال صلى الله عليه وسلم ارحموا عزيز قوم ذل ارحموا غنيا افتقر ارحموا عالما ضاع بين جهال ولا يظهر الاستكثار منه والاستغنا عنه فان في ذلك كفر النعمة واستخفافا بحقه وربما وجد بعض المتعلمين قوة في نفسه بجودة ذكائه وحدة خاطره فقصد من يعلمه بالاعنات له والاعتراض عليه ازراء به وتبكيتا له فيكون كمن تقدم فيه المثل السائر لابي البطحا

فيا عجبا لمن ربيت طفلا ؞ القمه باطراف البنان ؞
اعلمه الرماية كل يوم ؞ فلما اشتد ساعده رماني ؞
وكم علمته نظم القوافي ؞ فلما قال قافية هجاني ؞
اعلمه الفتوة كل يوم ؞ فلما طال شاربه جفاني ؞

وهذا من مصايب العلما ونقصان حظوظهم ان يصيروا عند من علموه مستجهلين وعند من قدموه مسترذلين وقال صالح بن عبد القدوس شعرا

واي عناء ان تعلم جاهلا ؞ ويحسب جهلا انه منك افهم ؞
متى يبلغ البنيان يوما تمامه ؞ اذا كنت تبنيه وغيرك يهدم ؞
متى ينتهي عن سي من اتى به ؞ اذا لم يكن منه عليه تندم ؞

ولا ينبغي ان يبعثه معرفة الحق له على قبول الشبه منه ولا يدعوه تركه الاعنات له الى التقليد فيما اخذ عنه فانه ربما علا بعض

الاتباع في عالمهم حتى يروا ان قوله دليل وان لم يستدل واعتقاده حجة وان لم يحتج فيفضي بهم الامر الى التسليم له فيما اخذوه عنه ويؤول به ذلك الى التقصير فيما يصدر عنه لانه يجتهد بحسب اجتهاد من ياخذ عنه فلا يبعد ان يبطل تلك المقالة ان انفردت او يخرج اهلها من عدد العلما فيما شاركت لانه قد لا يرى لهم من ياخذ عنهم لما كانوا يرونه لمن اخذوا عنه فيطالبونه بما قصروا به فيضعفوا عن ابانته ويعجزوا عن نصرته فيذهبوا ضايعين ويصيروا عجزة مضعوفين ورايت من هذه الطبقة رجلا يناظر في مجلس حفل وقد استدل الخصم عليه بدلالة صحيحة فكان جوابه عنها انه قال هذه دلالة فاسدة ووجه فسادها ان شيخي لم يذكرها وما لم يذكره الشيخ فلا خير فيه فامسك عنه المستدل تعجبا ولان شيخه كان محتشما وقد حضرت طايفة يرون فيه مثل راي هذا الجاهل ثم اقبل المستدل علي وقال لي والله لقد افحمني بجهله وصار ساير الناس المبرئين من هذه الجهالة ما بين مستهزئ او متعجب او مستعيذ بالله من جهل مغرب فهل رايت كذلك عالما اوغل في الجهل وادل على قلة العقل واذا كان المتعلم معتدل الراي فيمن ياخذ عنه متوسط الاعتقاد فيمن يتعلم منه حتى لا يحمله الاعنات على اعتراض المسلكين ولا يبعثه العلو على تسليم المقلدين برئ المتعلم من المذمتين وسلم العالم من الجهتين وليس كثرة السوال فيما لبس اعناتا ولا قبول ما صح في النفس تقليدا وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال العلم خزاين ومفاتيحها المسئلة فاسئلوا رحمكم الله فانما يوجر في العلم ثلاثة القايل والمستمع والاخذ وقال

هل لا سالوا اذا لم يعلموا انما شفاء العي السوآل فامر بالسوآل وحث
عليه ونهى آخرين عن السوآل وزجر عنه وقد روي عن النبي صلى
الله عليه وسلم انه نهاكم عن قيل وقال وكثرة السوال فانما هلك
من كان قبلكم بكثرة السوال وليس هذا مخالفًا للاول وانما امر
بالسوال من قصد به علم ما جهل ونهى عنه من قصد به
اعنات ما سمع واذا كان السوال في موضعه ازال الشكوك
ونفى الشبهة وقد قيل لابن عباس بما نلت هذا العلم قال
بلسان سؤل وقلب عقول وروى نافع عن ابن عمر ان النبي
صلى الله عليه وسلم قال حسن السوال نصف العلم وانشد
المبرد عن ابي سليمان الغنوي

فسل الفقيه تكن فقيهًا مثله ∴ لا خير في علم بغير تدبر
فاذا تعسرت الامور فارجها ∴ وعليك بالامر الذي لم يعسر

فياخذ المتعلم حظه ممن وجد طلبته عنده من نبيه وخامل
ولا يطلب الصيت وبعد الذكر باتباع اهل المنازل من العلماء
اذا كان النفع بغيرهم اعم الا ان يستوي النفعان فيكون
الاخذ عمن اشتهر ذكره وارتفع قدره اولى لان الانتساب
اليه اجمل والاخذ عنه اشهر قال شعرا

اذا انت لم يشهرك علمك لم تجد ∴ لعلمك مخلوقًا من الناس يقبله
فان صانك العلم الذي قد حملته ∴ اتاك له من يجتنيه ويحمله

فاذا قرب منك العلم فلا تطلب ما بعد واذا سهل عليك
من وجه فلا تطلب ما صعب واذا وجدت من خبرته فلا
تطلب من لم تخبره فان العدول عن القريب الى البعيد عنا
وترك الاسهل بالاصعب بلاء والانتقال عن المخبور الى غيره

خطر وقال علي ابن طالب كرم الله تعالى وجهه عقبى الاخرق مضرة و
المتعسف لا تدوم له مسرة وقال بعض الحكما القصد اسهل من
التعسف والتكلف اودع من التكلف وربما تتبعت نفس الانسان
من بعد عنه استهانة بمن قرب منه وطلب ما صعب احتقارًا لما
سهل عليه وانتقل الى من لا يخبره مالا لمن خبره فلا يدرك محبوبا
ولا يظفر بطائل وقالت العرب في امثالها ان العلم كالحمة يا تيها
البعداء ويزهد فيها القربا وانشد بعض شيوخنا المسيح بن حاتم

لا ترى عالمًا يحل بقوم ∴ فيحلوه غير دار الهوان
قل ما يوجد السلامة ∴ والصحة مجموعتين في انسان
فاذا احلتنا هي مكانًا سحيقًا ∴ فهما في النفوس معشوقتان
هذه مكة المنيعة بيت الله ∴ يسعى في حجها الثقلان
وترى ازهد البرية في الحج ∴ لها اهلها لقرب المكان

فصل فاما ما يجب ان يكون عليه العلما من الاخلاق
التي هي بهم اليق ولهم الزم فالتواضع ومجانبة العجب لان التواضع
عطوف والعجب منفر وهو بكل احد قبيح وبالعلماء اقبح لان
الناس بهم يقتدون وكثيرًا ما يداخلهم الاعجاب لتوحدهم بفضيلة
العلم ولو انهم نظروا حق النظر وعملوا بموجب العلم لكان التواضع
بهم اولى ومجانبة العجب بهم احرى لان العجب نقص ينافي الفضل
لا سيما مع قول النبي صلى الله عليه وسلم ان العجب لياكل الحسنات
كما تاكل النار الحطب فلا يفي ما ادركوا من فضيلة العلم بما لحقهم
من نقص العجب وقد روى عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم انه قال الفقه خير من كثير العبادة وكفى بالمرء عالمًا اذا
عبد الله وكفى بالمرء جاهلًا اذا اعجب برايه وقال عمر رضي الله عنه

تعلموا العلم وعلموه وتعلموا السكينه والحلم وتواضعوا لمن تعلمون
منه وليتواضع لكم من تعلمونه ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا
يقوم علمكم بجهلكم وقال بعض السلف من تكبر بعلمه وترفع
وضعه الله به ومن تواضع بعلمه رفعه الله به وعلة اعجابهم انصراف
نظرهم الى كثرة من دونهم من الجهال وانصراف نظرهم عمن فوقهم من
العلماء فانه ليس متناهٍ الا سيجد من هو اعلم منه بشيء اذ العلم
اكثر من ان يحيط به بشر قال الله تعالى نرفع درجات من نشاء يعني
بالعلم وفوق كل ذي علم عليم قال اهل التاويل يعني فوق كل عالم
من هو اعلم منه حتى ينتهي ذلك الى الله تعالى وقيل لبعض الحكما
من يعرف كل العلم قال كل الناس وقال الشعبي ما رايت مثلي وما اشاء
ان القى رجلا اعلم مني الا لقيته ولم يذكر الشعبي هذا القول تفضيلا
لنفسه فيستقبح منه وانما ذكره تعظيما للعلم عن ان يحاط به فينبغي
لمن علم ان ينظر الى نفسه بنقص ما قصر فيه ليسلم من عجب ما ادرك
منه وقد قيل في منثور الحكم اذا علمت فلا تفكر فيمن دونك من
الجهال ولكن انظر من فوقك من العلماء وانشد لعبد الحميد
من شاء عيشا هنيئا يستفيد به ؛ في دينه ثم في دنياه اقبالا
فلينظرن الى من فوقه ادبا ؛ ولينظرن الى من دونه حالا
وقال ما تجد بالعلم معجبا وبما ادركه منه مفتخرا الا من كان فيه
مقلا مقصرا لانه يجهل قدره ويحسب انه قد نال بالدخول فيه
اكثره واما من كان فيه متوجها ومنه مستكثرا فهو يعلم من بعد
غايته والعجز عن ادراك نهايته ما يصده عن العجب به وقال الشعبي
العلم ثلاثة اشبار فمن نال منه الشبر الاول شمخ بانفه وظن انه ناله
ومن نال الشبر الثاني صغرت اليه نفسه وعلم ان فوقه من هو اعلم منه

واما الشبر الثالث فهيهات لا يناله احد ابدا ومما انبيك به من حالي
اني صنفت في البيوع كتابا جمعت فيه ما استطعت من كتب الناس و
جهدت نفسي وكددت فيه خاطري حتى اذا تهذب واستكمل وكدت
اعجب به وتصورت انني اشد الناس اطلاعا بعلمه حضرني وانا في
مجلسي اعرابيان فسالاني عن بيع عقداه في البادية على شروط تضمنت
اربع مسائل لم اعرف لشيء منها جوابا فاطرقت مفكرا بحالي وحالهما
فقالا ما عندك فيما سالناك جواب وانت زعيم هذه الجماعة فقلت لا
فقالا واها لك وانصرفا ثم اتيا من قد تقدمه في العلم كثير من اصحابي
فسالاه فاجابهما مسرعا بما اقنعهما فانصرفا عنه راضيين بجوابه
حامدين لعلمه فبقيت مرتبكا واني لعلى ما كنت عليه في تلك المسائل
الى وقتي فكان ذلك زاجر نصيحة ونذير عظة تذلل لهما قياد النفس
وتخفض بهما جناح العجب توفيقا منحته ورشدا اوتيته وتجب
على من ترك العجب بما يحسن ان يدع التكلف لما لا يحسن فقد نهى
الناس عنهما واستعاذوا بالله منهما ومن اوضح ذلك بيانا ما استعاذه
الجاحظ في كتاب البيان من ها هنا حيث يقول اللهم انا نعوذ
بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل ونعوذ بك
من التكلف لما لا يحسن ونعوذ بك من فرط السلاطة والهذر
كما نعوذ بك من العي والحصر ونحن نستعيذ بالله مثل ما
استعاذ به وليس لمن تكلف ما لا يحسن غاية ينتهي اليها ولا حد
يقف عنده ومن كان تكلفه غير محدود فاخلق به ان يضل ويضل
وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من سئل فافتى بغير علم
فقد ضل واضل وقال بعض الحكماء من العلم ان لا تتكلم فيما لا تعلم
بكلام من يعلم فحسبك خجلا من عقلك ان تنطق بما لا تفهم

ولقد احسن زرارة بن زيد حيث يقول

اذا ما انتهى علمي تناهيت عنده ... اطال فاملى او تناهى فاقصرا
وتخبرني عن غايب المرء فعله ... كفى الفعل عما غيب المرء مخبرا

واذا لم يكن الى الاحاطة بالعلم سبيل فلا عار ان يجهل بعضه واذا لم يكن في جهل بعضه عار لم يقبح به ان يقول لا اعلم فيما ليس يعلم وقد روي ان رجلا قال يا رسول الله اي البقاع خير واي البقاع شر فقال لا ادري حتى اسال جبريل وقال علي كرم الله تعالى وجهه وابردها على القلب اذا سئل احدكم عما لا يعلم ان يقول الله اعلم فان العالم من عرف انما يعلم فيما لا يعلم قليل وقال عبد الله بن العباس اذا ترك العالم قول لا ادري اصيبت مقاتله وقال بعض العلما هلك من ترك لا ادري وقال بعض الحكما ليس من فضيلة العلم الا علمي بان لست اعلم وقال بعض البلغا من قال لا ادري علم فدرى ومن انتحل ما لا يدري اهمل فهوى ولا ينبغي وان صار في طبقة العلما الافاضل ان يستنكف من تعلم ما ليس عنده ليسلم من التكلف له فقد قال عيسى بن مريم عليه السلام يا صاحب العلم تعلم من العلم ما جهلت وعلم الجهال ما علمت وقال علي رضي الله عنه خمس خذوهن عني فلو ركبتم فيهن الفلك ما وجدتموهن الا عندي الا لا يرجون احد الا ربه ولا يخافن الا ذنبه ولا يستنكف ان يتعلم ما ليس عنده واذا سئل عما لا يعلم فليقل لا اعلم ومنزلة الصبر من الايمان بمنزلة الراس من الجسد وقال عبد الله بن العباس لو كان احد مكتفيا من العلم لاكتفا منه موسى عليه السلام اذ يقول هل اتبعك على ان تعلمني مما علمت رشدا وقيل للخليل بن احمد بم ادركت هذا العلم قال كنت اذا لقيت عالما اخذت منه واعطيته وقال بزرجمهر من العلم ان لا تحقر شيئا من العلم ومن العلم

تفضيل

تفضيل جميع العلم وقال المنصور لشريك انى لك هذا العلم قال لم ارغب عن قليل استفيده ولم ابخل بكثير افيده على ان العلم يقتضي ما بقي منه ويستدعي ما تاخر عنه وليس براغب فيه قناعة ببعضه وروي عن عبد الله بن مسعود انه قال منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب دنيا اما طالب العلم فانه يزداد للرحمن رضا ثم قرا انما يخشى الله من عباده العلماء واما طالب الدنيا فانه يزداد طغيانا ثم قرا كلا ان الانسان ليطغى ان راه استغنى وليكن مستقلا للفضيلة منه ليزداد منها ومستكثرا للنقيصة فيه لينتهي عنها فلا يقتنع في العلم بما ادرك منه لان القناعة زهد والزهد فيه ترك والترك له جهل وقال بعض الحكما عليك بالعلم وبالاكثار فان قليله اشبه شي بقليل الخير ولن يعيب الخير الا القلة فاما كثيره فانه يودي امنيه وقال بعض الحكما من فضل علمك استقلالك بعلمك ومن كمال عقلك استظهارك على عقلك ولا ينبغي ان يجهل من نفسه مبلغ علمها ولا ان يتجاوز بها قدر حقها ولان يكون بها مقتصرا فيذعن بالانقياد اولى من ان يكون بها مجاوزا فينكف عن الازدياد ولان من جهل حال نفسه كان لغيرها اجهل وقالت عايشة رضي الله عنها يا رسول الله متى يعرف الانسان ربه قال اذا عرف نفسه وقد قسم الخليل بن احمد احوال الناس فيما علموه وجهلوه اربعة اقسام متقابلة لا يخلو حال الانسان منها فقال الرجال اربعة رجل يدري ويدري انه يدري فذلك عالم فاسئلوه ورجل يدري ولا يدري انه يدري فذلك مسترشد فعلموه ورجل لا يدري ولا يدري انه لا يدري فذلك جاهل فارفضوه ورجل لا يدري ويدري انه لا يدري فذلك لا عالم يسئل ولا جاهل يرفض

وانشد ابو القاسم الامدي وقال

تلاهيت

انظر قول سيدنا علي رضي الله عنه خمس خذوهن عني الخ

وكثيره اشبه شي بكثير الخير

إذا كنت لا تدري ولم تك بالذي ... تسائل من يدري فكيف إذاً تدري

إذا جئت في كل الأمور بغمة ... فكن هكذا أرضاً يطاك الذي يدري

ومن أعجب الأشياء أنك لا تدري ... وأنك لا تدري بأنك لا تدري

فليكن ممن يثمنه العمل بعلمه وحث النفس على أن يأتمر بما أمر به ولا يكن ممن قال الله تعالى فيه مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً وقال قتادة في قول الله تعالى وإنه لذو علم لما علمناه يعني أنه العامل بما علم وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ويل لأقماع العقول وويل للمصرين الذين يستمعون القول ولا يعملون به وروى عبد الله بن وهب عن سفيان أن الخضر عليه السلام قال لموسى عليهما السلام يا ابن عمران تعلم العلم لتعمل به ولا تعلمه لتحدث به فيكون عليك بوراً ولغيرك نوراً وقال علي كرم الله تعالى وجهه إنما زهد الناس في طلب العلم لما يرون من قلة انتفاع من عمل بما علم وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه أخوف ما أخاف إذا وقفت بين يدي الله تعالى فيقول قد علمت فماذا عملت وكان يقال خير من القول فاعله وخير من الصواب قائله وخير من العلم حامله وقيل في منثور الحكم لم ينتفع بعلمه من ترك العمل به وقال بعض العلماء ثمرة العلم العمل به وثمرة العمل أن يؤجر عليه وقال بعض الصلحاء العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل وقال بعض الحكماء خير العلم ما نفع وخير القول ما ردع وقال بعض الأدباء ثمرة العلوم العمل بالمعلوم وقال بعض البلغاء من تمام العلم استعماله ومن تمام العمل استقلاله فمن استعمل علمه لم يخل من رشاد ومن استقل عمله لم يقصر عن مراد وقال أبو تمام الطائي

ولم يحمدوا من عالم غير عامل ... خلافاً ولا من عامل غير عالم

رأوا طرقات المجد عوجاً قطيعة ... وأقطع عجز عندهم عجز حازم

ولأنه لما كان علمه حجة على من أخذ عنه واقتبسه منه حتى يلزمه العمل به والمصير إليه كان عليه أحج وله ألزم ولأن مرتبة العمل قبل مرتبة القول وقال أبو العتاهية

اسمع إلى الأحكام تحملها ... الرواة إليك عنكا

واعلم هديت بأنها ... حجج تكون إليك منكا

فليجتنب أن يقول ما لا يفعل وأن يأمر بما لا يأتمر وأن يسر غير ما يظهر ولا تعمل بقول الشاعر

اعمل بعلمي ولا تنظر إلى عملي ... ينفعك علمي ولا يضررك تقصيري

عذراً له في تقصيره يضره وإن لم يضر غيره فإن أعذار النفس تغريها وتحسن لها مساويها وأن من قال ما لا يفعل فقد مكر ومن أمر بما لا يأتمر فقد خدع ومن أسر غير ما يظهر فقد نافق وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال المكر والخديعة وصاحبهما في النار ولأن أمره بما لا يأتمر مطرح وإنكاره ما لا ينكره من نفسه مستقبح بل ربما كان ذلك سبباً لإغراء المأمور بترك ما أمر به عناداً وارتكاب ما نهي عنه كياداً وحكي أن أعرابياً أتى ابن أبي ذيب فسأله عن مسئلة طلاق فأفتاه بطلاق امرأته فقال انظر حسناً فقال قد نظرت وقد بانت منك فولى الأعرابي وهو يقول

أتيت ابن ذيب أبتغي الفقه عنده ... فطلق حتى ليت بتت أنامله

يطلق فينا ابن ذيب حليلتي ... وعند ابن ذيب أهله وحلائله

فظن بجهله أنه لا يلزمه الطلاق بقول من لم يلزمه الطلاق فما ظنك بقول يشترك الآمر والمأمور فيه كيف يكون مقبولاً منه وهو غير عامل به ولا قابل له كلا وقد قال أحمد بن يوسف

وعامل بالفجور يأمر بالخير ... كهاد يخوض في الظلم

أو كطبيب قد شفه سقم ... وهو يداوي من ذلك السقم

كما أنه مرتبة العلم قبل مرتبة العمل

تمام العقول

يعني

بقوله وان قصر

يا واعظ الناس غير متعظ ... ثوبك طهر والا فلا تلم

وقال اخر

عود لسانك قلة اللفظ ... واحفظ كلامك انما حفظ
اياك ان تعظ الرجال وقد ... اصبحت محتاجا الى الوعظ

فاما الانقطاع عن العلم الى العمل والانقطاع عن العمل اذا عمل
بموجب العلم فقد حكي عن الزهري فيه ما يغني عن تكلف غيره وهو
انه قال العلم افضل من العمل لمن جهل والعمل افضل من العلم لمن
علم فاما الفضل بين العلم والعبادة اذا لم يخل بواجب ولم يقصر
في فرض فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يبعث
العالم والعابد فيقال للعابد ادخل الجنة ويقال للعالم اتئد حتى
تشفع للناس ومن اداب العلماء ان لا يبخلوا بتعليم ما يحسنون
ولا يمتنعوا من افادة ما يعلمون فان البخل به لوم وظلم والمنع منه
حسد واثم وكيف يسوغ لهم البخل بما منحوه جودا من غير بخل
واوتوه عفوا من غير بذل ام كيف يجوز لهم الشح بما ان بذلوه
زاد ونمى وان كتموه تناقص ووهى ولو استن بذلك من تقدمهم
لما وصل العلم اليهم ولانقرض عنهم بانقراضهم ولصاروا على
مرور الايام جهالا وبتقلب الاحوال وتناقصها اذلا وقد قال
الله تعالى واذ اخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب لتبيننه للناس
ولا تكتمونه وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لا تمنعوا العلم
اهله فتظلموا ولا تضعوه في غير اهله فتاثموا فان في ذلك فساد دينكم
والتباس بصايركم ثم قرا ان الذين يكتمون ما انزلنا من البينات
والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب اولئك يلعنهم الله
وروي عنه صلى الله عليه وسلم انه قال من كتم علما يحسنه الجمه

الله

٤٢

الله يوم القيامة بلجام من نار وقال صلى الله عليه وسلم ما اخذ الله
العهد على اهل العلم ان يعلموا وقال بعض الحكما اذا كان من قواعد
الحكمة بذل ما ينقصه البذل فاحرى ان يكون من قواعدها بذل ما
يزيده المبذل وقال بعض البلغا كما ان الاستفادة نافلة للمتعلم
كذلك الافادة فريضة على المعلم وقد قيل في منثور الحكم من كتم
علما فكانه جاهل وقال خالد بن صفوان اني لافرح بافادتي
المتعلم اكثر من فرحي باستفادتي من المعلم ثم له بالتعلم نفعان
احدهما ما يرجوه من ثواب الله تعالى فقد جعل النبي صلى الله عليه
وسلم التعليم صدقة فقال تصدقوا على اخيكم بعلم يرشده وروى
ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال تعلموا
وعلموا فان اجر العالم والمتعلم سواء قيل وما اجرهما قال مايتي مغفرة
ومايتي درجة في الجنة والنفع الثاني زيادة العلم واتقان الحفظ
فقد قال الخليل بن احمد اجعل تعليمك دراسة لعلمك واجعل
مناظرة المتعلم تنبيها على ما ليس عندك وقال ابن المعتز في
منثور الحكم النار لا ينقصها ما اخذ منها ولكن يخمدها ان لا تجد
حطبا كذلك العلم لا يفنيه الاقتباس ولكن فقد الحاملين له سبب
عدمه فاياك والبخل بما تعلمه وقال بعض العلما علم علمك وتعلم
علم غيرك فاذا انت قد علمت ما جهلت وحفظت ما علمت فاعلم
ان المتعلمين ضربان مستدعى وطالب فاما المستدعى الى العلم فهو
من استدعاه العالم الى التعليم لما ظهر له من وجوه ذكائه وبان له من
قوة خاطره فاذا وافق استدعاء العالم شهوة المتعلم كانت نتيجتها
درك النجباء وظفر السعداء لان العالم باستدعائه متوفر والمتعلم
بشهوته مستظهر واما الطالب للعلم لداع يدعوه وباعث يحدوه

فان كان الداعي دينًا وكان يقظًا ذكيًا وجب على العالم ان يكون عليه
مقبلًا وعلى تعليمه متوفرًا ولا يخفي عليه مكنونًا ولا يطوي عنه
مخزونًا وان كان بليدًا بعيد الفطنة فينبغي ان لا يمنع من اليسير فيحرم
ولا يحمل عليه بالكثير فيظلم ولا يجعل بلادته ذريعة الى حرمانه فان
الشهوة باعثة والصبر مؤثر وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه
قال لا تمنعوا العلم احدًا فان العلم اسمع لجانبه فاما ان لم يكن الداعي
دينيا نظر فيه فان كان مباحًا كرجل دعاه الى طلب العلم حب النباهة
وطلب الرياسة فالقول فيه يقارب القول في تعليم من قبل لان
العلم يعطفه على الدين في ثاني الحال وان لم يكن مبتديًا في اول حال
وقد حكي عن سفيان الثوري انه قال تعلمت العلم لغير الله فابى ان يكون
الا لله وقال عبد الله بن المبارك طلبنا العلم للدنيا فدلنا على ترك
الدنيا وان كان الداعي محظورًا كرجل دعاه الى طلب العلم شر كامن
وتنكر باطن يريد ان يستعملها في شبه دينيه وحيل فقهية لا
تجد اهل السلامة منها مخلصًا ولا عنها مدفعًا كما قال النبي صلى الله
عليه وسلم اهلك امتي رجلان رجل عالم فاجر وجاهل متعبد و
قيل له يا رسول الله اي الناس شر فقال العلماء اذا فسدوا فينبغي
للعالم اذا راى من هذه حاله ان يمنعه من طلبه ويصرفه عن بغيته
ولا يعينه على امضاء مكره واعمال شره فقد روي عن انس عن النبي
صلى الله عليه وسلم قال واضع العلم في غير اهله كمقلد الخنازير اللؤلؤ
والجوهر والذهب وقال عيسى عليه السلام لا تلقوا اللولوء في افواه
الخنازير فالعلم افضل من اللؤلؤ ومن لا يستحقه شر من الخنزير وحكي
ان تلميذًا سال عالمًا عن بعض العلوم فلم يفده فقيل له لم منعته فقال
لكل تربة غرس ولكل بناء اس وقال بعض العلما لكل ثوب لابس ولكل علم

قابس

قابس وقال بعض الادبا ارب روضة توسطها خنزير وابك لعلم
حواه شرير وينبغي ان يكون للعالم فراسة يتوسم بها المتعلم ليعرف
بها مبلغ طاقته وقدر استحقاقه ليعطيه ما يحتمله بذكائه او يضعف
عنه ببلادته فانه اروح للعالم وانجح للمتعلم وقد روى ثابت عن
انس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله عبادًا يعرفون
الناس بالتوسم وقال عمر رضي الله عنه اذا انا لم اعلم ما لم ار فلا علمت
ما رايت وقال عبد الله بن الزبير لا عاش بخير من يرى برايه ما لم
تر عينه وقال ابن الرومي

الالمعي يرى باول راي	اخر الامر من وراء المغيب
لوذعي له فواد ذكي	ما له في ذكائه من ضريب
لا يروي ولا يقلب طرفا	واكف الرجال في تقليب

فاذا كان العالم في توسم المتعلمين وكان بقدر استحقاقهم خبيرًا
لم يضع له عناو لم يخب على يده صاحب وان لم يتوسمهم وخفيت
عليه احوالهم ومبلغ استحقاقهم كانوا واياه في عناء مكد وتعب
غير مجد لانه لا بد ان يكون فيهم ذكي يحتاج الى الزيادة وبليد
يحتاج الى التقليل فيضجر الذكي ويعجز البليد ومن تردد اصحابه
بين ضجر وعجز ملوه وملهم وقد روى عبد الله بن وهب عن سفيان
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الخضر لموسى عليهما
السلام يا طالب العلم ان القائل اقل ملالة من المستمع فلا تمل جلساءك
اذا حدثتهم يا موسى واعلم ان قلبك وعاء فانظر ما تحشو في وعائك
قال بعض الحكما لا تقل ولا تمل وقال بعض الحكما كل علم كثر على السمع
ولم يطاوعه الفهم ازداد به عمى القلب وانما ينفع السمع في الاذان اذا
قوي فهم القلوب في الابدان وربما كان لبعض السلاطين رغبة في

يعض
وفار
انظر قول بعض
الادباء ارب
الخ

٧ بهذه الصفحة صح

العلم لفضيلة نفسه وكرم طبعه ولا يجعل ذلك ذريعة في الانبساط
عنه والادلال عليه بل يعطي ما يستحقه بسلطانه وعلو يده فان
للسلطان حق الطاعة والاعظام وللعالم حق القبول والاكرام
ثم لا ينبغي ان يبتديه الا بعد الاستدعا ولا يزيده الا على قدر الاكتفا
فربما احب بعض العلماء اظهار علمه للسلطان فاكثر فصار ذلك
ذريعة الى ملله ومفضيا الى بعده لان السلطان متقسم الافكار
مستوعب الزمان فليس له في العلم فراغ المنقطعين اليه ولا
صبر المتفردين به وقد حكى عن الاصمعي قال قال لي الرشيد يا
عبد الملك انت اعلم منا ونحن اعقل منك لا تعلمنا في ملاء ولا
تسرع الى تذكيرنا في خلاء واتركنا حتى نبتديك بالسوال فاذا
بلغت من الجواب قدر الاستحقاق فلا تزد الا ان نستدعي ذلك
منك انظر الى ما الطفه في التاديب وانصفه في التعليم وبلغ باوجز
لفظ غاية الافادة والتقويم لان لتاخير التعليم خجلة تقصر بجل
السلطان عنها فان ظهر منه خطا وزلل في قول او عمل لم يجاهده
بالرد وعرض باستدراك زلله واصلاح خلله وحكى ان عبد
الملك بن مروان قال للشعبي كم عطاؤك قال الفين قال لحنت قال
لما ترك امير المومنين الاعراب في سواله كرهت ان اعرب كلامي عليه
في جوابه ثم ليحذر اتباعه فيما يجانب الدين ويضاد الحق موافقة
لرايه ومتابعة لهواه فربما زلت اقدام العلما في ذلك رغبة ورهبة
فضلوا واضلوا وقد روى الحسن البصري قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم لا تزال هذه الامة تحت يد الله وفي كنفه ما لم يمال قراوها
امراوها ولم يزك صلحاوها فجارها وما لم يخال اخيارها اشرارها
واذا فعلوا ذلك رفع عنهم يده ثم سلط عليهم جبابرتهم فساموهم

واذلهم

سوم العذاب وضربهم بالفاقة وملأ قلوبهم رعبا ومن ادابهم نزاهة
النفس عن شبه المكاسب وكذا المطالب فان شبهة المكسب اثم
وكذا المطلب ذل والاجر اجدر به من الاثم والعز احق به من الذل
انشد بعض اهل الادب لعلي بن عبد العزيز القاضي يقول شعرا

يقولون لي فيك انقباض وانما ... راوا رجلا عن موقف الذل احجما
ارى الناس من داناهم هان عندهم ... ومن اكرمته عزة النفس اكرما
ولم اقض حق العلم ان كان كلما ... بدا طمع صيرته لي سلما
وما كل برق لاح لي يستفزني ... ولا كل من في الارض ارضاه منعما
اذا قيل هذا منهل قلت قد ارى ... ولكن نفس الحر تحتمل الظما
ولم ابتذل في خدمة العلم مهجتي ... لاخدم من لاقيت لكن لاخدما
ااشقى به غرسا واجنيه ذلة ... اذن فاتباع الجهل قد كان احزما
ولو ان اهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن اذلوه فهانوا ودنسوا ... محياه بالاطماع حتى تجهما

على ان العلم عوض من كل لذة ومغن عن كل شهوة ومن كان صادق
النية فيه لم يكن له همة فيما يجد منه وقد قال بعض البلغا من تفرد
بالعلم لم توحشه خلوة ومن تسلا بالكتب لم تفته سلوة ومن
انسه قراة القران لم توحشه مفارقة الاخوان وقال بعض البلغا
لا سمير كالعلم ولا ظهير كالحلم ومن ادابهم ان يقصدوا وجه الله تعالى
بتعليم من علموا ويطلبوا ثوابه في ارشاد من ارشدوا من غير ان
يعتاضوا عنه عوضا ولا يلتمسوا عليه رزقا قال الله تعالى ولا
تشتروا باياتي ثمنا قليلا قال ابو العالية لا تاخذوا عليهم اجرا وهو
مكتوب عندهم في الكتاب الاول يا ابن ادم علم مجانا كما تعلمت مجانا
وروى عن النبي صلى الله عليه انه قال اجر المعلم كاجر الصايم القايم

وحسب من هذا اجره ان يلتمس عليه اجرا ومن ادابهم نصح من علموه والرفق بهم وتسهيل السبيل عليهم وبذل المجهود في رفدهم ومعونتهم فان ذلك اعظم لاجرهم واسنا لذكرهم وانشر لعلومهم وارسخ لعلومهم وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لعلي بن ابي طالب كرم الله تعالى وجهه يا علي لان يهدي الله بك رجلا خير لك مما طلعت عليه الشمس ومن ادابهم ان لا يعنفوا متعلما ولا يحقروا ناشئا ولا يستصغروا مبتديا فان ذلك ادعى اليهم واعطف عليهم واحث على الرغبة فيما لديهم وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال علموا ولا تعنفوا فان المعلم خير من المعنف وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال وقروا من تتعلمون منه ووقروا من تعلمونه ومن ادابهم ان لا يمنعوا طالبا ولا ينفروا راغبا ولا يؤيسوا متعلما لما في ذلك من قطع الرغبة فيهم والزهد فيما لديهم واستمرار ذلك مفض الى انتقاص العلم بانقراضهم فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الا انبئكم بالفقيه كل الفقيه قالوا بلى يا رسول الله قال من لم يقنط الناس من رحمة الله تعالى ولا يؤيسهم من روح الله ولا يدع القران رغبة الى ما سواه الا لا خير في عبادة ليس فيها تفقه ولا علم ليس فيه تفهم ولا قراءة ليس فيها تدبر فهذه جملة كافية والله ولي التوفيق

الباب الثالث في اداب الدين

اعلم ان الله سبحانه وتعالى كلف خلقه متعبداته والزمهم مفترضاته وبعث اليهم رسله وشرع لهم دينه لغير حاجة دعته الى تكليفهم ولا لضرورة قادته الى تعبدهم وانما قصد نفعهم تفضلا منه عليهم كما تفضل بما لا يحصى عددا من نعمه بل النعمة فيما تعبدهم به اعظم لان نفع ما سوى المتعبدات مختص بالدنيا العاجلة ونفع المتعبدات يشتمل على

وبعث

بيديهم

نفع الدنيا والاخرة وما جمع نفع الدنيا والاخرة كان اعظم نعمة واكثر تفضلا وجعل ما تعبدهم به ماخوذا من عقل متبوع وشرع مسموع فالعقل متبوع فيما لا يمنع منه الشرع والشرع مسموع فيما لا يمنع منه العقل لان الشرع لا يرد بما لا يمنع منه العقل والعقل لا يتبع فيما يمنع منه الشرع ولذلك توجه التكليف الى من كمل عقله فارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله فبلغهم رسالته والزمهم حجته وبين لهم شريعته وتلى عليهم كتابه فيما احله وحرمه واباحه وحظره واستحبه وكرهه وامر به ونهى عنه وما وعد به من الثواب لمن اطاعه واوعد به من العقاب لمن عصاه فكان وعده ترغيبا ووعيده ترهيبا لان الرغبة تبعث على الطاعة والرهبة تكف عن المعصية والتكليف يجمع امرا بطاعة ونهيا عن معصية فلذلك كان التكليف مقرونا بالرغبة والرهبة فكان ما تخلل كتابه من قصص الامم السالفة واخبار القرون الخالية عظة واعتبارا تقوى معهما الرغبة وتزداد بهما الرهبة وكان ذلك من لطف الله تعالى بنا وتفضله علينا فلله الحمد الذي نعمه لا تحصى وشكره لا يؤدى ثم جعل الى رسوله صلى الله عليه وسلم بيان ما كان مجملا وتفسير ما كان مشكلا وتحقيق ما كان محتملا ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به ومنزلة التفويض اليه قال الله تعالى وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون ثم جعل الى العلماء بعد رسوله صلى الله عليه وسلم استنباط ما نبه على معانيه واشار الى اصوله ليتوصلوا بالاجتهاد فيه الى علم المراد به فيمتازوا بذلك عن غيرهم ويختصوا بثواب اجتهادهم قال الله تعالى يرفع الله الذين امنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات وقال تعالى وما يعلم تاويله الا الله والراسخون في العلم فصار الكتاب اصلا والسنة فرعا واستنباط

العذاب

بيان

على معانيه صح

يرفع الله الذين امنوا والذين اوتوا العلم درجات وقال تعالى

العلم ايضاحا وكشفا وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال القران اصل
علم الشريعة نصه ودليله والحكمة بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم
والامة المجتمعة حجة على من شذ عنها وكان من رافته بخلقه
وتفضله على عباده ان اقدرهم على ما كلفهم ورفع الحرج عنهم فيما
تعبدهم ليكونوا مع مقاطعة لهم ناهضين بفعل الطاعة ومجانبة
المعاصي قال الله تعالى لا يكلف الله نفسا الا وسعها وقال
وما جعل عليكم في الدين من حرج وجعل ما كلفهم ثلاثة اقسام
قسما امرهم باعتقاده وقسما امرهم بفعله وقسما امرهم بالكف
عنه ليكون اختلاف جهة التكليف باعثا على قبوله وعونا على
فعله حكمة منه ولطفا وجعل ما امرهم باعتقاده قسمين قسما
اثباتا وقسما نفيا فاما الاثبات فاثبات توحيده وصفاته وبعثه
رسله وتصديق رسوله محمد صلى الله عليه وسلم فيما جاء به
واما النفي فنفي الصاحبة والولد والحاجة والقبائح اجمع وهذان
القسمان هما اول ما كلفه العاقل وجعل ما امرهم بفعله ثلاثة
اقسام قسم على ابدانهم كالصلوة والصيام وقسم على اموالهم
كالزكاة والكفارة وقسم على ابدانهم واموالهم كالحج والجهاد
ليسهل عليهم فعله ويخف عنهم اداؤه نظرا منه لهم وتفضلا
منه عليهم وجعل ما امرهم بالكف عنه ثلاثة اقسام قسما لاحياء
نفوسهم وصلاح ابدانهم كنهيه عن القتل واكل الخبائث والسموم
وشرب الخمور المؤدية الى فساد العقول وزوالها وقسما
لائتلافهم واصلاح ذات بينهم كنهيه عن الغضب والغلبة
والظلم والسرف المفضي الى القطيعة والبغضاء وقسما لحفظ
انسابهم وحفظ محارمهم عن الزنا ونكاح ذوات المحارم وكانت

نعمته فيما حظره علينا كنعمته فيما اباحه لنا وتفضله فيما كفنا عنه
كتفضله فيما امرنا به فهل يجد العالم في رؤيته مساعفا ان يقصر
فيما امر به وهو نعمة عليه او يرى فسحة في ارتكاب ما نهى عنه
وهو تفضله عليه وهل يكون من انعم الله عليه بنعمة فاهملها مع
شدة فاقته اليها الا مذموما في العقل مع ما جاء من وعيد
السمع ثم من لطفه بخلقه وتفضله على عباده ان جعل لهم من جنس
كل فريضة نفلا وجعل لها من الثواب قسطا وندبهم اليه ندبا و
جعل لهم بكل حسنة عشر المضاعف ثواب فاعله ويضع العقاب
عن تاركه ومن لطيف حكمته ان جعل لكل عبادة حالتين حالة كمال
وحالة جواز رفقا بخلقه لما سبق في علمه ان فيهم العجل المبادر
والبطي المتثاقل ومن لا صبر له على اداء الاكمل ليكون ما اخل به
من هيئات عبادته غير قادح في فرض ولا مانع من اجر وكان ذلك
من نعمه علينا وحسن نظره لنا وكان اول ما فرض بعد تصديق
نبيه عبادات الابدان وقدمها على ما يتعلق بالاموال لان النفوس
على الاموال اشح وبما يتعلق بالابدان اسمح وذلك الصلاة والصيام
فقدم فرض الصلوة على الصيام لان الصلاة اسهل فعلا وايسر
عملا وجعلها مشتملة على خضوع له وابتهال اليه والخضوع له
هيبة منه والابتهال اليه رغبة فيه ولذلك قال النبي صلى الله عليه
وسلم اذا قام احدكم الى صلوته فانما يناجي ربه فلينظر احدكم بما
يناجيه وروي عن علي بن ابي طالب كرم الله تعالى وجهه انه كان
كلما دخل عليه وقت الصلاة اصفر مرة واحمر اخرى فقيل له في
ذلك فقال اتتني الامانة التي عرضت على السموات والارض والجبال
فابين ان يحملنها واشفقن منها وحملتها انا ولا ادري اسيء ام احسن

ثم جعل لها شروطا لازمة من رفع حدث وازالة نجس ليستديم النظافة
للقاء ربه والطهارة لاداء فرضه ثم ضمنها تلاوة كتابه المنزل ليتدبر
ما فيه من اوامره ونواهيه ويعتبر اعجاز الفاظه ومعانيه ثم علقها
باوقات راتبة وازمان مترادفة ليكون ترادف زمانها وتتابع اوقاتها
سببا لاستدامة الخضوع والابتهال اليه ولا تنقطع الرهبة منه
ولا الرغبة فيه واذا لم تنقطع الرغبة والرهبة استدام صلاح
الخلق وبحسب قوة الرغبة والرهبة يكون استيفاؤها على الكمال
والتقصير فيها عن حال الجواز وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال الصلاة مكيال فمن وفى وفي له ومن طفف فقد علمتم
ما قال الله تعالى في المطففين وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال من هانت عليه صلواته كانت على الله اهون وانشد بعض الشعراء

اقبل على صلواتك الخمس ... كم مصبح وعساه لا يمسي
واستقبل اليوم الجديد بتوبة ... تمحو ذنوب صبيحة الامس
فليفعلن بوجهك الغض البلا ... فعل الظلام بغرة الشمس

ثم فرض الله الصيام وقدم عليه زكوات الاموال لتعلق الصيام
بالابدان فكان في ايجابه حث على رحمة الفقراء واطعامهم
وسد جوعتهم لما قد عاينوه من شدة المجاعة في صومهم وقد
قيل ليوسف عليه الصلاة والسلام لم تجوع وانت على خزائن
الارض قال اخاف ان اشبع فانسى الجياع ثم لما كان في الصوم من
قهر النفوس واذلالها وكسر الشهوة المستولية عليها واشعار
النفس ما هي عليه من الحاجة الى الطعام والشراب والمحتاج الى الشيء
ذليل له وبهذا احتج الله تعالى على من اتخذ عيسى وامه الهين
من دونه فقال ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله

الرسل

الرسل وامه صديقة كانا ياكلان الطعام فجعل حاجتهما الى الطعام
نقصا فيهما عن ان يكونا الهين من دون الله وقد وصف الحسن
البصري في قصصه نقص الانسان بالطعام وغيره فقال
مسكين ابن ادم مكتوم الاجل مكتوم الامل مستور العلل
يتكلم بلحم وينظر بشحم ويسمع بعظم اسير جوعه صريع
شبعه تؤذيه البقة وتنتنه العرقة وتقتله الشرقة لا يملك
لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا فانظر
الى لطفه بنا فيما اوجبه من الصيام علينا كيف ايقظ العقول له
وقد كانت عنه غافلة ومتغافلة ونفع النفوس به ولم تكن لولاه
منتفعة ثم فرض زكوات الاموال وقدمها على فرض الحج
لان في الحج مع انفاق المال سفرا شاقا فكانت النفس الى
الزكوة اسرع اجابة منها الى الحج فكان في ايجابها مواساة للفقراء
ومعونة لذوي الحاجات تكفهم عن البغضاء وتمنعهم عن التقاطع
وتبعثهم على التواصل لان الامل وصول والرجا هائب واذا زال
الامل وانقطع الرجا واشتد الحسد فحدث التقاطع بين
ارباب الاموال والفقرا ووقعت العداوة بين ذوي الحاجات
والاغنياء حتى يفضي الى التغالب على الاموال والتغرير بالنفوس
مع ما في اداء الزكوة من تمرين النفس على السماحة المحمودة ومجانبة
الشح المذموم لان السماحة تبعث على اداء الحقوق والشح
يصد عنها فاخلق به ذما وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه
قال شر ما اعطي العبد شح هالع وجبن خالع فسبحان
من دبرنا بلطف حكمه واخفى عن فطنتنا جزيل نعمه حتى استوجب
من الشكر باخفائها اعظم مما استوجبه باداها ثم فرض الحج

فكان آخر فروضه لانه يجمع عملاً على بدن وحقاً في مال فجعل
فرضه بعد استقرار فروض الابدان وفروض الاموال فيكون
استينا سهم بكل واحد من النوعين ذريعة للتسهيل الى ما جمع
النوعين فكان في ايجابه تذكير اليوم الحشر في مفارقة المال والاهل
وخضوع العزيز والذليل في الوقوف بين يديه واجتماع المطيع
والعاصي في الرهبة منه والرغبة اليه واقلاع اهل المعاصي عما
اجترحوه وندم المذنبين على ما اسلفوه فقل من حج الا واحدث
توبة من ذنب واقلاعا عن معصية **ولذلك قيل** من علامة الحجة
المبرورة ان يكون صاحبها بعدها خيرا منه قبلها **وهذا** صحيح
لان الندم على الذنوب مانع من الاقدام عليها والتوبة مكفرة
لما سلف منها **فاذا** كف عما كان يقدم عليه انبأ عن صحة توبته
وصحة التوبة تقتضي قبول الحج **ثم نبه** بما يعاني فيه من مشاق
السفر المؤدي اليه على مواضع النعمة برفاهية الاقامة وانسة
الاوطان ليحنوا على ما سلف من هذه النعمة على ابناء السبيل **ثم**
علم بمشاهدة حرمه الذي انشا منه دينه وبعث فيه رسوله **ثم**
بمشاهدة دار الهجرة التي اعز الله بها اهل طاعته واذل بنصرة نبيه
اهل معصيته حتى خضع له عظماء المتجبرين وتذلل به زعماء المشركين
المتكبرين انه لم ينتشر عن ذلك المكان المنقطع ولا قوي بعد الضعف
البين حتى طبق الارض شرقا وغربا الا بمعجزة ظاهرة ونصر عزيز
فاعتبر الهمك الله تعالى الشكر ووفقك للتقوى على انعامه عليك واحسانه
اليك فيما تعبدك به فقد وكلك الى فطنتك واحالك على بصيرتك
بعد ان كنت لك رايدا صدوقا وناصحا شفيقا هل يحسن ان تنهض
بشكره اذا فعلت ما امرك وتقبلت ما كلفك لانه لا يوليك نعمة

منها ما

فيما سلف

الا ما علمها بنعمة توجب الشكر

توجب الشكر في المؤتنف **ولذلك قال الحسن بن علي** رضي الله تعالى عنهما نعم الله
اكثر من ان تشكر الا ما اعان عليه وذنوب ابن ادم اكثر من ان تغفر
الا ما عفا الله عنه **وانشد** المنصور بن اسمعيل المصري **شعرا**
واذا كنت عن شكر لنعمته عاجزا شكر الاله نعمة موجبة لشكره
فكيف شكري بره وشكره من بره **واذا كنت** عن شكر نعمته عاجزا
فكيف بك اذا قصرت فيما امرك وفرطت فيما كلفك ونعمه اعود عليك
لو فعلته هل تكون لسوابغ نعمه الا كفورا وببداية العقول الا
مزجورا **قال** الله تعالى يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها **وقال**
مجاهد اي يعرفون ما عدد الله عليهم من نعمه وينكرونها بقولهم
انهم ورثوها عن ابائهم واكتسبوها بافعالهم **وروي** عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال يقول الله تعالى يا ابن ادم ما تنصفني
اتحبب اليك بالنعم وتتمقت الي بالمعاصي خيري اليك نازل
وشرك الي صاعد كم من ملك كريم يصعد الي منك بعمل قبيح
وقال بعض صلحاء السلف قد اصبح بنا من نعم الله ما لا نحصيه
مع كثير ما نعصيه فما ندري ايهما نشكر اجميل ما ينشر ام قبيح ما يستر
فحق على من عرف موقع النعمة ان يقبلها ممتثلا لما كلفته منها وقبولها
يكون باداءها **ثم** يشكر الله تعالى على ما انعم به من ابتدائها فان بنا
من الحاجة الى نعمه اكثر مما كلفنا به من نعمه فان نحن ادينا حق النعمة
في التكليف تفضل بابتداء النعم من غير جهة التكليف فلزمت النعمتان
فقد اوفى حظ الدنيا والاخرة **وهذا** هو السعيد بالاطلاق وان قصرنا
في اداء ما كلفنا من نعمه قصر عنا ما لا تكليف فيه من نعمه فنفرت
النعمتان ومن نفرت عنه النعمتان فقد سلب حظ الدنيا والاخرة
فلم يكن له في الحياة حظ ولا في الممات راحة **وهذا** هو بالاستحقاق

٢ الشقي

بالشقا وليس يختار الشقوة على السعادة ذو لب صحيح ولا عقل
سليم وقد قال الله تعالى ليس بامانيكم ولا اماني اهل الكتاب
من يعمل سوء يجز به وروى الاعمش عن مسلم قال قال ابو بكر
يا رسول الله ما اشد هذه الاية من يعمل سوء يجز به فقال يا ابا
بكر ان المصيبة في الدنيا جزاء واختلف المفسرون في تاويل قوله
تعالى سنعذبهم مرتين فقال بعضهم احد العذابين الفضيحة في الدنيا
والثاني عذاب القبر وقال عبد الرحمن بن زيد احد العذابين
مصائبهم في الدنيا في اموالهم واولادهم والثاني عذاب الاخرة
في النار وليس وان نال اهل المعاصي لذة من عيش وادركوا
امنية من دنيا كانت عليهم نعمة بل قد يكون ذلك استدراجا
ونقمة وروى عن عقبة بن عامر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال اذا رايت الله تعالى يعطي العباد ما يشاؤن على معاصيهم
اياه فان ذلك استدراج منه لهم ثم تلى فلما نسوا ما ذكروا به
فتحنا عليهم ابواب كل شي حتى اذا فرحوا بما اوتوا اخذناهم بغتة
فاذا هم مبلسون واما سائر المحرمات التي يمنع الشرع منها
واستقر التكليف عقلا او سمعا بالنهي عنها فتنقسم قسمين
منها ما تكون النفس داعية اليها والشهوات باعثة عليها ولمشدة
الميل اليها بنوعين من الزجر احدهما حد عاجل يرتدع به الجري
والثاني وعيد اجل يزدجر به التقي ومنها ما تكون النفوس نافرة
منها والشهوات مصروفة عنها كالخبائث والمستقذرات
وشرب السموم المتلفات فاقتصر الله تعالى في الزجر عنها بالوعيد
وحده دون الحد لان النفوس مستعدة في الزجر عنها والشهوات

احد العذابين

ابن لهيعة عن عقبة
ابن مسلم صح

كالسفاح وشرب الخمر فقد
زجر الله تعالى عنها بالقوة
الباعثة عليها صح

مصلح

مصروفة عن ركوب المحظور منها ثم اكد الله زواجره بانكار المنكرين
فاوجب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ليكون الامر بالمعروف
تاكيدا لاوامره والنهي عن المنكر تاييدا لزواجره لان النفوس الهيها
الصبيوة عن اتباع الاوامر واذهلتها الشهوة عن تذكار الزواجر
فكان انكار المجانسين زجرا لها وتوبيخ المخالطين ابلغ فيها ولذلك
قال النبي صلى الله عليه وسلم ما اقر قوم المنكر بين اظهرهم الا
عمهم الله بعذاب محتضر واذا كان كذلك فلا يخلو حال فاعلي
المنكر من امرين احدهما ان يكونوا احادا متفرقين وافرادا
متبددين لم يتحزبوا فيه ولم يتظافروا عليه وهم رعية مقهورون
وشذاذ مستضعفون لاخلاف بين الناس ان امرهم بالمعروف و
نهيهم عن المنكر مع المكنة وظهور القدرة واجب على من شاهد ذلك
من فاعليه او سمعه من قائليه . وانما اختلفوا في وجوب ذلك على منكريه
هل وجب عليهم بالعقل او بالشرع فذهب بعض المتكلمين الى وجوب
ذلك بالعقل ان يمتنع من القبيح لانه لما وجب بالعقل ان يمتنع من
القبيح وجب ايضا بالعقل ان يمنع غيره منه لان ذلك ادعى الى
مجانبته وابلغ في مفارقته وقد روى عن عبد الله بن المبارك قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان قوما ركبوا في سفينة في البحر
فاقتسموا فاخذ كل واحد موضعا فنقر رجل منهم موضعه بفاس
فقالوا ما تصنع فقال هو مكاني اصنع به ما شئت فلم ياخذوا على
يده فهلك وهلكوا وذهب اخرون الى وجوب ذلك بالشرع دون
العقل لان العقل لو اوجب عن المنكر ومنع غيره عن القبيح لوجب
مثله على الله تعالى ولما جاز ورود الشرع باقرار اهل الذمة على
الكفر وترك النكير عليهم لان واجبات العقول لا يجوز ابطالها

بالشرع وفي ورود الشرع بذلك دليل على العقل غير موجب لانكاره
فاما اذا كان في ترك انكاره مضرة لاحقة بمنكره وجب انكاره بالعقل
على القولين معا واما ان لحق المنكر مضرة من انكاره ولم يلحقه
مضرة من كفه واقراره لم يجب الانكار لا بالعقل ولا بالشرع اما
بالعقل فلانه يمنع من اجتلاب المضار التي لا يوازيها نفع واما
الشرع فقد روى ابو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم انه
قال انكر المنكر بيدك فان لم تستطع فبلسانك فان لم تستطع فبقلبك
وذلك اضعف الايمان فان اراد الاقدام على الانكار مع لحوق المضرة
نظر فان لم يكن اظهار النكير مما يتعلق باعزاز الدين واظهار كلمة الحق
يجب على المنكر اذا خشي بغالب الظن ضررا وتلفا فلم يحسن منه النكير
ايضا وان كان في اظهار النكير اعزاز دين الله تعالى واظهار كلمة الحق
حسن منه النكير مع خشية الاضرار والتلف وان لم يجب عليه
اذا كان الغرض قد يحصل له بالنكير وان استنصر وقيل على هذا
الوجه قال النبي صلى الله عليه وسلم ان افضل الاعمال كلمة حق عند سلطان
جابر فاما ان كان يقتل قبل حصول الغرض قبح في العقل ان يتعرض
لانكاره وكذلك لو كان الانكار يزيد المنهي اغراء بفعل المنكر ولجاجا
في الاستكثار منه اقبح في العقل الحالة الثالثة ان يكون فعل المنكر
من جماعة قد تظافرت عليه وعصبة قد تحزبت ودعت اليه فقد اختلف
الناس في وجوب انكاره على مذاهب شتى فقالت طايفة من اصحاب
الحديث واهل الاثار لا يجب انكاره والاولى بالانسان ان يكون كافا
ممسكا ملازما لبيته وادعا عن منكر ولا مستنفر وقالت طايفة اخرى
ممن يقول بظهور المنتظر لا يجب انكاره ولا التعرض لازالته الا
ان يظهر المنتظر فيتولى انكاره بنفسه ويكونوا حينئذ اعوانه وقالت

طايفة

طائفة اخرى منهم الاصم لا يجوز للناس انكاره الا ان يجتمعوا
على امام عدل فيجب عليهم انكاره معه وقال
جمهور المتكلمين انكار ذلك واجب عليه والدفع عنه لازم على
شروطه في وجوب اعوان يصلحون له فاما مع فقد الاعوان
فعلى الانسان الكف لان الواحد قد يقتل قبل بلوغ الغرض
فيه وذلك قبيح في العقل ان يتعرض له فهذا حكم ما اكد الله
به اوامره وايد به زواجره من الامر بالمعروف والنهي عن
المنكر وما يختلف من احوال الامرين والناهين عنه ثم ليس تخلو
حال الناس فيما امروا به ونهوا عنه من افعال الطاعات واجتناب
المعاصي من اربعة احوال فمنهم من يستجيب الى فعل الطاعات
ويكف عن ارتكاب المعاصي وهي اكمل احوال اهل الدين وافضل
صفات المتقين فهذا يستحق جزاء العاملين وثواب المطيعين
روى محمد بن عبد الملك المدني عن نافع عن ابن عمر قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم الذنب لا ينسى والبر لا يبلى والديان
لا يموت فكن كما شئت فكما تدين تدان وقديما قيل كل يحصد
ما يزرع ويجزى بما يصنع بل قالوا ازرع يومك حصاد غدك
ومنهم من يمتنع من افعال الطاعات ويقدم على ارتكاب المعاصي
وهي اخبث احوال المكلفين وشر صفات المتعبدين فهذا
يستحق عقاب اللاهي عن فعل ما امر به من طاعته وعذاب
المجتري على ما اقدم عليه من معاصيه وقد قال
ابن شبرمة عجبت لمن يحتمي من الطيبات مخافة الداء كيف
لا يحتمي من المعاصي مخافة النار اخذ ذلك
بعض الشعراء فقال

حسبك بالحمية افنيته ﴿ مخافة البارد والحار ﴿
وكان اولى لك ان تحتمي ﴿ من المعاصي حذر النار ﴿

وقال ابن صبارة انا نظرنا فوجدنا الصبر على طاعة الله اهون من الصبر على عذاب الله وقال اخر اصبروا عباد الله على عمل لا غنا بكم عن ثوابه واصبروا عن عمل لا صبر لكم على عقابه وقيل للفضيل بن عياض رضي الله تعالى عنه وقال كيف يرضى عني ولم ارضه وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اقلعوا عن المعاصي قبل ان ياخذكم الله فيدعكم هتا بتا الهت الكسر والبت القطع ومنهم من يستجيب الى فعل الطاعات ويقدم على ارتكاب المعاصي فهذا يستحق عذاب المجتري لانه تورط بغلبة الشهوة على الاقدام على المعصية وان سلم من التقصير في فعل الطاعة ولذلك قال بعض العلماء افضل الناس من لم تفسد الشهوة دينه ولم تزل الشبهة يقينه وقال حماد بن زيد عجبت لمن يحتمي الاطعمة لمضرتها كيف لا يجتنب الذنوب لمعرتها وقال بعض الصلحاء اهل الذنوب مرضى القلوب وقيل للفضيل بن عياض ما اعجب الاشياء قال قلب عرف الله ثم عصاه وقال بعض الادبا يدل بالطاعة العاصي وينسى عظيم المعاصي ﴿ وقال رجل لابن عباس ايما احب اليك رجل قليل الذنوب قليل العمل او رجل كثير الذنوب كثير العمل فقال ابن عباس لا اعدل بالسلامة شيا

اعجب الاشيا قال قلب عرف الله ثم عصاه وقيل لبعض الزهاد ما تقول في صلاة الليل فقال خف الله بالنهار ونم بالليل وسمع بعض الزهاد رجلا يقول اهلكهم النوم فقال بل اهلكتهم اليقظة وقيل لابي هريرة ما التقوى قال اجتزت في ارض فيها شوك قال نعم قال كيف تصنع قال كنت اتوقى قال فتوق الخطايا وقال عبد الله بن المبارك شعرا

﴿ ايضمن لي فتى ترك المعاصي ﴿ فارهنه الكفالة بالخلاص ﴿
﴿ اطاع الله قوم فاستراحوا ﴿ ولم يتجرعوا غصص المعاصي ﴿

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال كانت صحف موسى كلها عبرا عجبت لمن ايقن بالنار كيف يضحك وعجبت لمن ايقن بالموت ثم هو يفرح وعجبت لمن ايقن بالقدر ثم هو ينصب وعجبت لمن راى الدنيا وتقلبها باهلها ثم هو يطمئن اليها وعجبت لمن ايقن بالحساب غدا ثم لا يعمل وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اجتهدوا في العمل فان قصر بكم ضعف فكفوا عن المعاصي وهذا واضح المعنى لان الكف عن المعاصي ترك وهو اسهل وعمل الطاعة فعل وهو اثقل ولذلك لم يبح الله تعالى ارتكاب معصية لعذر ولا لغير عذر لانه ترك والترك لا يعجز المعذور عنه واباح ترك الاعمال بالاعذار لان العمل قد يعجز المعذور عنه وقال بكر بن عبد الله رحم الله امرا كان قويا فاعمل قوته في طاعة الله او كان ضعيفا فكف عن معصية الله وقال عبد الاعلى بن عبد الله الشامي شعرا

﴿ العمر ينقص والذنوب تزيد ﴿ ويقال عثرته الفتى فيعود ﴿
﴿ هل يستطيع جحود ذنب واحد ﴿ رجل جوارحه عليه شهود ﴿

ومنهم من يمتنع عن فعل الطاعات ويكف نفسه عن ارتكاب المعاصي فهذا يستحق عقاب ... عند ربه المذنب بفعله نفسه ... اولى ... عن ... العقاب ... صح

مقبل

والمرء يسأل عن سنيه فيشتهي ... تقليلها وعن الممات يحيد

واعلم ان اعمال الطاعات ومجانبة المعاصي اثنتين احدهما تكسب الوزر والاخرى توهن الاجر فاما المكتسبة للوزر فالاعجاب بما اسلف من عمله وقدم من طاعته لان الاعجاب به يفضي الى حالتين مذمومتين احدهما ان المعجب بعمله ممتن به والممتن على الله جاحد لنعمته وقال ابن عباس رضي الله عنهما اوحى الله تعالى الى نبي من انبيائه اما زهدك في الدنيا فقد استعجلت به الراحة واما انقطاعك الي فهو عزلك وهذا ذلك وبقيت انا والثانية ان المعجب بعمله مدل به والمدل مجتري على الله والمجتري على الله عاص وقد قال مورق العجلي المدل بالمعصية خير من المعجب بالطاعة ان لا تاتي بطاعة وقال بعض السلف ضاحك معترف بذنبه خير من باك مدل على ربه وباك نادم على ذنبه خير من باك سعتر باموره واما الموهنة للاجر فالثقة بما اسلف والركون الى ما قدم لان الثقة تؤول الى امرين سيئين احدهما ان تحدث اتكالا على ما مضى وتقصيرا فيما يستقبل ومن قصر واتكل لم يرج اجرا ولم يؤد شكرا والثاني ان الواثق آمن والامن من الله غير خائف ومن لم يخف الله هانت عليه اوامره وسهلت عليه زواجره وقد قال الفضيل بن عياض رهبة المرء من الله على قدر علمه بالله وقال مورق العجلي لان ابيت نائما واصبح نادما احب الي من ابيت قائما واصبح ناعما وقال بعض الحكماء ما بينك وبين ان لا يكون فيك خير الا ان ترى ان فيك خيرا وقيل لرابعة هل عملت عملا قط ترين انه يقبل منك قالت ان كان شيء فخوفي من ان يرد على عملي وقال ابن السماك انا لله في ما

فعلى هذا يكون غاية ما تطلب هو غاية ما تشرع فيه

مضا

مضا ما اعظم فيه الخطر وانا لله فيما بقي ما اقل منه الحذر وحكي ان بعض الزملا وقف على جمع فنادى باعلا صوته يا معشر الاغنيا لكم اقول استكثروا من الحسنات فان ذنوبكم كثيرة يا معشر الفقرا لكم اقول اقلوا من الذنوب فان حسناتكم قليلة فينبغي احسن الله لك التوفيق ان لا تضيع صحة جسمك وفراغ وقتك بالتقصير في طاعة ربك والثقة بسالف عملك واجعل الاجتهاد غنيمة صحتك والعمل فرصة فراغك فليس كل زمان مستعدا ولا ما فات مستدركا وللفراغ زيغ او ندم وللخلوة ميل او اسف وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه الراحة للرجال غفلة وللنساء غلمة وقال بزرجمهر ان يكن الشغل مجهدة فان الفراغ مفسدة وقال بعض الحكما اياك والخلوات فانها تفسد العقول وتعقد المحلول وقال بعض البلغا لا تمض يومك في غير منفعة ولا تضع مالك في غير موضعه فالعمر اقصر من ان ينفد في غير المنافع فيما لا يعود عليه نفعه وخيره وينفق امواله فيما لا يحصل له ثوابه واجره وابلغ من ذلك قول عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام البر ثلاثة النطق والنظر والصمت فمن كان منطقه في غير ذكر فقد لغا ومن كان نظره في غير اعتبار فقد سها ومن كان صمته في غير فكر فقد لهى واعلم ان للانسان فيما كلف من عبادته ثلاثة احوال احدها ان يستوفيها من غير تقصير فيها ولا زيادة عليها والثانية ان يقصر فيها والثالثة ان يزيد عليها فاما الاولى وهي ان ياتي بها على حال الكمال من غير تقصير فيها ولا زيادة تطوع على راتبتها فهي اوسط الاحوال واعدلها لانه لم يكن منه تقصير فيذم ولا تكثير فيعجز وقد روي

والعمر

والمال اقل من ان يصرف في غير المصانع

سعيد بن ابي سعيد عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال سددوا واستعينوا بالغدوة والروحة وبشيء من
الدلجة قال الشاعر

علیك باوساط الامور فانها ۞ نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا

واما الحالة الثانية وهو ان يقصر فيها فلا يخلو حال تقصيره
من اربعة احوال احداهن ان يكون تقصيره لعذر اعجزه
عنه او مرض اضعفه عن اداء ما كلف به فهذا يخرج عن
حكم المقصرين ويلحق باحوال العاملين لاستقرار الشرع
على سقوط ما دخل تحت العجز وقد جاء في الحديث عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال ما من عامل كان يعمل عملا فيقطعه عن ذلك
العمل مرض الا وكل الله به من يكتب ثواب عمله والحالة الثالثة ان
يكون تقصيره اغترارا لمسامحة فيه ورجاء العفو عنه فهذا مخدوع
العقل مغرور بالجهل قد جعل الظن ذخرا والرجا عدة فهو
كمن قطع سفرا بغير زاد ظنا منه بانه سيجده في المفاوز الجدبة
فيفضي به الظن الى الهلكة وهلا كان الحذر اغلب عليه وقد
ندب الله تعالى اليه وحكي عن اسرائيل بن محمد بن القاضي قال
لقيني مجنون في خرابات فقال يا اسرائيل خف الله خوفا يشغلك
عن الرجا فان الرجا يشغلك عن الخوف وفر الى الله تعالى ولا تفر
منه وحكي ان ابا حازم اخبر سليمان فقال ابن رحمة الله فقال رحمة الله
قريب من المحسنين وقال عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما ما انتفعت
ولا اتعظت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل كتاب كتبه
الي علي بن ابي طالب اما بعد فان الانسان يسره درك ما لم يكن
ليفوته ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه فلا تكن بما نلت من دنياك

نظر ما وعظ به علي بن ابي طالب لعبد الله بن عباس

فرحا ولا لما فاتك منها ترحا ولا تكن ممن يرجو الاخرة بغير عمل ويؤخر
التوبة بطول امل فكان قد ظن المحال والسلام وقال محمد الوراق شعر

اخاف على المحسن التقي ۞ وارجو لذي الهفوات المسي
فذلك خوفي على محسن ۞ فكيف على العالم المعتدي
على ان ذي الزيغ قد يستفيق ۞ ويستانف الزيغ قلب التقي

والحالة الثالثة ان يكون تقصيره فيه يستوفي ما اخل به من بعد
فيبدا بالسيئة في التقصير قبل الحسنة في الاستيفاء اغترارا
بالامل في امهاله ورجاء لتلافي ما اسلف في تقصيره واخلاله
فلا ينتهي به الامل الى غاية ولا يفضي به الى نهاية لان الامل في
ثاني حال كهو في اول حال وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال من تامل انه يعيش غدا تامل ان يعيش ابدا ولعمري
ان هذا صحيح لان لكل يوم غدا فلا يفضي به الامل الى الفوات من
غير درك ويؤديه الرجا الى الاهمال من غير تلافي فيصير الامل خيبة
في الرجا ياسا وروى عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده ان النبي
صلى الله عليه وسلم قال اول صلاح هذه الامة باليقين والزهد
وفسادها بالبخل والامل وقال بعض الحكما الجاهل يعتمد على
امله والعاقل يعتمد على عمله وقال بعض البلغاء الامل كالسراب يغر
من راه ويخيب من رجاه وقال محمد بن يزداد دخلت على المامون وكان
يوميذ وزيره فرايته قائما وبيده رقعة فقال يا محمد اقرا ما فيها
فقلت هي في يد امير المومنين فرمى بها الي فاذا فيها مكتوب شعر

انك في دار لها مدة ۞ يقبل فيها عمل العامل
اما ترى الموت محيطا بها ۞ يقطع فيها امل الامل
تعجل الذنب لما تشتهي ۞ وتامل التوبة من قابل

والموت ياتي بعد ذا غفلة ⁘ ماذا يفعل الحازم العاقل

قال فلما قراتها قال المامون هذا من احكم شعر قراته قال ابو حازم نحن لا ندري ان نموت حتى نتوب ونحن لا نتوب حتى نموت وقال بعض البلغا الامهال رائد الاهمال والحالة الرابعة ان يكون تقصيره فيه استيفا الاوزهدا في التمام واقتصارا على ما سنح وقلة اكتراث فيما بقي فهذا على ثلاثة اضرب احدها ان يكون ما اخل به وقصر فيه غير قادح في فرض ولا مانع من اجرا عادة كمن اقتصر من العبادة على فعل واجباتها ومفروضاتها واخل بمسنوناتها وهياتها فهذا مسيي فيما ترك اساءة من لا يستحق وعيدا ولا يستوجب عقابا لان ادراك الواجب يسقط عنه العقاب واخلاله بالمسنون يمنع من اكمال الثواب وقد قال بعض الحكما من تهاون بالدين هان ومن غالب الحق لان وقال الشاعر

ويصونون ثوبه ويترك ⁘ غير ذلك لا يصونه

واحق ما صان الفتى ⁘ ودعى امانته ودينه

والضرب الثاني ان يكون ما اخل به من مفروض عباداته لكونه يقدح ترك ما بقي فيما مضا لمن اكمل عبادته واخل بغيرها فهذا اسوء حالا ممن تقدمه لما استحقه من الوعيد واستوجبه من العقاب والضرب الثالث ان يكون ما اخل به من مفروض عباداته وهو قادح فيما عمل منها كالعبادة التي يرتبط بعضها ببعض فيكون المقتصر في بعضها تاركا لجميعها فلا يحتسب له بما عمل لاخلاله بما بقي وهذا اسوء حال المقصرين لاحق باحوال التاركين بل قد تكلف بما لا يسقط فرضا ولا يؤدي حقا فقد ساوى التاركين في استحقاق الوعيد وزاد عليهم في تكليف ما لا يفيد فصار من الاخسرين اعمالا

الذين ضل سعيهم في الحيوة الدنيا وفي الاخرة ثم لعله لا يفطن لشانه ولا يشعر بخسرانه وقد خسر الدنيا والاخرة ويفطن لليسير من ماله ان وهي واختل وانشد بعض اهل العلم شعرا

ابني ان من الرجال بهيمة ⁘ في صورة الرجل السميع المبصر

فطنا بكل مصيبة في ماله ⁘ فاذا اصاب بدينه لم يشعر

والحالة الثالثة وهي ان يزيد فيما كلف فهذا على ثلاثة اقسام احدها ان تكون الزيادة رياء للمناظرين وتصنعا للمخلوقين حتى يستعطف به القلوب النافرة ويخدع به العقول الواهية فيتبهرج بالصلحا وليس منهم ويتدلس بالاخيار وهو ضدهم وقد ضرب النبي صلى الله عليه وسلم للمرائي بعمله مثلا فقال المتشبع بما لا يملك كلابس ثوبي زور يريد المتشبع بما لا يملك المتزين بما ليس فيه وقوله كلابس ثوبي زور هو الذي يلبس ثياب الصلحا ويفعل افعال الطلحا فهو برياءه محروم الاجر مذموم الذكر لانه لم يقصد به وجه الله تعالى فيوجر عليه ولا يخفى رياءه على الناس فيحمدونه وقد قال الله تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا قال جميع اهل التاويل معنى قوله ولا يشرك بعبادة ربه احدا اي لا يرائي بعمله احدا فجعل الريا شركا لانه ما يقصد به وجه الله تعالى مقصودا به غير الله تعالى وقال الحسن البصري في قوله ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها لا تجهر بها رياء ولا تخافت بها حياء وكان سفيان بن عيينة يتاول قوله تعالى ان الله يامر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر ان تكون علانيته احسن من سريرته وكان غيره يقول العدل شهادة ان لا اله الا الله والاحسان الصبر على امره ونهيه وطاعة الله

في سره وجهره وايتاء ذي القربى صلة الارحام وينهى عن الفحشاء
يعني الزنا والمنكر القبايح والبغي الكبر والظلم وليس يخرج الريا
بالاعمال من هذا التاويل ايضا لانه جملة القبايح وقد روي عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال اخوف ما اخاف على امتي الريا الظاهر
والشهوة الخفية وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اشد
الناس عذابا يوم القيمة من يرى ان فيه خيرا ولا خير فيه وحكى
الاصمعي ان اعرابيا صلى فاطال والى جانبه قوم فقالوا ما احسن
صلاتك فقال وانا مع ذلك صايم فقال اعرابي كان فيهم شعرا

صلى فاعجبني وصام فرابني ... نح القلوص عن المصلي الصايم

فانظر الى هذا الريا مع قبحه ما دله على سخف عقل صاحبه وربما
ساعد الناس لظهور ريايه استهزاء بنفسه ولذلك قال النبي صلى
الله عليه وسلم المرء على دين خليله فلينظر احدكم من يخالل فاذا
كاثرهم المجالس وطاولهم المؤانس احب ان يقتدي بهم في افعالهم ويتاسى
بهم في اعمالهم ولا يرتضي لنفسه ان يقصر عنهم ولا يكون في الخير
دونهم فتبعثه المنافسة على مساواتهم وربما دعته الحمية على الزيادة
عليهم والمكاثرة لهم فيصيرون سببا لسعادته وباعثا على استزادته
والعرب تقول لولا الريا هلك الانام لولا الناس يرى بعضهم
بعضا فيقتدي بهم في الخير لهلكوا ولذلك قال بعض البلغاء من خير
الاختيار صحبة الاخيار ومن شر الاختيار صحبة الاشرار وهذا
صحيح لان للمصاحبة تاثيرا في اكتساب الاخلاق فتصلح اخلاق المرء
بمصاحبة اهل الصلاح وتفسد بمصاحبة اهل الفساد وقال

بعض الشعرا

رايت صلاح المرء يصلح اهله ... ويعديهم عند الفساد اذا فسد

ويعظم في الدنيا بفضل صلاحه ... ويحفظ بعد الموت في الاهل والولد

وانشد بعض اهل الادب لابي بكر الخوارزمي شعرا

لا تصحب الكسلان في حاجاته ... كم صالح بفساد اخر يفسد
عدوى البليد الى الجليد سريعة ... والجمر يوضع في الرماد فيخمد

والقسم الثالث ان يفعل الزيادة ابتداء من نفسه التماسا لثوابها
ورغبة في الزلفة بها فهذا من نتايج النفس الزاكية ودواعي الرغبة
الوافية الدالين على خلوص الدين وصحة اليقين وذلك افضل احوال
العاملين واعلا منازل العابدين وقد قيل الناس في الخير اربعة
منهم من يفعله ابتداء ومنهم من يفعله اقتداء ومنهم من يتركه استحسانا
ومنهم من يتركه حرمانا فمن فعله ابتداء فهو كريم ومن فعله اقتداء فهو
حكيم ومن تركه استحسانا فهو ردي ومن تركه حرمانا فهو شقي ثم لما
يفعله من الزيادة حالتان احدهما ان يكون مقتصدا فيها وقادرا على
الدوام عليها فهي افضل الحالتين واعلا المنزلتين عليها انقراض اخيار
السلف وتبعهم فيها فضلاء الخلف وقد روت عايشة رضي الله
تعالى عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ايها الناس اكفلوا من
الاعمال ما تطيقون فان الله تعالى لا يمل من الثواب حتى تملوا من
العمل وخير العمل ما ديم عليه والعرب تقول القصد والدوم رابة
السابق الجواد لان من كان صحيح الرغبة في ثواب الله تعالى لم يكن
مسرته الا في طاعة الله وقال عبد الله بن المبارك قلت لراهب
متى عيدكم قال كل يوم لا اعصي الله فيه فهو يوم عيد انظر الى هذا القول
منه وان لم يكن من مقاصد الطاعة ما يبلغه في حب الطاعة وحثه
على بذل الاستطاعة والحالة الثانية ان يستكثر منها استكثار من لا
ينهض بدوامها ولا يقدر على ايصالها فهذا ربما كان بالمقصر اشبه

لان الاستكثار من الزيادة اما يمنع من اداء اللازم فلا يكون
تقصيرا لانه تطوع بزيادة احدثت نقصا وتنفل منع فرضا واما
ان يعجز عن استدامة الزيادة ويمنع من ملازمة الاستكثار من غير
اخلال بلازم ولا تقصير في فرض فهي اذا تقصير المدى فقليله
اللبث ولقليل العمل في طويل الزمان افضل عند الله من كثير العمل
في قصير الزمان لان المستكثر من العمل في الزمان القصير قد يعمل
زمانا ويترك زمانا فربما صار في زمان تركه لاهيا ساهيا والمقلل
في الزمان الطويل مستيقظ الافكار مستديم التذكار وقد روى
ابو صالح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان للاسلام شرة وان
للشرة فترة فمن سدد وقارب فارجوه ومن اشير اليه بالاصابع فلا
تعدوه فجعل للاسلام شرة وهي الابغال في الاستكثار وجعل
للشرة فترة وهي الاهمال بعد الاستكثار فلم تخل كما اثبت من ان
يكون هذه الزيادة تقصيرا او اخلالا ولا خير في واحد منهما واعلم
جعل الله العلم حاكما لك وعليك والحق قائدا لك واليك ان الدنيا
اذا وصلت تبعات موبقة واذا فارقت فجعات محرقة وليس لوصلها
دوام ولا من فراقها بد فرض نفسك على قطيعتها لتسلم من تبعاتها
وعلى فراقها لتامن من فجعاتها فقد قيل المرء مقترض من عمره
المنقرض مع ان العمر وان طال قصير والفراغ وان تم يسير

(هامش: عن ابي هريرة صح)

وانشد لعلي بن محمد شعرا

اذا كملت للمرء ستون حجة ... فلم يحظ من ستين الا بسدسها
الم تر ان النصف لليل حاصل ... وتذهب اوقات المقيل بخمسها
وتاتي اوقات الهموم بحصة ... واوقات اوجاع تميت بمسها
فحاصل ما يبقاه سدس عمره ... اذا صدقته من معلم حدسها

ورياضة نفسك لذلك تترتب على احوال ثلاث وكل حال منها تتشعب
وهي لتسهيل ما يليها سبب فالحالة الاولى ان تصرف حب الدنيا
عن قلبك فانها تلهيك عن اخرتك ولا تجعل سعيك لها فتمنعك
حظك منها وتوق الركون اليها ولا تكن آمنا وقد روى عن النبي صلى
الله عليه وسلم انه قال من اشرب قلبه حب الدنيا وركن اليها التاط
منها بشغل لا يبلغ غناه وامل لا يبلغ منتهاه وحرص لا يدرك مداه
وقال عيسى بن مريم عليهما الصلاة والسلام الدنيا لابليس مزرعة واهلها
له حراث وقال علي بن ابي طالب كرم الله تعالى وجهه مثل الدنيا
كمثل الحية لين مسها قاتل سمها فاعرض عما يعجبك منها وضع عنك
همومها لما ايقنت من فراقها وكن احذر ما تكون لها انس ما تكون
بها فان صاحبها كلما اطمأن منها الى سرور اشخصه عنها مكروه
وان سكن منها الى ايناس ازاله عنها ايحاش وقال بعض البلغاء
ان الدنيا لا تصفو لشارب ولا تبقى لصاحب ولا تخلو من فتنة ولا
تخلي من محنة فاعرض عنها قبل تعرض عنك واستبدل بها قبل ان
تستبدل بك فان نعيمها يتنقل واحوالها تتبدل ولذاتها تفنى
وتبعاتها تبقى وقال بعض الحكماء انظر الدنيا نظر الزاهد المفارق
ولا تتاملها تامل العاشق الرامق وقال بعض الشعراء

(هامش: الوامق)

الا انما الدنيا كاحلام نائم ... وما خير عيش لا يكون بدائم
تامل اذا ما نلت بالامس لذة ... فافنيتها هل انت الا كحالم
فكم غافل عنه وليس بغافل ... وكم نائم عنه وليس بنائم

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من هوان الدنيا على الله
تعالى ان لا يعصى الا فيها ولا ينال ما عنده الا بتركها وروى عن سفيان
ان الخضر قال لموسى عليه السلام يا موسى اعرض عن الدنيا وانبذها

وراءك فانها ليست لك بدار ولا فيها قرار وانما جعلت الدنيا
للعباد ليتزودوا منها للمعاد وقال عيسى بن مريم عليه الصلاة و
السلام الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها وقال علي
يصف الدنيا اولها عناء واخرها فناء حلالها حساب وحرامها
عقاب من صح فيها امن ومن مرض فيها ندم ومن استغنى فيها

عذاب

فتن ومن افتقر فيها حزن ومن ساعاها فاتته ومن قعد عنها
اتته ومن نظر اليها اعمته ومن نظر بها بصرته وقال بعض البلغا
ان الدنيا تقبل اقبال الطالب وتدبر ادبار الهارب وتصل
وصال الملول وتفارق فراق العجول فخيرها يسير وعيشها قصير
واقبالها خديعة وادبارها فجيعة ولذاتها فانية وتبعاتها باقية
فاغتنم غفوة الزمان وانتهز فرصة الامكان وخذ من نفسك
لنفسك وتزود من يومك لغدك وقال وهب بن منبه مثل الدنيا
والاخرة مثل ضرتين ان ارضيت احدهما اسخطت الاخرى
وقال عبد الحميد الدنيا منازل فراحل ونازل وقال بعض الحكما
الدنيا اما نقمة نازلة او نعمة زايلة وقال في منثور الحكم من
الدنيا على الدنيا دليل وقال بعض الشعرا

تسمع من الايام ان كنت حازما ... فانك منها بين ناه وامر
اذا ابقت الدنيا على المرء دينه ... فما فات من شيء فليس بضاير
فلن تعدل الدنيا جناح بعوضة ... ولا وزن زف من جناح لطاير
فما رضي الدنيا ثوابا لمؤمن ... ولا رضي الاخرى جزاء لكافر

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال الدنيا يومان يوم فرح
ويوم هم وكلاهما زايل عنك فدعوا ما يزول واتعبوا انفسكم في
العمل لما لا يزول وقال عيسى بن مريم عليهما الصلاة والسلام لا تنازعوا

اهل

اهل الدنيا في دنياهم فينازعوكم في دينكم فلا دنياهم اصبتم ولا على
دينكم ابقيتم وقال علي بن ابي طالب كرم الله تعالى وجهه لا تكن ممن
يقول في الدنيا بقول الزاهدين ويعمل فيها عمل الراغبين ان اعطي
منها لم يشبع وان منع منها لم يقنع يعجز عن شكر ما اوتي ويبتغي الزيادة
فيما بقي ينهى ولا ينتهي ويامر بما لا ياتي ويحب الصالحين ولا يعمل بعملهم
ويبغض الطالحين وهو منهم وقال الحسن البصري الدنيا كلها غم فما
كان فيها من سرور فهو ربح وقال بعض البلغاء ان الدنيا كثيرة التغيير
سريعة التنكير شديدة المكر دايمة الغدر فاقطع اسباب الهوى عن
قلبك واجعل ابعد املك بقية يومك وكن كانك ترى ثواب عملك
وقال بعض الحكما الدنيا اما مصيبة موجعة او منية مفجعة

وقال بعض الشعرا

خل دنيا فانها يعقب الخير شرها ... هي ام تعق من نسلها من برها
كل نفس فانها تبتغي ما يضرها ... والمنايا تسوقها والاماني تغرها
واذا استحلت الجنا اعقب الحلو مرها ... يستوي في ضريحه عبدها وحرها

فاذا رضت نفسك من هذه الحالة بما وصفت اعتضت منها ثلاث
خصال احداهن ان تكفى اشفاق المحب وحذر الوامق فليس لمشفق
ثقة ولا لحاذر راحة والثانية ان يامن الاغترار بملاهيها فيسلم
من عبادة دواهيها فان اللاهي بها مغرور والمعروف فيها مسكور
والثالثة ان يستريح من تعب السعي لها ووصب الكد فيها فان من احب
شيئا طلبه ومن طلب شيئا كد له والمكدود فيها شقي ان ظفر ومحروم
ان خاب وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لكعب يا كعب الناس
غاديان فغاد نفسه فمعتقها وموبق نفسه فموبقها وقال عيسى عليه الصلاة
والسلام تعملون للدنيا وانتم ترزقون فيها بغير عمل ولا تعملون للاخرة

وانتم لا ترزقون فيها الا بعمل وقال بعض البلغا من نكد الدنيا انها لا تبقى على
حالة ولا تخلو من استحالة تصلح جانبا بافساد جانب وتسر صاحبا
بمساءة صاحب فالركون فيها خطر والثقة بها غرر وقال بعض الحكما
الدنيا مرتجعة الهبة والدهر حسود لا ياتي على شي الا غيره ولمن عاش حاجة
لا تنقضي ولما بلغ مروان من الدنيا افضل ما سمت اليه نفسه نبذها
وقال هذا سرور لولا انه غرور ونعيم لولا انه عديم وملك لولا انه هلك
وغناء لولا انه فناء وجسيم لولا انه ذميم ومحمود لولا انه مفقود وغنا
لولا انه مناء وارتفاع لولا انه اتضاع وعلاء لولا انه بلاء وحسن لولا
انه حزن وهو يوم لا وثوق له بغد وقال بعض الحكما قد ملك الدنيا
غير واحد من راغب وزاهد فلا الراغب فيها استبقت ولا الزاهد
فيها كفت وقال ابو العتاهية شعرا

هي الدار دار الاذى والقذر ... ودار الفنا ودار الغير
فلو نلتها بحذافيرها ... لمت ولم تقض منها الوطر
ايا من يومل طول الحيوة ... وطول الخلود عليه ضرر
اذا ما كبرت وبان الشباب ... فلا خير في العيش بعد الكبر

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال اللهم اني اعوذ
بك من علم لا ينفع ونفس لا تشبع وقلب لا يخشع وعين لا تدمع
هل يتوقع احدكم الا غنا مطغيا او فقرا منسيا او مرضا مفسدا او
هرما مفندا او الدجال فهو شر غايب ينتظر او الساعة فالساعة
ادهى وامر وحكي ان الله تعالى اوحى الى عيسى عليه الصلاة والسلام
ان هب لي من قلبك الخشوع ومن بدنك الخضوع ومن عينيك
الدموع وادعني فاني قريب وقال عيسى عليه السلام اوحى الله تعالى الى
الدنيا من خدمني فاخدميه ومن خدمك فاستخدميه وقال بعض البلغا

زد من طول املك في قصر اجلك فان الدنيا ظل الغمام وحلم النيام
فمن عرفها ثم طلبها فقد اخطا الطريق وحرم التوفيق وقال بعض الحكما
لا يومننك اقبال الدنيا عليك من ادبارها عنك ولا دولة لك اذ الزمها
منك وقال اخر ما مضى من الدنيا حلم وما بقي منها كما مضى وقيل
لزاهد قد خلعت الدنيا فكيف سخت نفسك عنها فقال ايقنت
اني اخرج منها كارها فرايت ان ادعها طايعا وقيل لحرقة بنت النعمان
مالك تبكين فقالت رايت لاهلي نضارة ولن تمتلي دار فرحا الا
امتلات ترحا وقال ابن السماك من جرعته الدنيا حلاوتها بميله
اليها جرعته الاخرة مرارتها لتجافيه عنها وقال صاحب كليلة ودمنة
طالب الدنيا كشارب ماء البحر كلما ازداد شربا ازداد عطشا وكان
عمر ابن عبد العزيز يتمثل بهذه الابيات والردى

نهارك يا مغرور سهو وغفلة ... وليلك نوم والاسى لك لازم
تسر بما يفنى وتفرح بالمنى ... كما سر باللذات في النوم حالم
وتشغل فيما سوف تكره غبه ... كذلك في الدنيا تعيش البهايم

وسمع رجل رجلا يقول لصاحبه اراك الله مكروها فقال كانك
دعوت على صاحبك بالموت لانه من صاحب الدنيا فلا بد ان يرى
مكروها وقال ابو العتاهية رحمه الله تعالى

ان الزمان وان الان لاهله بمحاسن ... تخطو به المتحركات كانهن سواكن

ثم الحالة الثانية من احوال رياضتك لها ان تصدق نفسك فيما
منحتك من رغايبها وانالتك من غرايبها فتعلم ان العطية فيها
مرتجعة والمنحة فيها مستردة بعد ان يبقى عليك ما احتقبت من اوزار
وصولها اليك وحسرات خروجها عنك فقد روي عن النبي صلى الله
عليه وسلم انه قال لا تزول قدما ابن ادم من بين يدي الله تعالى حتى

تسال عن ثلاثة شبابه فيما ابلاه وعمره فيما افناه وماله من اين اكتسبه وفيما انفقه وروي عن عيسى بن مريم عليهما السلام انه قال في المال ثلاث خصال قالوا وما هن يا روح الله قال يكسبه من غير حله قالوا فان كسبه من حله قال يضعه في غير حقه قالوا فان وضعه في حقه قال يشغله عن عبادة ربه ودخل ابو حازم على بشر ابن مروان فقال له يا ابا حازم ما المخرج مما نحن فيه قال تنظر ما عندك فلا تضعه الا في حقه وما ليس عندك فلا تاخذه الا بحقه قال ومن يطيق هذا يا ابا حازم فقال فمن اجل ذلك ملئت جهنم من الجنة والناس اجمعين وعيرت اليهود عيسى بن مريم بالفقر فقال من الغنى اتيتم ودخل قوم منزل عابد فلم يجدوا شيئا يقعدون عليه فقال لهم لو كانت دار مقام لاتخذنا لها اثاثا وقيل لبعض الزهاد الا توصي فقال بماذا اوصي والله ما لنا شي ولا لنا عند احد شي ولا لاحد عندنا شي انظر الى هذه الراحة كيف تعجلها والى السلامة كيف صار اليها ولذلك قيل الفقر ملك ليس فيه محاسبة وقيل لعيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام الا تتزوج قال انما نحب التكاثر في دار البقا وقيل له لو دعوت الله تعالى ان يرزقك حمارا فقال انا اكرم على الله من ان يجعلني خادم حمار وقيل لابي حازم ما مالك قال شيئان الرضى عن الله والغنا عن الناس وقيل له انك لمسكين فقال كيف اكون مسكينا ومولاي له ما في السموات وما في الارض وما بينهما وما تحت الثرى وقال بعض الحكما رب مغبوط بمسرة هي داؤه ومرحوم من سقم هو شفاؤه وقال بعض الادبا الناس اشتات ولكل جمع شتات وقال بعض البلغا الزهد بصحة اليقين وصحة اليقين بنور الدين فمن صح يقينه زهد في الثرى ومن قوي دينه ايقن بالجزا فلا يغرنك صحة نفسك وسلامة

بعضهم في معنى ذلك
... ماالها ... اهل المال حراس
... بما قد كنت املكه
... مما يملك الناس

امسيك فمدة العمر قليلة وصحة النفس مستحيلة وقال بعض الشعرا

رب مغروس يعاش به ❊ عدمته كف مغترسه
وكذاك الدهر ما تمه ❊ اقرب الاشياء من عرسه

فاذا رضت نفسك من هذه الحال بما وصفت اعتضت منها ثلاث خصال احداهن نصح نفسك وقد استسلمت اليك والنظر لها وقد اعتمدت عليك فان غاش نفسه مغبون والمنحرف عنها محزون والثانية الزهد فيما ليس لك لتكفى تكلف طلبه وتسلم من تبعات كسبه والثالثة انتهاز الفرصة فيما لك ان تضعه في حقه وتؤتيه لمستحقه ليكون لك ذخرا ولا يكون عليك وزرا فقد روي ان رجلا قال يا رسول الله اني اكره الموت قال الك مال قال نعم قال قدم مالك فان قلب المرء عند ماله وقالت عايشة رضي الله عنها ذبحنا شاة فتصدقنا بها فقلت يا رسول الله ما بقي الا الكتف فقال كلها بقي الا كتفها وحكي ان عبد الله بن مسعود باع ضيعة له وانفق قيمتها فقيل له لو اتخذت لولدك من هذا المال ذخرا فقال انا اجعل هذا المال لي ذخرا عند الله تعالى واجعل الله ذخرا لولدي وتصدق بها وعوتب سهل بن عبد الله المروزي في كثرة الصدقة فقال لو ان رجلا اراد ان ينتقل من دار الى دار هل كان يبقي في الاولى شيا وقال سليمان ابن عبد الملك لابي حازم ما لنا نكره الموت قال لانكم اخربتم اخرتكم وعمرتم دنياكم فكرهتم ان تنتقلوا من العمران الى الخراب وقيل لعبد الله بن عمر ترك زيد بن خارجة ماية الف درهم قال لكنها لا تتركه وقال الحسن البصري ما انعم الله على عبد نعمة الا وعليه فيها تبعة الا سليمان عليه السلام فان الله تعالى قال هذا عطاؤنا فامنن او امسك بغير حساب وقال ابو حازم ان عوفينا من شر ما اعطينا لم يضرنا

بثمانين الف درهم

اي ... عليه ...

فقد ما زودي عنا وقال بعض السلف قدموا كلاًّ ليكون لكم ولا تخلفوا بعضا
فيكون عليكم وقال ابرهيم نعم القوم السؤال يدقون ابوابكم يقولون
توجهوا الى الاخرة بشي وقال سعيد بن المسيب مر بي صلة بن
اشيم فما تمالكت ان نهضت اليه فقلت يا ابا الصهباء ادع لي فقال
رغبك الله فيما يبقى وزهدك فيما يفنى ووهب لك اليقين الذي لا
تسكن النفس الا اليه ولا يعول في الدين الا عليه ولما ثقل عبد الملك
ابن مروان راى غسالا كان يلوي بيده ثوبا فقال وددت اني كنت
مثلك غسالا لا اعيش الا بما اكتسبه يوما فيوما فبلغ ذلك ابا حازم
فقال الحمد لله الذي جعلهم يتمنون عند الموت ما نحن فيه ولا
نتمنى عنده ما هم فيه وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يقول
ابن ادم مالي مالي ما لك من مالك الا ما اكلت فافنيت او لبست فابليت
او اعطيت فامضيت وقال خالد بن صفوان بت ليلتي اتمنى فكبست
البحر الاخضر بالذهب الاحمر فاذا الذي يكفيني من ذلك رغيفان
وكوزان وطمران وقال مورق العجلي يا ابن ادم في كل يوم توتى رزقك
وانت تحزن تطلب ما يطغيك وعندك ما يكفيك وقال ابو حازم
انما بيني وبين الملوك يوم واحد اما امس فلا يجد ون لذته وانا وهم
من غد على وجل وانما هو اليوم فما عسى ان يكون وقال بعض السلف
تعز عن الشيء اذا منعته بقلة ما يصحبك اذا اعطيته وقال بعض
الحكما من ترك نصيبه من الدنيا استوفى حظه من الاخرة وقال اخر
ترك التلبس بالدنيا قبل التشبث بها اهون من رفضها بعد ملابستها
وقال اخر ليكن طلبك الدنيا اضطرارا وفكرتك في الامور اعتبارا
وسعيك لمعادك ابتدارا وقال اخر الزاهد من لا يطلب المفقود
حتى يفقد الموجود وقال اخر من امن بالاخرة لم يحرص على الدنيا ومن

ويُنقص من عمرك وانت لا تحزن صح

ايقن بالمجازاة لم يوثر على الحسنى وقال اخر من حاسب نفسه ربح
ومن غفل عنها خسر وقال ابو العتاهية شعر

اري الدنيا لمن هي في يديه ❊ عذابا كلما كثرت لديه
تهين المكرمين لها بصغر ❊ وتكرم كل من هانت عليه
اذا استغنيت عن شيء فدعه ❊ وخذ ما انت محتاج اليه

وحكي الاصمعي قال دخلت على الرشيد يوما وهو ينظر في كتاب
ودموعه تسيل على خديه فلما ابصرني قال ارايت ما كان مني قلت
نعم اما انه لو كان الامر لدنيا ما رايت هذا ثم رمى بالقرطاس
فاذا فيه شعر قول ابي العتاهية

مثل انت معتبر لمن خربت ❊ منه غداة القضا وساكره
وممن اذل الدهر مصرعه ❊ فتبراءت منه عساكره
وممن خلت منه اسرته ❊ وتعطلت منه منابره
اين الملوك وابن غيرهم ❊ صاروا مصيرا انت صايره
يا مؤثر الدنيا للذته ❊ والمستعد لمن تواخره
نل ما بدا لك ان تنال من ❊ الدنيا فان الموت اخره

ثم قال الرشيد والله كاني اخاطب بهذا الشعر دون الناس فلم يلبث
بعده الا يسيرا حتى مات ثم الحالة الثالثة من احوال رياضتك
لها ان تكشف لها حال اجلك وتصرفها عن غرور املك حتى لا يطيل
لك الامل اجلا قصيرا ولا ينسك موتا ولا نشورا وروى عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال في بعض خطبه ايها الناس ان الايام
تطوى والاعمار تفنى والابدان في الثرى تبلى وان الليل والنهار
يتراكضان تراكض البريد يقربان كل بعيد ويخلقان كل جديد وفي
ذلك عباد الله ما الهى عن الشهوات ورغب في الباقيات الصالحات

لنفسك صح

وقال مسعر كم من مستقبل يوما وليس يستكمله ومنتظر غدا وليس من اجله ولو رايتم الاجل ومسيره لابغضتم الامل وغروره وقال رجل من الانصار للنبي صلى الله عليه وسلم من اكيس الناس قال اكثرهم للموت ذكرا واشدهم استعدادا له اوليك الاكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الاخرة وقال عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام كما تنامون كذلك تموتون وكما تستيقظون كذلك تبعثون وقال علي بن ابي طالب كرم الله تعالى وجهه ايها الناس اتقوا الله الذي ان قلتم سمع وان اضمرتم علم وبادروا الموت الذي ان هربتم ادرككم وان اقمتم اخذكم وقال العلا بن المسيب ليس قبل الموت شي الا والموت اشد منه وليس بعد الموت شي الا الموت ايسر منه وقال بعض الحكما ان للباقي بالماضي معتبرا وان للاخر بالاول مزدجرا والسعيد لا يركن الى الخدع ولا يغتر بالطمع وقال بعض الصلحا ان بقاك الى فناء وفناك الى بقاء فخذ من فنايك الذي لا يبقى لبقايك الذي لا يفنى وقال بعض العلماء اي عيش يطيب وليس للموت طبيب وقال آخر كل امرء يجري من عمره الى غاية ينتهي اليها مدة اجله وتطوى عليها صحيفة عمله فخذ من نفسك لنفسك وقس يومك بامسك وكف من سياتك وزد في حسناتك قبل ان تستوفي مدة الاجل وتنقص عن الزيادة في السعي الى العمل وقيل في منثور الحكم من لم يتعرض للنوايب تعرضت له وقال ابو العتاهية

ما للمقابر لا تجيب ... اذا دعاهن الكييب
حفر مسقفة عليهن ... الجنادل والكثيب
فيهن اطفال وولدان ... وشبان وشيب
كم حبيب لم تكن ... نفسي بفرقته تطيب

غادرته في بعضهن ... مجدلا وهو الحبيب
وسلوت عنه وانما ... عهدي برؤيته قريب

ووعظ النبي صلى الله عليه وسلم رجلا فقال له اقلل من الدنيا تعش حرا واقلل من الذنب يهن عليك الموت وانظر حيث تضع ولدك فان العرق دساس وقال الرشيد لابن السماك عظني واوجز فقال انك لست اول خليفة تموت وعزى اعرابي رجلا في ابن له صغير فقال له الحمد لله الذي نجاه مما هاهنا وخلصه مما بين يديه من الخطر وقال بعض السلف من عمل للاخرة احرزها والدنيا ومن اثر الدنيا حرمها والاخرة وقال بعض الصلحاء استغنم تنفس الاجل وامكان العمل واقطع ذكر المعاذير والعلل فانك في اجل محدود ونفس معدود وعمر غير ممدود وقال بعض الحكما الطبيب معذور اذا لم يدفع المحذور وقال بعض البلغا اعمل عمل المرتحل فان حادي الموت يحدوك ليوم ليس يعدوك وروي عن علي بن ابي طالب انه قال بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم

غر جهولا امله ... يموت من جا اجله
ومن دنا من حتفه ... لم تغن عنه حيله
وما بقا آخر قد ... غاب عنه اوله
والمرء لا يصحبه ... في القبر الا عمله

وقال ابو العتاهية

لا تامن الموت في لحظ ولا نفس ... وان تمنعت بالحجاب والحرس
واعلم بان سهام الموت قاصدة ... لكل مدرع منا ومترس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... ان السفينة لا تجري على اليبس

فاذا رضت نفسك من هذه الحال بما وصفت اعتضت منها ثلث خصال احداهن ان تكفي تسويف امل يرديك وتسويل محال يوذيك فان تسويف الامل غرار وتسويل المحال اضرار والثانية ان تستيقظ لعمل اخرتك وتغتنم بقية اجلك بخير عملك فان من قصر

امله واستقل اجله حسن عمله الثالثة ان يهون عليك نزول ما ليس
عنه محيص ويسهل عليك حلول ما ليس الى دفعه سبيل فان من تحقق
امرا توطا لحلوله وهان عليه عند نزوله روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال لابي ذر نبه بالتفكر قلبك وجاف عن النوم جنبك واتق الله
ربك وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لابي ذر عظني قال ارض بالقوت
وخف الفوت واجعل صومك الدنيا وفطرك الموت وقال عمر بن عبد العزيز
ما رايت يقينا لا شك فيه اشبه بشك لا يقين فيه من يقين نحن فيه
فلئن كنا مقرين انا الحمقى ولئن كنا جاحدين انا الهلكا وقال الحسن
البصري نهارك ضيفك فاحسن اليه فانك ان احسنت اليه ارتحل
بحمدك وان اسات اليه ارتحل يذمك وكذا ليلك وقال الجاحظ في
كتاب التبيان وجد مكتوبا على حجر يا ابن آدم انك لو رايت يسير ما بقي
من اجلك لزهدت في طويل ما ترجوا من املك ولرغبت في الزيادة من
عملك ولقصرت من حرصك وحيلك وانما يلقاك غدا ندمك لو قد زلت
بك قدمك واسلمك اهلك وحشمك وتبرا منك القريب وانصرف
عنك الحبيب ولما حضر بشر بن منصور الموت فرح فقيل له اتفرح
بالموت فقال اتجعلون قدومي على خالق ارجوه كمقامي مع مخلوق
اخافه وقيل لابي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه في مرضه الذي
مات فيه لو ارسلت الى الطبيب فقال قد راني قالوا فماذا قال لك
قال قال اني فعال لما اريد وقيل للربيع بن خيثم وقد اعتل الا ندعو
لك الطبيب قال قد اردت ذلك فذكرت عادا وثمود واصحاب
الرس وقرونا بين ذلك كثيرا وعلمت انه كان فيهم الذوى والمداوي
فهلكوا جميعا وسئل انوشروان متى يكون نعيش الدنيا الذ فقال
اذا كان الذي ينبغي ان يعمله في حياته معمولا وقال بعض الحكما من

ذكر المنية نسي الامنية وقال بعض الادبا عن الموت تسل فانه
كربيئة تسل وقال بعض البلغا الامل حجاب الاجل وانشد
بعض الاجلا وذكر انه لعلي بن ابي طالب كرم الله تعالى وجهه

ولو انا اذا متنا تركنا … لكان الموت راحة كل حي
ولكنا اذا متنا بعثنا … ويسال ربنا عن كل شي

وقال بعض الشعرا

الا انما الدنيا مقيل لراكب … قضى وطرا من منزل ثم هجرا
وراح ولا يدري على ما قدومه … الا كلما قدمت تلقا موفرا

وروى سعيد بن مسعود ان ابا الدردا قال يا رسول الله اوصني
فقال له النبي صلى الله عليه وسلم اكسب طيبا واعمل صالحا واسئل
الله تعالى رزق يوم بيوم واعدد نفسك من الموتى وكتب الربيع
ابن خيثم الى اخ له قدم جهازك وافرغ من زادك وكن وصي نفسك
والسلام وقال بعض السلف اصاب الدنيا من حذرها واصابت
الدنيا من امنها ومر محمد بن واسع بقوم فقيل هولاء زهاد فقال
وما قدر الدنيا حتى يحمد من يزهد فيها وقال بعض الحكما السعيد من
اعتبر بامسه واستظهر لنفسه والشقي من جمع لغيره وبخل على نفسه
وقال بعض البلغا لا تبيتن عن غير وصية وان كنت من جسمك في
صحة ومن عمرك في فسحة فان الدهر خاين وكل ما هو كاين

وقال بعض الشعرا

من كان يعلم ان الموت مدركه … والقبر مسكنه والبعث مخرجه
وانه بين جنات ستبهجه … يوم القيمة او نار ستنضجه
فكل شي سوى التقوى به سمج … وما اقام عليه منه اسمجه
ترى الذي اتخذ الدنيا له وطنا … لم يدر ان المنايا سوف تزعجه

وروى جابر الجعفي عن محمد بن علي عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله
عليه وسلم انه قال في بعض خطبه ايها الناس ان لكم نهاية فانتهوا
الى نهايتكم وان لكم معالم فانتهوا الى معالمكم وان المومن بين
مخافتين اجل قد مضا ما يدري ما الله صانع به واجل قد بقي لا
يدري ما الله قاض فيه فليتزود العبد لنفسه من نفسه ومن دنياه
لآخرته ومن الحيوة قبل الموت فان الدنيا خلقت لكم وانتم خلقتم لها
فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب وما بعد
الدنيا دار الا الجنة او النار وقال الحسن البصري امس اجل واليوم
عمل وغدا امل فاخذ ابو العتاهية هذا المعنى فقال

قنع النفس بالكفاف والا ؛ طلبت منك فوق ما يكفيها
ليس فيما مضى ولا في الذي ؛ لم يأت من لذة لمستحليها
انما انت طول عمرك ما ؛ عمرت في الساعة التي انت فيها

وقيل لزاهد ما بالك تمشي على عصا ولست بكبير ولا مريض فقال لاعلم اني مسافر

حملت العصا لا الضعف اوجب حملها ؛ علي ولا اني تحنيت من كبر
ولكنني الزمت نفسي حملها ؛ لاعلمها اني المقيم على السفر

وقال وانها دار نقلة وان العصا من آلة السفر فاخذ المعنى الشاعر فقال

حملت العصا لا الضعف اوجب حملها ؛ علي ولا اني تحنيت من كبر
ولكنني الزمت نفسي حملها ؛ لاعلمها اني المقيم على السفر

وقال بعض المتصوفة الدنيا ساعة فاجعلها طاعة وقال
ذو القرنين وقعنا في الدنيا جاهلين وعشنا فيها غافلين واخرجنا
منها كارهين وقال عبد الحميد المرء اسير عمر يسير وقيل في بعض
المواعظ عجبت لمن خاف العقاب كيف لا يكف وعجبت لمن يرجو
الثواب كيف لا يعمل وقال بعض الحكما المسيء ميت وان كان في

دار

دار الحيوة والمحسن حي وان كان في دار الاموات وقال بعض السلف الله
المستعان على السنة تصف وقلوب تعرف واعمال تخالف وقال
اخر ان الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما وقال اخر اعملوا لاخرتكم
من هذه الايام التي تسير كانها تطير وقال اخر الموت قصاراك فخذ من
دنياك لاخراك وقال اخر عباد الله الحذر الحذر فوالله لقد ستر حتى
كانه قد غفر ولقد امهل حتى كانه اهمل وقال اخر الايام صحايف اعمالكم
فخلدوها اجمل افعالكم وقيل في منثور الحكم اقبل نصح المشيب وان
عجل وقيل ما طلعت شمس الا وعظتك بامس وقال محمد بن سيرين

مضى امسك الادنى شهيدا معدلا ؛ ويومك هذا بالفعال شهيد
فان تك بالامس اقترفت اساءة ؛ فثن باحسان وانت حميد
ولا ترج فعل الخير منك الى غد ؛ لعل غدا ياتي وانت فقيد

روى ابو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما رايت مثل
الجنة نام طالبها ولا مثل النار نام هاربها وقال عيسى بن مريم عليه السلام
ان اولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين نظروا الى
باطن الدنيا حين نظر الناس الى ظاهرها والى آجل الدنيا حين نظر الناس
الى عاجلها فاماتوا منها ما خشوا ان يميت قلوبهم وتركوا منها ما
علموا انه سيتركهم وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه الناس طالبان
يطلبان فطالب يطلب الدنيا فارفضوها في نحره فانه ربما ادرك
الذي يطلب منها فهلك بما اصاب منها وطالب يطلب الاخرة فاذا
رايتم طالب الاخرة فنافسوه ودخل ابو الدرداء الشام فقال يا اهل
الشام اسمعوا قول اخ ناصح فاجتمعوا اليه فقال مالي اراكم تبنون ما لا
تسكنون وتجمعون ما لا تاكلون ان الذين كانوا قبلكم بنوا مشيدا واملوا
بعيدا وجمعوا كثيرا فاصبح املهم غرورا وجمعهم ثبورا ومساكنهم قبورا

وقال ابو حازم ان الدنيا غرت اقواما فعملوا فيها بغير الحق فقد جاءهم الموت فخلفوا مالهم لمن لا يحمدهم وصاروا الى من لا يعذرهم وقد خلفنا من بعدهم فينبغي لنا ان ننظر الذي كرهناه منهم فنتجنبه والذي غبطناهم به فنستعمله ومر بعض الزهاد بباب ملك فقال باب جديد وموت عتيد ونزع شديد وسفر بعيد ومر بعض الزهاد برجل قد اجتمع عليه الناس فقالوا هذا مسكين سرق رجل منه جبة ومر به آخر فاعطاه جبة فقال الحمد لله ان سعيكم لشتى وقال بعض الحكما ما انصف من نفسه من ايقن بالحشر والحساب وزهد في الاجر والثواب وقال اخر بطول الامل تقسو القلوب وباخلاص النية تقل الذنوب وقال اخر اياك والمنا فانها من بضائع النوكى وتثبيط عن الاخرة والاولى وقال آخر قصر املك فالعمر قصير واحسن سيرتك فالبر يسير وقال عبد الله بن المعتز

نسير الى الآجال في كل ساعة ... وايامنا تطوى وهن مراحل
ولم نر مثل الموت حقا كانه ... اذا ما تخطته الاماني باطل
وما اقبح التفريط في زمن الصبا ... فكيف به والشيب في الراس نازل
ترحل من الدنيا بزاد من التقا ... فعمرك ايام تعد قلائل

وكان عبد الملك بن مروان يتمثل بهذين البيتين

فاعمل على مهل فانك ميت ... فاختر لنفسك ايها الانسانا
فكانما قد كان لم يك اذ مضى ... وكان ما هو كاين قد كانا

ونظر سليمان بن عبد الملك يوما في المراة فقال انا الملك الشاب فقالت جارية له شعرا

ليس فيما بدا لنا منك عيب ... قد علمناه غير انك فاني
انت نعم المتاع لو كنت تبقى ... غير ان لا بقاء للانساني

وروى عن انس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقته الجدعا فقال ايها الناس كان الموت فيها على غيرنا كتب وكان الحق فيها على غيرنا وجب وكان الذين نشيع من الاموات سفر عما قليل الينا عايدون نبوئهم اجداثهم ونا كل تراثهم كانا مخلدون بعدهم قد نسينا كل واعظة وامنا كل جايحة طوبى لمن شغله عيبه عن عيب غيره وانفق من مال كسبه من غير معصية ورحم اهل الذل والمسكنة وخالط اهل الفقه والحكمة طوبى لمن اذب نفسه وحسنت خليقته وصلحت سريرته طوبى لمن علم بعلم وانفق من فضله وامسك من قوله ووسعته السنة ولم يعدها الى بدعة وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال زوروا القبور تذكروا بها الاخرة واغسلوا الموتى فان معالجة الاجساد الخاوية موعظة بليغة وحفر الربيع بن خيثم في داره قبرا فكان اذا وجد من قلبه قسوة جاء فاضطجع في القبر فيمكث فيه ما شاء الله ثم يقول رب ارجعون لعلي اعمل صالحا فيما تركت ثم يرد على نفسه فيقول قد ارجعتك فجد فيمكث على ذلك ما شاء الله وقال ابو محرز الطفاوي كفتك القبور مواعظ الامم السالفة وقيل لبعض الزهاد ما ابلغ العظات فقال النظر الى محلة الاموات اخذه ابو العتاهية فقال

وعظتك اجداث صمت ... ونعتك ازمنة خفت
وتكلمت عن اوجه تبلى ... وعن صور سبت
وارتك قبرك في القبور ... وانت حي لم تمت
يا شامتا بمنيتي ... ان المنية لم تفت
ولربما انقلب الشمات ... فحل بالقوم الشمت

ووجد على قبر مكتوب قهرنا ما قهرنا ثم صرنا للناظرين عبرة وعلى

آخر مكتوبا من امل البقا وقد راى من مصارعنا فهو مغرور وقيل
في منثور الحكم ما اكثر من يعرف الحق ولا يعمل به وقال بعض الحكما من لم
يمت لم يفت وقال بعض الصلحا لنا من كل ميت عظة بحاله وعبرة
بماله وقال بعض البلغا ما انقضت ساعة من امسك الا ببضعة
من نفسك فاخذه ابو العتاهيه فقال

ان مع الدهر فاعلمن غدا ۞ فانظر بما ينقضي مجيء غده
ما ارتد طرف امرئ بلذته ۞ الا وشيء يموت من جسده

ولما مات الاسكندر قال بعض الحكما كان الملك امس انطق منه
اليوم وهو اليوم اوعظ منه امس فاخذ هذا ابو العتاهيه فقال

كفى حزنا بدفنك ثم اني ۞ نفضت تراب قبرك من يديا
وكانت في حياتك لي عظات ۞ فانت اليوم اوعظ منك حيا

وقال بعض الحكما لو كان للخطايا ريح لافتضح الناس ولم يتجالسوا
فاخذ هذا المعنى ابو العتاهيه فقال

احسن الله بنا ان الخطايا لا تفوح ۞ فاذا المستور منا بين ثوبيه فضوح

وهذا كله ماخوذ من قول النبي صلى الله عليه وسلم لو تكاشفتم ما
تدافنتم وكتب رجل الى ابي العتاهية رحمه الله تعالى

يا ابا اسحق اني واثق منك بودك ۞ فاعني بانك انت على غيي برشدك

فاجابه ابو العتاهيه رحمة الله تعالى عليه

اطع الله بجهدك راغبا او دون جهدك ۞ اعط مولاك الذي تطلب من طاعة عبدك

وقال بعض الحكما من سره بنوه ساءته نفسه فاخذ المعنى ابو العتاهيه فقال

ابن ذي الابن كلما ازداد منه ۞ مشرع زاد في فناء ابيه
ما يقال الاب الملح عليه ۞ بذيب البلا شباب بنيه

وفي معناه ما يقال في زر بن حبيش انه عاش مائة وعشرين سنه

ما حكي عن زر

فلما حضرته الوفاة انشا يقول

اذا الرجال ولدت اولادها ۞ واضطربت من كبر اعضادها
وجعلت اوصابها تعتادها ۞ فهي زروع قد دنا حصادها

وكتب رجل الى صالح بن عبد القدوس

الموت باب وكل الناس داخله ۞ فليت شعري بعد الموت ما الدار

فاجابه صالح فقال

الدار جنة عدن ان عملت بما ۞ يرضي الاله وان خالفت فالنار
هما محلان ما للناس غيرهما ۞ فانظر لنفسك اي الدار تختار

الباب الرابع في آداب الدنيا

اعلم ان الله تعالى لنافذ قدرته وبالغ حكمته خلق الخلق بتدبيره
وفطرهم بتقديره فكان من لطيف ما دبر وبديع ما قدر ان
خلقهم محتاجين وفطرهم عاجزين ليكون بالغنا منفردا وبالقدرة
مختصا حتى يشعرنا بقدرته انه خالق ويعلمنا بغناه انه رازق
فنذعن بطاعته رغبة ورهبة ونقر بنقصنا عجزا وحاجة ثم
جعل الانسان اكثر حاجة من جميع الحيوان لان من الحيوان ما يستقل
بنفسه عن جنسه والانسان مطبوع على الافتقار الى جنسه
في الاستعانة به صفة لازمة لطبعه وخلقة قائمة له في جوهره
ولذلك قال الله سبحانه وتعالى وخلق الانسان ضعيفا يعني ضعيفا
عن الصبر عما هو اليه مفتقر واحتمال ما هو عنه عاجز ولما كان
الانسان اكثر حاجة من جميع الحيوان كان اظهر عجزا لان الحاجة الى
الشيء افتقار اليه والمفتقر الى الشيء عاجز به وقد قال بعض الحكما
المتقدمين استغناؤك عن الشيء خير من استغنائك به وانما
خص الله تعالى الانسان بكثرة الحاجة وظهور العجز نعمة عليه ولطفا

به ليكون ذل الحاجة ومهانة العجز يمنعان من طغيان الغنا

وبغي المقدرة لان الطغيان مركوز في طبعه اذا استغنى والبغي

مستولٍ عليه اذا اقتدر وقد انبا الله تعالى بذلك عنه فقال كلا ان

الانسان ليطغى ان رآه استغنى ثم ليكون اقوى الامور شاهدا

على نقصه واوضحها دليلا على عجزه والنشد لي

بعض اهل الادب لابن الرومي فقال

اعترتني بالنقص والنقص شامل • ومن ذا الذي يعطى الكمال فيكمل

واشهد اني ناقص غير انني • اذا قيس بي قوم كثير تقللوا

تفاضل هذا الخلق بالفضل والحجا • ففي ايما هذين انت فتفضل

ولو منح الله الكمال ابن آدم • لخلده والله ما شاء يفعل

ولما خلق الله الانسان ماس الحاجة ظاهر العجز جعل الله لنيل

حاجته اسبابا ولدفع عجزه حيلة دله عليهما بالعقل وارشده اليهما

بالفطنة قال الله تعالى والذي قدر فهدى قال مجاهد قدر

احوال الخلقه فهدى الى سبيل الخير والشر وقال ابن مسعود

في قوله تعالى وهديناه النجدين يعني الطريقين طريق الخير

وطريق الشر ثم لما كان العقل دالا على اسباب ما يدعو الحاجة

اليه جعل الله الادراك والظفر موقوفا على ما قسم وقدر كيلا

يعتمدوا في الارزاق على عقولهم وفي العجز على فطنهم لتدوم

له الرغبة والرهبة ويظهر منه الغنا والقدرة وربما اعزب هذا

المعنى عمن ساء ظنه بخالقه حتى صار سببا لضلاله كما

قال بعض الشعرا

سبحان من انزل الايام منزلها • وصير الناس مرفوضا ومرموقا

فعاقل فطن اعيت مذاهبه • وجاهل خرق تلقاه مرزوقا

هذا الذي ترك الالباب حايرة • وصير العاقل النحرير زنديقا

ولو حسن ظن العاقل حتى صح نظره لعلم من علل المصالح ما صار بها

صديقا لا زنديقا لان من علل المصالح لما هو ظاهر ومنها ما هو غامض ومنها

ما هو مغيب لحكمة استاثر بها ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حسن

الظن بالله من عبادة الله ثم ان الله سبحانه وتعالى جعل اسباب حاجاته

وحيل عجزه في الدنيا التي جعلها دار تكليف وعمل كما جعل الاخرة دار قرار

وجزا فلزم لذلك ان يصرف الانسان الى دنياه حظا من عنايته لانه لا غنا به

عن التزود منها لاخرته ولا له بد من سد الخلة فيها عند الحاجة وليس في هذا

القول نقض لما ذكرناه قبل من ترك فضولها وزجر النفس عن الرغبة اليها

بل الراغب فيها ملوم وطالب فضولها مذموم والرغبة انما تختص بما جاوز قدر

الحاجة والفضول انما تنطلق على ما زاد على قدر الكفاية وقد قال الله تعالى

لنبيه صلى الله عليه وسلم فاذا فرغت فانصب والى ربك فارغب قال اهل التاويل

يعني فاذا فرغت من امر دنياك فانصب في عبادة ربك وليس هذا القول منه ترغيبا

لنبيه صلى الله عليه وسلم فيها ولكن ندبه الى اخذ البلغة منها وعلى هذا المعنى

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس خيركم من ترك الدنيا للاخرة ولا الاخرة

للدنيا ولكن خيركم من اخذ من هذه وهذه وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم

انه قال نعم المطية الدنيا فارتحلوها تبلغكم الاخرة وذم رجل الدنيا عند علي

ابن ابي طالب كرم الله وجهه فقال علي الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار

نجاة لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها وحكى مقاتل ان ابراهيم عليه

السلام قال يا رب حتى متى اتردد في طلب الدنيا فقيل له امسك عن هذا

فليس طلب المعاش من طلب الدنيا وقال سفيان الثوري مكتوب في التوراة

اذا كان في البيت بر فتعبد واذا لم يكن فاطلب يا ابن ادم حرك يدك يسبب لك

رزقك وقال بعض الحكما ليس من الرغبة في الدنيا اكتساب ما يصون العرض

منها وقال بعض الادبا اليس من الحرص اجتلاب ما يفوت البدن وقال محمد الوراق

لا تتبع الدنيا وايامها ... ذمًّا وان دارت بك الدايره
من شرف الدنيا ومن فضلها ... ان بها تستدرك الاخره

واذا قد لزم بما بيناه النظر في امور الدنيا فوجب سبر احوالها والكشف عن جهة انتظامها واختلالها ليعلم اسباب صلاحها وفسادها ومواد عمرانها وخرابها لينتفي عن اهلها شبه الحيرة وتتجلى لهم اسباب الخيرة فيقصدوا الامور من ابوابها ويعتمدوا صلاح قواعدها واسبابها واعلم ان صلاح الدنيا معتبر من وجهين اولهما ما ينتظم به امور جملتها والثاني ما يصلح به حال كل واحد من اهلها فهما شيان لا صلاح لاحدهما الا بصاحبه لان من صلحت حاله مع فساد الدنيا واختلال امورها لن يعدم ان يتعدى اليه فسادها ويقدح فيه اختلالها لان منها يستمد ولها يستعد ومن فسدت حاله مع صلاح الدنيا وانتظام امورها لم يجد لصلاحها لذة ولا لاستقامتها اثرا لان الانسان دنيا نفسه فليس يرى الصلاح الا اذا صلحت له ولا يجد الفساد الا اذا فسدت عليه لان نفسه اخص وحاله امس فصار نظره الى ما يخصه مصروفا وفكره على ما يمسه موقوفا واعلم ان الدنيا لم تكن قط لجميع اهلها مسعدة ولا عن كافة ذويها معرضة لان اعراضها عن جميعهم عطب واسعادها لكافتهم فساد لايتلافهم بالاختلاف والتباين واتفاقهم بالمساعدة والتعاون فاذا تساوى جميعهم لم يجد احدهم الى الاستعانة بغيره سبيلا وبهم من الحاجة والعجز ما وصفناه فيذهبوا حينيذ ضيعة ويهلكوا عجزا واذا تباينوا واختلفوا صاروا موتلفين بالمعاونة متواصلين بالحاجة لان ذا الحاجة وصول والمحتاج اليه وقد قال الله تعالى

موصول صح

ولا

٥٨

ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك قال الحسن مختلفين في الرزق فهذا غني وهذا فقير ولذلك خلقهم يعني بالغنا والفقر وقال الله تعالى والله فضل بعضكم على بعض في الرزق غير ان الدنيا اذا صلحت كان اسعادها موفورا واعراضها ميسورا لانها اذا اسعدت منت واودعت واذا استردت رفقت وابقت واذا فسدت الدنيا كان اسعادها مكرا واعراضها غدرا لانها اذا اسعدت كدرت واتعبت واذا استردت استاصلت واجحفت ومع هذا فصلاح الدنيا مصلح لساير اهلها لوفور اماناتهم وظهور دياناتهم وفسادها مفسد لساير اهلها لقلة اماناتهم وضعف دياناتهم وقد وجد ذلك في شاهد الحال تجربة وعرفا كما يقتضيه دليل الحال تعليلا وكشفا فلا شي انفع من صلاحها كما انه لا شي اضر من فسادها لان ما به تقوى ديانات الناس وتتوفر اماناتهم فلا شي احق به نفعا كما ان ما به تضعف دياناتهم وتذهب اماناتهم فلا شي اجدر به ضررا وانشد لابي بكر بن دريد

الناس مثل زمانهم ... قد الحذا على مثاله
ورجال دهرك مثل ... دهرك في تقلبه وحاله
وكذا اذا فسد الزمان ... جرى الفساد على رجاله

فاذا قد بلغ بنا القول الى ذلك فسنبدا بذكر ما تصلح به الدنيا ثم نتلوه بوصف ما تصلح به حال الانسان فيها واعلم ان ما به تصلح الدنيا حتى تصير احوالها منتظمة وامورها ملتيمة ستة اشيا هي قواعدها وان تفرعت وهي دين متبع وسلطان قاهر وعدل شامل وامن عام وخصب دار وامل فسيح فاما القاعدة الاولى وهي الدين المتبع فلانه يصرف النفوس عن شهواتها ويعطف القلوب عن اراداتها حتى يصير قاهرا للسراير زاجرا للضماير رقيبا على النفوس في خلواتها نصوحا لها في ملماتها وهذه الامور لا يوصل اليها الا بالدين ولا يصلح الناس الا عليها فكان الدين اقوى قاعدة في صلاح الدنيا واستقامتها واجدى الامور نفعا في انتظامها

الاختلاف صح

واعراضها صح

وسلامتها ولذلك لم يخل الله خلقه منذ فطرهم عقلا من تكليف شرعي واعتقاد
ديني ينقادون لحكمه فلا تختلف بهم الارا ويستسلمون لامره فلا تتفرق
فيهم الاهوا وانما اختلف العلما في العقل والشرع هل جا مجيا واحدا او سبق العقل
ثم تبعه الشرع فقالت طايفة جا العقل والشرع معا مجيا واحدا لم يسبق احدهما صاحبه
وقالت طايفة اخرى بل سبق العقل ثم تعقبه الشرع لان بكمال العقل يستدل
على صحة الشرع وقد قال الله تعالى ايحسب الانسان ان يترك سدى وذلك
لا يوجد منه الا عند كمال عقله فثبت ان الدين من اقوى القواعد في صلاح
الدنيا وهو الفرد الاوحد في صلاح الاخرة وما كان به صلاح الدنيا والاخرة فحقيق
بالعاقل ان يكون به متمسكا وعليه محافظا وقد قال بعض الحكما الادب
ادبان ادب شريعة وادب سياسة فادب الشريعة ما ادى الفرض وادب
السياسة ما عمر الارض وكلاهما يرجع في العرف الى العدل الذي به سلامة السلطان
وعمارة البلدان لان من ترك الفرض فقد ظلم نفسه ومن خرب الارض فقد ظلم غيره
وقال سعيد بن حميد: ما صحة ابدا بنافعة ... حتى يصح الدين والخلق
واما القاعدة الثانية فهي سلطان قاهر تتالف برهبته الاهوا المختلفة وتجتمع
بهيبته القلوب المتفرقة وتنكف بسطوته الايدي المتغالبة وتنقمع من خوفه
النفوس المتعادية لان في طباع الناس من حب المغالبة على ما اثروه والقهر لمن عاندوه
ما لا ينكفون عنه الا بمانع قوي ورادع ملي وقد اوضح المتنبي ذلك حيث يقول شعر

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى ... حتى يراق على جوانبه الدم
والظلم من شيم النفوس فان تجد ... ذا عفة فلعله لا يظلم

وهذه العلة المانعة من الظلم لا تخلو من احد اربعة اشيا اما عقل زاجر او دين حاجز
او سلطان رادع او عجز صاد واذا تاملتها لم تجد لها خامسا يقترن بها ورهبة السلطان
ابلغها لان العقل والدين ربما كانا مضعوفين او بدواعي الهوى مغلوبين فتكون
رهبة السلطان اشد زجرا واقوى ردعا وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم

انه قال السلطان ظل الله في الارض ياوي اليه كل مظلوم وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال ان الله ليزع بالسلطان اكثر مما يزع بالقران وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم
ان لله حراسا في السما وحراسا في الارض فحراسه في السما الملايكة وحراسه في الارض
الذين يقبضون ارزاقهم يذبون عن الناس وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال الامام الجاير خير من الفتنة وكل لا خير فيه وفي بعض الشر خيار
وقال عبد الله بن مسعود السلطان يفسد وما يصلح الله به اكثر فان عدل
فله الاجر وعليكم الشكر وان جار فعليه الوزر وعليكم الصبر وروى ابو هريرة
قال سبت العجم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهى عن ذلك وقال لا تسبوها
فانها عمرت بلاد الله فعاش فيها عباد الله وقال بعض البلغا السلطان في
نفسه امام متبوع وفي سيرته دين مشروع فان ظلم لم يعدل احد في حكم وان عدل
لم يجسر احد على ظلم وقال بعض العلما ان اقرب الدعوات من الاجابة دعوة السلطان
العدل الصالح واولى الحسنات بالاجر والثواب امره ونهيه في وجوه المصالح
فهذه اثار السلطان في احوال الدنيا وما ينتظم به امورها ثم لما في السلطان من
حراسة الدين والذب عنه ومنع الاهوا منه وحراسة التبديل فيه وزجر
من شذ عنه بارتداد او بغي فيه بعناد او سعي فيه بفساد وهذه امور ان لم
تنحسم عن الدين بسلطان قوي ورعاية وافية اسرع فيه تبديل ذوي الاهوا
وتحريف ذوي الارا فليس دين زال عن سلطانه الا تبدلت احكامه وطمست
اعلامه وكان لكل زعيم فيه بدعة ولكل عصر فيه وهاية اثر كما ان السلطان
ان لم يكن عن دين تجتمع به القلوب حتى يرى اهل الطاعة فيه فرضا والتناصر
عليه حتما لم يكن للسلطان لبث ولا لايامه صفو وكان سلطان قهر ومفسدة دهر
ومن هذين الوجهين وجب اقامة امام يكون سلطان الوقت وزعيم الامة ليكون
الدين محروسا بسلطانه والسلطان جاريا على سنن الدين واحكامه وقد قال
عبد الله بن المعتز الملك بالدين يبقى والدين بالملك يقوى واختلف الناس

هل وجب ذلك بالشرع او بالعقل فقالت طايفة وجب بالعقل لانا نعلم ما
من حال العقلا الاحتياج فيهم الى المفزع الى زعيم مندوب للنظر في مصالحهم وذهب
اخرون الى وجوبه بالشرع لان المقصود بالامام القيام بامور شرعية
كاقامة الحدود واستيفا الحقوق وقد كان يجوز الاستغنا عنهما بان لا
يرد التعبد بهما فبان ان يجوز الاستغنا عما لا يراد الا لهما اولى وعلى هذا اختلفوا
في وجوب بعثة الانبيا عليهم الصلاة والسلام فمن قال بوجوب ذلك بالعقل
قال بوجوب بعثة الانبيا ومن قال بوجوب ذلك بالشرع منع وجوب بعثة
الانبيا لانه لما كان المقصود ببعثهم تعريف المصالح الشرعية وكان يجوز
من المكلفين ان لا تكون هذه الامور مصلحة لهم فلم يجب بعثة الانبيا اليهم فاما
اقامة امامين او ثلاثة في عصر واحد وبلد واحد فلا يجوز اجماعا فاما في
بلدان شتى وامصار متباعدة فقد ذهبت طايفة شاذة الى جواز ذلك
لان الامام مندوب الى ذلك للمصالح فاذا كان اثنين في بلدين او ناحيتين كان
كل واحد اقوم بما في يده واضبط لما يليه ولانه لما جاز بعثة نبيين في عصر واحد
ولم يود ذلك الى ابطال النبوة كانت الامامة اولى ولا يودي ذلك الى ابطال
الامامة وذهب الجمهور الى ان اقامة امامين في عصر واحد لا يجوز شرعا
لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا بويع الاميران فاقتلوا احدهما
وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال ان وليتم ابا بكر تجدوه قويا في دين
الله ضعيفا في بدنه وان وليتم عمر تجدوه قويا في دين الله قويا في بدنه وان
وليتم عليا تجدوه هاديا مهديا فتبين بظاهر هذا القول ان اقامة جميعهم في
وقت واحد لا يصح ولو صح لاشار اليه ونبه عليه والذي يلزم سلطان
الامة من امورها سبعة اشيا احدها حفظ الدين من تبديل فيه والحث
على العمل به من غير اهمال الثاني حراسة البيضة والذب عن الامة من عدو
في دين او باغي نفس او مال والثالث عمارة البلدان باعتماد مصالحها

وتهذيب

وتهذيب سبلها ومسالكها والرابع تقدير ما يتولاه من الاموال بسنن الدين
من غير تحريف في اخذها وعطايها والخامس معاناة المظالم والاحكام بالتسوية
بين اهلها واعتماد النصفة في فصلها والسادس اقامة الحدود على مستحقها
من غير تجاوز فيها ولا تقصير عنها والسابع اختيار خلفايه في الامور ان يكونوا
من اهل الكفاية فيها والامانة عليها فاذا فعل من افضى اليه سلطان الامة ما ذكرنا
من هذه الاشيا السبعة كان موديا لحق الله تعالى فيهم مستوجبا لطاعتهم ومناصحتهم
مستحقا لصدق ميلهم ومحبتهم وان قصر عنها ولم يقم بحقها وواجبها
كان بها مواخذا وعليها معاتبا ثم هو من الرعية على استبطان معصية ومقت
يتربصون الفرص باظهارهما ويتوقعون الدواير باعلانهما وقد قال
الله تعالى قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذابا من فوقكم او من تحت ارجلكم
او يلبسكم شيعا وفي قوله عذابا من فوقكم او من تحت ارجلكم تاويلان احدهما
ان العذاب الذي من فوقهم امرا السو والذي من تحت ارجلهم عبيد السو
وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما والثاني انه العذاب الذي من فوقهم الرجم والذي
من تحت ارجلهم الخسف وهذا قول مجاهد وسعيد بن جبير وفي قوله او يلبسكم
شيعا تاويلان احدهما انه الاهوا المختلفة وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما
والثاني انه الفتن والاختلاط وهذا قول مجاهد وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال ما من امير على عشرة الا وهو يجي يوم القيمة مغلولة يداه الى عنقه حتى
يكون عمله الذي يطلقه او يوثقه وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
خير ايمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وشر ايمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم
ويلعنونكم وهذا صحيح لانه اذا كان ذا خير احبهم واحبوه واذا كان ذا شر ابغضهم
وابغضوه وقد كتب عمر رضي الله عنه الى سعد بن ابي وقاص ان الله تعالى اذا احب
عبدا حببه الى خلقه فاعرف منزلتك من الله بمنزلتك من الناس واعلم ان ما لك
عند الله مثل ما لله عندك فكان هذا اوضح لمعنى ما ذكرناه واصل هذا ان خشية الله تعالى

بمعرفة مو

قف

تبعث على طاعته في خلقه وطاعته في خلقه تبعثهم على محبته فلذلك كانت
محبتهم دليلا على خيره وخشيتهم وبغضهم دليلا على شره وقلة مراقبته وقد قال
عمر بن الخطاب رضي الله عنه لبعض خلفايه اوصيك ان تخشى الله في الناس
ولا تخشى الناس في الله وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسايه اني اخاف
الله فيما تقلدت فقال لست والله اخاف عليك ان تخاف وانما اخاف عليك
ان لا تخاف وهذا واضح لان الخايف من الله مامون الحيف كالذي روي
عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال لابي مريم السلولي وكان قد قتل
اخاه زيد بن الخطاب والله اني لا احبك حتى تحب الارض الدم قال فتمنعني ذلك
حقا قال لا قال فلا ضير انما ياسى على الحب النسا وروى عبد الرحمن
ابن محمد قال اصدق طلحة بن عبيد الله ام كلثوم بنت ابي بكر الصديق ماية الف
درهم وهو اول من اصدق بهذا القدر فمر بالمال على عمر بن الخطاب
فقال ما هذا قالوا صداق ام كلثوم بنت ابي بكر قال ادخلوه بيت المال فاخبر
طلحة وقيل كلمه فقال ما انا بفاعل لين كان عمر يرى ان له فيه حقا لا يرده علي ابدا
ولان كان لا يرى فيه حقا ليردنه فلما اصبح عمر امر بالمال فدفع الى ام كلثوم
وحكي ان الرشيد حبس ابا العتاهية وكتب على حايط الحبس هذه الابيات

اما والله ان الظلم لوم … وما زال المسي هو الظلوم
الى ديان يوم الدين نمضي … وعند الله تجتمع الخصوم
ستعلم في المعاد اذا التقينا … غدا عند المليك من الظلوم

فاخبر الرشيد بذلك فبكا بكا شديدا ودعا ابا العتاهية فاستحله
ووهب له الف دينار واطلقه واما القاعدة الثالثة فهي عدل
شامل يدعو الى الالفة ويبعث على الطاعة وتتعمر به الارض وتنمى به
الاموال ويكثر معه النسل ويامن به السلطان فقد قال المرزبان لعمر رضي
الله عنه حين راه وقد نام منتبذا عدلت فامنت فنمت وليس شي اسرع

قوله اصدق طلحة بن عبيد الله ام كلثوم بنت ابي بكر …

في خراب الارض ولا افسد لضماير الخلق من الجور لانه ليس يقف على حد
ولا ينتهي الى غاية ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستكمل وقد روي
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال بيس الزاد الى المعاد العدوان على العباد
وقال النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث منجيات وثلاث مهلكات فاما المنجيات
فالعدل في الغضب والرضى وخشية الله تعالى في السر والعلانية والقصد
في الغنا والفقر واما المهلكات فشح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه
وحكي ان الاسكندر قال لحكما الهند وقد راى قلة الشرايع بها لم صارت
سنن بلادكم قليلة قالوا لاعطاينا الحق من انفسنا ولعدل ملوكنا فينا فقال
لهم ايما افضل العدل ام الشجاعة قالوا اذا استعمل العدل استغني عن الشجاعة
وقال بعض الحكما بالعدل والانصاف يكون بعدة الايتلاف وقال بعض البلغا
ان العدل ميزان الله الذي وضعه للخلق ونصبه للحق فلا تخالفه في ميزانه ولا
تعارضه في سلطانه واستعن على العدل بخلتين قلة الطمع وكثرة الورع واذا
كان العدل من احدى قواعد الدنيا التي لا انتظام لها الا به ولا صلاح فيها الا معه
وجب ان يبدا بعدل الانسان في نفسه ثم بعدله في غيره فاما عدله في نفسه
فيكون بحملها على المصالح وبكفها عن القبايح ثم بالوقوف في احوالها على اعدل
الامرين من تجاوز او تقصير فان التجاوز بها جور والتقصير فيها ظلم فانه من ظلم
نفسه فهو لغيره اظلم ومن جار عليها فهو على غيره اجور وقد قال بعض
الحكما من توانى في نفسه ضاع واما عدله في غيره فقد ينقسم حال الانسان
مع غيره ثلاثة اقسام فالقسم الاول عدل الانسان فيمن دونه كالسلطان
مع رعيته والرييس مع صحابته فعدله فيهم يكون باربعة اشيا باتباع الميسور
وحذف المعسور وترك التسلط بالقوة وابتغاء الحق في السيرة فان اتباع الميسور
ادوم وحذف المعسور اسلم وترك التسلط اعطف على المحبة وابتغاء الحق ابعث على
النصرة وهذه امور ان لم تسلم للزعيم المدبر كان الفساد بنظره اكثر والاختلال

بتدبيره اظهر وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اشد الناس
عذابا يوم القيمة من اشركه الله في سلطانه فجار في حكمه وقال بعض الحكما الملك
يبقى على الكفر ولا يبقى على الظلم وقال بعض الادبا ليس للجاير جار ولا تعمر له دار
وقال بعض البلغا اقرب الاشيا صرعة الظلوم وانفذ السهام دعوة المظلوم
وقال بعض حكما الملوك العجب من ملك استفسد رعيته وهو يعلم ان عزه بطاعتهم
وقال ازدشير بن ماكد اذا رغب الملك عن العدل رغبت الرعية عن الطاعة
وعوتب انوشروان على ترك عقاب المذنبين فقال هم المرضى ونحن الاطبا
فاذا لم نداوهم بالعفو فمن لهم والقسم الثاني عدل الانسان مع من فوقه
كالرعية مع السلطان والصحابة مع رييسهم وذلك يكون بثلاثة اشيا باخلاص
الطاعة وبذل النصرة وصدق الولا فان اخلاص الطاعة اجمع للشمل وبذل
النصرة ادفع للوهن وصدق الولا انفى لسو الظن وهذه امور ان لم تجتمع في
الموعي تسلط عليه من كان يحميه واضطر الى بقا من كان يتقيه كما قال الشاعر

متى احوجت ذا كرم تخطى ... اليك ببعض افعال السفيه

وفي استمرار هذا حل نظام جامع وفساد صلاح شامل وقد قال ابرويز اطع
من فوقك يطيعك من دونك وقال بعض الحكما الظلم مسلبة للنعم والبغي مجلبة
للنقم وقال بعض البلغا ان الله تعالى لا يرضى عن خلقه الا بتادية حقه وحق
شكر النعمة ونصح الامة وحسن الصنيعة ولزوم الشريعة والقسم الثالث
عدل الانسان مع اكفايه وقد يكون بثلاثة اشيا بترك الاستطالة ومجانبة
الادلال وكف الاذى لان ترك الاستطالة الف ومجانبة الادلال اعطف وكف
الاذى انصف وهذه امور ان لم تخلص في الاكفا اسرع فيهم تقاطع الاعدا فافسدوا
وافسدوا وقد روى عمر بن عبد العزيز عن ابن عباس قال قال رسول الله
صلى الله وسلم الا انبيكم بشر الناس قالوا بلى يا رسول الله قال من اكل وحده ومنع
رفده وجلد عبده ثم قال افلا انبيكم بشر من هذا قالوا بلى يا رسول الله قال من لا يرجى

خيره ولا يومن شره الا انبيكم بشر من ذلكم قالوا بلى يا رسول الله قال من يبغض الناس
ويبغضونه ان عيسى ابن مريم قام خطيبا في بني اسرائيل وقال يا بني اسرائيل لا تكلموا
بالحكمة عند الجهال فتظلموها ولا تمنعوها اهلها فتظلموهم ولا تكافوا ظالما فيبطل
فضلكم يا بني اسرائيل الامور ثلاثة امر تبين رشده فاتبعوه وامر تبين غيه فاجتنبوه
وامر اختلفتم فيه فردوه الى الله تعالى وهذا الحديث جامع لاداب العدل والاحوال
كلها وقد قال بعض الحكما كل عقل لا يدارى به الكل فليس بعقل تام وقال بعض الشعرا

مادمت حيا فدار الناس كلهم ... فانما انت في دار المداراة

وقد يتعلق بهذه الطبقات امور خاصة يكون عدلهم فيها بالتوسط في حالتي
التقصير والسرف لان العدل ماخوذ من الاعتدال فما جاوز الاعتدال فهو خروج
عن العدل وقد قال الحكما الفضايل متوسطة بين خلتين ناقصتين وافعال الخير
متوسطة بين رذيلتين فالحكمة واسطة بين الشر والجهالة والشجاعة واسطة
بين التهجم والجبن والعفة واسطة بين الشره وضعف الشهوة والسكينة واسطة
بين السخط وضعف الغضب والغيرة واسطة بين الحسد وسو العادة والظرف
واسطة بين الخلاعة والقدامة والتواضع واسطة بين الكبر ودناة النفس والسخا
واسطة بين التقتير والتبذير والحلم واسطة بين افراط الغضب وعدمه والمودة
واسطة بين الخلابة وحسن الخلق والحيا واسطة بين القحة والحصر والوقار واسطة
بين الهزو والسخافة واذا كان ما خرج من الاعتدال الى ما ليس باعتدال
خروجا عن العدل الى ما ليس بعدل وقد قال بعض البلغا السلطان السو
يخيف البري ويصطنع الدني والبلد السو يجمع السفل ويورث العلل والولد
السو يشين السلف ويهدم الشرف والجار السو يفشي السر ويهتك الستر
فجعل هذه الاشيا بخروجها عن الاولى الى ما ليس باولى خروجا عن العدل الى ما ليس بعدل
من حالتي الزيادة والنقصان فاذا الشي انفع من العدل لانه لا شي اضر مما ليس
بعدل واما القاعدة الرابعة فهو امر عام تطمين اليه النفوس وتنتشر فيه

الهمم ويسكن اليه البري ويانس به الضعيف فليس لخايف راحة ولا لحاذر
طمانينة وقد قال بعض الحكما الامن اهنى عيش والعدل اقوى جيش ولان الخوف
يقبض الناس عن مصالحهم ويحجزهم عن تصرفهم ويكفهم عن اسباب المواد التي بها
قوام اودهم وانتظام جملتهم ولين كان الامن من نتايج العدل والجور من نتايج
ماليس بعدل فقد يكون الجور تارة بمقاصد الادميين الخارجة عن العدل وتارة
يكون باسباب حادثة من غير مقاصد الادميين فلا تكون خارجة عن العدل فمن
اجل ذلك لم يكن ماسبق من حال العدل مقنعا عن ان يكون الامن في انتظام الدنيا
قاعدة كالعدل فاذا كان كذلك فالامن المطلق ما عم والخوف قد يتنوع تارة ويعم
فتنوعه بان يكون تارة على النفس وتارة على الاهل وتارة على المال وعمومه ان يستوعب
جميع الاحوال فلكل واحد من انواعه حظ من الوهن ونصيب من الحزن وقد يختلف
باختلاف اسبابه ويتفاضل بتباين جهاته ويكون بحسب اختلاف الرغبة فيما
خيف عليه فمن اجل ذلك لم يجز ان نصف حال كل واحد من انواعه بمقدار من الوهن
ونصيب من الحزن ولاسيما فالخايف على الشي مختص الهم به منصرف الفكر عن غيره
فهو يظن ان لا خوف الا اياه ويغفل عن قدر النعمة بالامن فيما سواه فصار كالمريض
الذي هو بمرضه متشاغل وعما سواه غافل ولعل ما صرف عنه اعظم مما بلي به وانما يوكل
بالادنى وان جل ما مضى حكي ان رجلا قال لاعرابي حاضر ما اشد وجع الضرس فقال
الاعرابي كل دا لاشد دا وكذلك من عزه الامن كمن استولت عليه العافية فهو لا يعرف
قدر النعمة بامنه حتى يخاف كما لا يعرف المعافى قدر النعمة بعافيته حتى يصاب
وقد قال بعض الحكما انما يعرف قدر النعمة عند مقاساة ضدها واخذه كذا ابو تمام فقال
شعر والحادثات وان اصابك بؤسها ... فهو الذي انباك كيف نعيمها
فالاولى بالعاقل ان يتذكر عند مرضه وخوفه قدر النعمة فيما سوى ذلك من عافيته
وامنه وما انصرف عنه مما هو اشد من مرضه وخوفه ليستبدل بالشكوى شكرا وبالجزع
صبرا فيكون مسرورا فرحا وحكي ان يعقوب عليه السلام قال ليوسف عليه السلام

حين لقيه اي شي كان خبرك بعدي قال لا تسالني عما فعل بي اخوتي سلني عما صنع بي ربي
قال الشاعر لا تنس في الصحة ايام السقم ... فان عقبى تارك الحزم الندم
واما القاعدة الخامسة فهي خصب دار تتسع به الاحوال ويشترك فيه ذوا
الاكثار والاقلال فيقل في الناس الحسد وينتفي عنهم تباغض العدم وتتسع
النفوس في التوسع ويكثر المواساة والتواصل وذلك من اقوى الدواعي في صلاح
الدنيا وانتظام احوالها ولان الخصب يؤل الى الغنا والغنا يحدث الامانة والسخاء
كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى ابي موسى الاشعري لا تستقضين الا ذا حسب
ومال فان ذا الحسب يخاف العواقب وذا المال لا يرغب في مال غيره وقال بعض السلف
اني وجدت خير الدنيا والاخرة في خصلتين فخير الدنيا والاخرة في التقى والغنى
وشر الدنيا والاخرة في الفجور والفقر وقال بعض الشعرا
ولم ار بعد الدين خيرا من الغنى ... ولم ار بعد الكفر شرا من الفقر
وبحسب الغنى يكون اقلال البخيل واعطاوه واكثار الجواد وسخاوه كما قال دعبل شعر
لين كنت لا تولي يدا دون امرة ... فلست بمول نايلا اخر الدهر
واي انا لم يفض عند ملية ... واي بخيل لم ينل ساعة الوفر
واذا كان الخصب يحدث من اسباب الصلاح ما وصفت كان الجدب يحدث من
اسباب الفساد ما ضادها وكما ان صلاح الخصب عام كذلك فساد الجدب عام
وما عم به من الصلاح ان وجد وعم به من الفساد ان فقد فاحرى ان يكون من
قواعد الصلاح ودواعي الاستقامة والخصب يكون من وجهين خصب في المكاسب
وخصب في المواد فاما خصب المكاسب فقد يتفرع من خصب المواد واما خصب
المواد فقد يتفرع عن الاسباب الالهية وهو من نتايج العدل المقترن بها واما
القاعدة السادسة فهي امل فسيح يبعث على اقتنا ما يقصر العمر عن استيعابه
ويحث على انشا ما ليس يوثق في دركه بحياة اربابه ولولا ان الثاني يرتفق بما انشاه
الاول حتى يصير به مستغنيا لافتقر اهل كل عصر الى انشا ما يحتاجون اليه من منازل

السكنى واراضي الحرث في ذلك من الاعوان وتعذر الامكان ما لا خفا فيه
فلذلك ما ارفق الله خلقه باتساع الامال حتى عمرت الدنيا فعم صلاحها وصارت
تنتقل بعمارتها الى قرن بعد قرن فيتمم الثاني ما ابقاه الاول من عمارتها ويرمّ
الثالث ما احدثه الثاني من سعتها لتكون احوالها على الاعصار ملتئمة وامورها
على مرور الدهور منتظمة ولو قصرت الامال ما تجاوز الواحد حاجة يومه ولا تعدى
ضرورة وقته ولكانت تنتقل الى من بعده خرابا لا يجد فيها بلغة ولا يدرك منها
حاجة ثم تنتقل الى من بعده باسوا من ذلك حالا حتى لا ينمي لها نبت ولا يمكن فيها لبث
وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الامل رحمة من الله لامتي ولولاه
ما غرس غارس شجرا ولا ارضعت ام ولدا قال الشاعر

ولنفوس وان كانت على وجل ... من المنية امال تقويها
فالمر يبسطها والدهر يقبضها ... والنفس تنشرها والموت يطويها

فاما حال الامل في امر الاخرة فهو من اقوى الاسباب في الغفلة عنها وقلة الاستعداد
لها وقد افصح لبيد بن ربيعة مع اعرابيته بما يبين به حال الامل في الامرين قال الشاعر

واكذب النفس اذا حدثتها ... ان صدق النفس يزري بالامل
غير ان لا تكذبنها في التقى ... واجزها بالبر لله الاجل

وفرق بين الامال والاماني ان الامال ما تقيدت باسباب والاماني ما تجردت
عنها فهذه القواعد الست التي بها تصلح احوال الدنيا وتنتظم امور جملتها فان
كملت فيه كمل صلاحها وبعيد ان يكون امر الدنيا تاما كاملا وان يكون صلاحها
عاما شاملا لانها موضوعة للتغيير والفنا منشاة على التصرم والانقضا
وسمع بعض الحكما رجلا يقول قلب الله الدنيا فقال اذا تستوي لانها مقلوبة وقال
بعض الشعرا

ومن عادة الايام ان خطوبها ... اذا سر منها جانب سا جانب
ولا اعرف الايام الا ذميمة ... ولا الدهر الا وهو للثار طالب

وبحسب ما اختل من قواعدها يكون اختلالها وفسادها فصل

واما ما يصلح به حال الانسان فيها فثلاثة اشيا وهي قاعدة امره ونظام
حاله وهي نفس مطيعة الى رشدها منتهية عن غيها والفة جامعة تنعطف القلوب
عليها ويندفع المكروه بها ومادة كافية تسكن نفسه اليها ويستقيم اوده بها
فاما القاعدة الاولى التي هي نفس مطيعة فلانها اذا اطاعته ملكها واذا عصته
ملكته ولم يملكها ومن لم يملك نفسه فهو بان لا يملك غيرها احرى ومن عصته نفسه
كان بمعصية غيرها اولى وقد قال بعض الحكما لا ينبغي للعاقل ان يطلب طاعة غيره
وطاعة نفسه ممتنعة عليه قال الشاعر

اتطمع ان يطيعك قلب سعدى ... وتزعم ان قلبك قد عصاكا

وطاعة نفسه تكون من وجهين احدهما النصح والثاني انقياد فاما النصح فهو
ان ينظر الى الامور بعواقبها فيرى الرشد رشدا فيستحسنه ويرى الغي غيا
فيستقبحه وهذا يكون من صدق النفس اذا سلمت من دواعي الهوى ولذلك
قيل من تفكر ابصر واما الانقياد فهو ان تسرع الى الرشد اذا امرها وتنتهي عن
الغي اذا زجرها وهذا يكون من قبول النفس اذا كفيت منازعة الشهوات قال الله تعالى
ويريد الذين يتبعون الشهوات ان تميلوا ميلا عظيما وللنفس اداب هي من تمام
طاعتها وكمال مصلحتها قد افردنا لها في هذا الكتاب بابا واقتصرنا في هذا الموضع
على ما اقتضاه الترتيب واستدعاه التقريب واما القاعدة الثانية التي
هي الالفة الجامعة فلان الانسان مقصود بالاذية محسود بالنعمة فاذا لم يكن الفا
مالوفا تخطفته ايدي حاسديه وتحكمت فيه اهوا اعاديه فلم تسلم له نعمة ولم تصف
له مدة واذا كان الفا مالوفا انتصر بالالفة على اعاديه وامتنع بهم من حساده
فسلمت نعمته منهم وصفت مدته عنهم وان كان صفو الزمان كدرا ويسره عسرا
وسلمه خطرا وقد روى ابن جريج عن عطا عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه
قال المومن الف مالوف ولا خير فيمن لا يالف ولا يولف وخير الناس انفعهم للناس
وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الله يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا يرضى

لكم ان تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وان تعتصموا بحبله جميعا ولا تتفرقوا وان
تناصحوا من ولاه الله امركم ويكره لكم ثلاثا قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة
المال وكل ذلك حث منه على الالفة والعرب تقول من قل ذل وقال قيس بن عاصم

ان القداح اذا اجتمعن فرامها … بالكسر ذو حنق وبطش باليد
عزت فلم تكسر وان هي بددت … فالوهن والتكسير للمتبدد

واذا كانت الالفة كما ذكرت تجمع الشمل وتمنع الذل اقتضت الحال ذكر اسبابها
واسباب الالفة خمسة وهي الدين والنسب والمصاهرة والمودة والبر فاما
الدين فهو الاول من اسباب الالفة فلانه يبعث على التناصر ويمنع من التقاطع
والتدابر وبمثل ذلك وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم اصحابه فقال
لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله اخوانا لا يحل لمسلم ان يهجر
اخاه فوق ثلاثة ايام وهذا وان كان اجتماعهم في الدين يقتضيه فهو على وجه
التحذير من تذكر تراث الجاهلية واحن الضلالة فقد بعث رسول
الله صلى الله عليه وسلم والعرب اشد تقاطعا وتعاديا واكثرهم
اختلافا وتماديا حتى ان بني الاب الواحد كانوا يفترقون احزابا مختلفة فينشا
بينهم بالتحزب والافتراق احقاد الاعداء واحن البعداء وكانت الانصار اشدهم
تقاطعا وتعاديا وكان بين الاوس والخزرج من الاختلاف والتباين اكثر من
غيرهم الى ان اسلموا فذهبت احنهم وانقطعت عداوتهم وصاروا بالاسلام
اخوانا متواصلين وبالفة الدين اعوانا متناصرين قال الله تعالى واذكروا نعمة الله
عليكم اذ كنتم اعداء فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا يعني كنتم اعداء في الجاهلية
فالف بين قلوبكم بالاسلام وقال الله تعالى ان الذين امنوا وعملوا الصالحات سيجعل
لهم الرحمن ودا يعني حبا وعلى حسب التالف على الدين تكون العداوة فيه اذا
اختلف باهله فان الانسان قد يقطع في الدين من كان به برا وعليه مشفقا
هذا ابو عبيدة بن الجراح وقد كانت له المنزلة العالية في الفضل والاثر

المشهور

المشهور في الاسلام قتل اباه يوم بدر واتى براسه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم
طاعة لله ولرسوله حين بقي على ضلالته وانهمك في طغيانه فلم يعطفه عليه رحم
ولا كفه عنه اشفاق وهو من ابر الابناء تغليبا للدين على النسب ولطاعة الله تعالى
على طاعة الاب وفيه انزل الله تعالى لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الاخر يوادون
من حاد الله ورسوله ولو كانوا اباءهم او ابناءهم او اخوانهم او عشيرتهم وقد
يختلف اهل الدين على مذاهب شتى واراء مختلفة فيحدث بين المختلفين فيه من
العداوة والتباين مثل ما يحدث بين المختلفين في الاديان وعلة ذلك ان الدين
والاجتماع على العقد الواحد فيه لما كان من اقوى اسباب الالفة كان الاختلاف
فيه من اقوى اسباب الفرقة واذا تكافا اهل الاديان المختلفة والمذاهب المتباينة
ولم يكن احد الفريقين اعلى يدا واكثر عددا كانت العداوة بينهم اقوى والاحن
فيهم اعظم لانه ينضم الى عداوة الاختلاف تحاسد الاكفاء وتنافس النظراء واما
النسب وهو الثاني من اسباب الالفة فلان تعاطف الارحام وحمية القرابة
يبعثان على التناصر والالفة ويمنعان من التخاذل والفرقة انفة من استيلاء
الاباعد على الاقارب وتوقيا من تسلط الغرباء الاجانب وقد روي عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم انه قال ان الرحم اذا تماست تعاطفت ولذلك حفظت العرب
انسابها لما امتنعت به من سلطان يقهرها ويكف الاذى عنها لتكون به متظافرة على من
ناواها متناصرة على من شاقها وعاداها حتى بلغت بالفة الانساب وتناصرها من القوي
الابد وتحكمت فيه تحكم المتسلط المتشطط وقد اعذر نبي الله لوط نفسه حين
عدم عشيرة تنصره فقال لمن بعث اليه لو ان لي بكم قوة او اوي الى ركن شديد يعني
عشيرة مانعة فروى ابو سلمة عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال رحم الله لوطا لقد كان ياوي الى ركن شديد يعني الله تعالى قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم فما بعث بعده نبي الا في ثروة من قومه وقال وهب لقد وجدت الرسل على لوط
وقالوا ان ركنك لشديد وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان لا يترك الم

مفرداً حتى يضمه الى قبيلة يكون فيها كلا ذلك حثاً منه صلى الله عليه وسلم على الالفة
وكفاً عن الفرقة ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم من كثر سواد قوم فهو منهم واذا
كان النسب بهذه المنزلة من الالفة فقد تعرض له عوارض تمنع منها وتبعث على الفرقة
المنافية لها فاذا قد لزم ان نصف حال الانسان وما يعرض لها من عوارض تمنع
منها وتبعث على الفرقة المنافية لها من الاسباب وجملة الانساب انها قد تنقسم على
ثلاثة اقسام قسم والدون وقسم مولودون وقسم مناسبون ولكل صنف منهم
منزلة في البر والصلة وعارض يطرى فيبعث على العقوق والقطيعة فاما
الوالدون فهم الاباء والامهات والاجداد والجدات وهم مؤنسون مع سلامة
احوالهم بخلقين احدهما لازم بالطبع والثاني حادث باكتساب فاما ما كان لازما
بالطبع فهو الحذر والاشفاق وذلك لا ينتقل عن الوالد بحال وقد روي
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لكل شيء ثمرة وثمرة القلب الولد وروي
عنه انه قال الولد مبخلة مجهلة مجبنة محزنة فاخبر ان الحذر عليه يكسب هذه
الاوصاف ويحدث هذه الاخلاق وقد كره قوم طلب الولد كراهة لهذه
الحالة التي لا يقدر على دفعها عن نفسه للزومها طبعا وحدوثها حتما قيل
ليحيى بن زكريا عليه السلام ما بالك تكره الولد فقال مالي وللولد ان عاش كدني وان
مات هدني وقيل لعيسى بن مريم عليه السلام الا تتزوج فقال انما يحب
التكثر في دار البقاء واما ما كان حادثا باكتساب ففي المحبة التي تتنوع الاوقات
وتتغير مع تغير الحالات وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الولد
الوط علوق يعني ان حبه يلصق بنياط القلب فان انصرف الوالد عن حب
ولده فليس ذلك لبغضة منه ولكن لسلوة حدثت من عقوق او تقصير
مع بقاء الحذر والاشفاق الذي لا يزول عنه ولا ينتقل منه وقد قال محمد
ابن علي ان الله تعالى رضي الابا للابنا فحذرهم فتنتهم ولم يرضهم فلم يرض الابنا
للآبا فاوصاهم بهم وان شر الابنا من دعاه التقصير الى العقوق وشر الاباء من دعاه

بلغ

برهم خ

البر

البر الى الافراط والامهات اكثر اشفاقا واوفر حبا لما باشرن من الولادة وعانين
من التربية ولانهن ارق قلوبا والين نفوسا وبحسب ذلك وجب ان يكون التعطف
من الابنا عليهن اوفر جزا لفعلهن وكفا لحقهن وان كان الله تعالى قد اشرك بينهما
في البر وجمع بينهما في الوصية فقال تعالى ووصينا الانسان بوالديه حسنا
وقد روي ان رجلا جا الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان لي اما انا
مطيتها اقعدها على ظهري ولا اصرف عنها وجهي وارد اليها كسبي فهل جزيتها
فقال لا ولا بزفرة واحدة قال ولم قال لانها كانت تخدمك وهي تحب حياتك وانت
تخدمها وانت تحب موتها وقال الحسن البصري حق الوالد اعظم وبر الوالدة الزم
وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال نهاكم عن عقوق الامهات ووأد البنات
ومنع وهات وروى خالد بن معدان عن المقدام قال سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول ان الله تبارك وتعالى يوصيكم بامهاتكم ثم يوصيكم بامهاتكم
ثم يوصيكم بابائكم ثم يوصيكم بالاقرب فالاقرب واما المولودون فهم الاولاد
واولاد الاولاد والعرب تسمي ولد الولد الصفوة وهم مختصون مع سلامة
احوالهم بخلقين احدهما لازم والاخر منتقل فاما اللازم فهو الانفة للآبا
من تهضم او خمول والانفة في الابنا في مقابلة الاشفاق في الآبا وقد لحظ
ابو تمام الطائي الى هذا المعنى فقال

فاصبحت يلقاني الزمان واهله ... باعظام مولود واشفاق والد

فاما المنتقل فهو الادلال وهو اول حال الولد والادلال في الابنا في مقابلة
المحبة في الابا لان المحبة بالابا اخص والادلال بالابنا امس وقد روى
عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال قلت يا رسول الله ما بالنا نرق على اولادنا
ولا يرقون علينا قال لانا ولدناهم ولم يلدونا ثم ان الادلال في الابنا قد
ينتقل مع الكبر الى احد امرين اما الى البر والاعظام واما الى الجفا والعقوق
فان كان الولد رشيدا وكان الاب برا لطيفا صار الادلال برا واعظاما

الكبر والبر اليهن صح

وقد روى الزهري عن عامر بن شرحبيل ان النبي صلى الله عليه وسلم
قال لجرير بن عبد الله ان حق الوالد على الولد ان يخشع له عند الغضب ويؤثره
على نفسه عند المساغبة والنصب فان المكافي ليس بالواصل ولكن الواصل من اذا
قطعت رحمه وصلها وان كان الولد عاقا وكان الوالد جافيا صار الاولاد
قطيعة وعقوقا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم رحم الله امرءا اعان ولده على بره
وبشر عمر بن الخطاب بمولود فقال ريحانة اشمها ثم هي عن قريب ولد بار او عدو
ضار وقيل في منثور الحكم العقوق ثكل من لم يثكل وقال بعض الحكماء ابنك ريحانتك
سبعا وخادمك سبعا ووزيرك سبعا ثم هو صديق او عدو واما المناسبون
فهم ما عدا الاباء والابناء ممن يرجع بتعصيب او رحم والذي يختصون به الحمية الباعثة
على النصرة وهي ادنى رتبة من الانفة لان الانفة تمنع من التهضم والخمول معا والحمية
تمنع من التهضم وليس لها في كراهية الخمول نصيب الا ان يقترن بها ما يبعث على الالفة
وحمية المناسبين انما تدعو الى النصرة على البعداء الاجانب وهي معرضة لحسد الادانى
والاقارب موكولة الى منافسة الصاحب بالصاحب فان حرست بالتواصل والتلاطف
تاكدت اسبابها واقترنت بحمية النسب مصافاة المودة وذلك اكد اسباب الالفة
وقد قيل لبعض قريش ايما احب اليك اخوك او صديقك قال اخي اذا كان صديقي
وقال مسلمة بن عبد الملك العيش في ثلاثة سعة المنزل وكثرة الخدم وموافقة
الاهل وقال بعض الحكماء البعيد قريب بمودته والقريب بعيد بعداوته واذا
اهملت الحال بين المتناسبين ثقة بلحمة النسب واعتمادا على حمية القرابة غلب
عليها مقت الحسد ومنازعة التنافس فصارت المناسبة عداوة والقرابة
تباعدا وقال الكندي في بعض رسائله الاب رب والولد كمد والاخ فخ والعم
غم والخال وبال والاقارب عقارب وقال عبد الله بن المعتز

لحومهم لحمي وهم يأكلونه ... وما داهيات المرء الا اقاربه

ومن اجل ذلك امر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصلة الارحام واثنى على واصليها

ظ قول الكندي الخاضر

وقال تعالى والذين يصلون ما امر الله به ان يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء
الحساب قال المفسرون هي الرحم التي امر الله تعالى بوصلها ويخشون ربهم في قطعها
ويخافون سوء الحساب في المعاقبة عليها وقد روى عبد الرحمن بن عوف ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى انا الرحمن خلقت الرحم وشققت
لها اسما من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته وروي عنه صلى الله
عليه وسلم انه قال صلة الرحم منماة للعدد مثراة للمال محبة في الاهل منسأة في الاجل
وقال بعض الحكماء صلوا ارحامكم بالمعروف ولا تجفوها بالعقوق وقال بعض
البلغاء صلوا ارحامكم فانها لا تبلى عليها اصولكم ولا تهتضم عليها فروعكم وقال
بعض الادباء من لم يصلح لاهله لم يصلح لك ومن لم يذب عنهم لم يذب عنك وقال
بعض الفصحاء من وصل رحمه وصله الله تعالى ورحمه ومن اجار جاره اعانه الله
وقال محمد بن عبد الله الازدي شعرا

وحسبك من ذل وسوء صنيعة ... مناواة ذي القربى وان قيل قاطع
ولكن اواسيه وانسى ذنوبه ... لترجعه يوما علي الرواجع

وقال عبد الله بن الزبير

ولا يستوي في الحكم عبدان واصل ... وعبد لارحام القرابة قاطع

واما المصاهرة وهي الثالث من اسباب الالفة فانها استحداث مواصلة
وتمازج مناسبة صدرا عن رغبة واختيار وانعقدا عن خبرة وايثار فاجتمع فيها
اسباب الالفة ومواد المصاهرة قال الله تعالى ومن اياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا
لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة يعني بالمحبة والمودة وبالرحمة الحنو والشفقة
وهما من اكد اسباب الالفة وتاويل اخر قال الحسن البصري ان المودة النكاح
والرحمة الولد وقال تعالى والله جعل لكم من انفسكم ازواجا وجعل لكم من ازواجكم
بنين وحفدة فاختلف المفسرون في الحفدة فقال عبد الله بن مسعود هم الاختان
الرجل على بناته وقال عبد الله بن العباس هم ولد الرجل وولد ولده وحكي

فق على اختلاف اهل التفسير في الحفدة

قال محمد

عنه انهم بنو المراة الرجل من غيره وسموا حفدة لتحفدهم في الخدمة وسرعتهم في العمل ومنه قولهم في القنوت واليك نسعى ونحفد اي نسرع الى العمل بطاعتك ولم تزل العرب تجتذب البعداء وتتالف الاعداء بالمصاهرة حتى يرجع النافر مؤانسا ويصير العدو موليا بل يصير الصهر الاثنين الفة بين القبيلتين وموالاة بين العشيرتين وحكي عن خالد بن يزيد بن معوية انه قال كان ابغض خلق الله الي آل الزبير فلما تزوجت فيهم رملة فصاروا احب خلق الله الي وفيها يقول

احب بني العوام من اجل حبها ... ومن اجلها احببت اخوالها كلبا

فان تسلمي نسلم وان تتنصري ... نخط رجال بين اعينهم صلبا

ولذلك قيل المرء على دين زوجته لما يستفزه الميل اليها من المتابعة ويجتذبه الحب اليها من الموافقة فلا يجد الى المخالفة سبيلا ولا الى المباينة والمشاقة طريقا واذا صارت المصاهرة للنكاح بهذه المنزلة من الالفة فقد ينبغي بعقدها احد خمسة اوجه وهي المال والجمال والدين والالفة والتعفف روى سعيد بن ابي سعيد عن ابي هريرة رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال تنكح المراة لاربع لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها فعليك بذات الدين تربت يداك فان كان عقد النكاح لاجل المال وكان اقوى الدواعي اليه فالمال اذا هو المنكوح فان اقترن بذلك احد الاسباب الباعثة على الايتلاف جاز ان يثبت العقد وتدوم الالفة وان تجرد عن غيره من الاسباب وعرا عما سواه من المواد فاخلق بالعقد ان ينحل وبالالفة ان تتزلزل لا سيما اذا غلب الطمع وقل الوفا لان المال اذا وصل اليه فقد يقضي بمستحب الالفة به وقد قيل من ودك لامر ولى مع انقضائه وان اعوز الوصول اليه وتعذرت القدرة عليه اعقبه ذلك استهانة الاياس بعد شدة الامل فحدثت منه عداوة الجانب بعد استحكام الطمع فصارت الوصلة فرقة والالفة عداوة وقد قيل من ودك لطمع فيك ابغضك اذا ايس منك وقال عبد الحميد من اعظمك لاستقلالك استقلك عند اقلالك وان كان

انما قيل من ودك لطمع فيك ابغضك اذا ايس منك

العقد برغبة في الجمال فذاك ادوم للالفة من المال لان الجمال صفة لازمة والمال صفة زايلة ولذلك قيل حسن الصورة اول السعادة وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اعظم النساء بركة احسنهن وجها واقلهن مهرا فان سلمت الحال من الادلال المفضي الى الملل استدامت الالفة واستحكمت الوصلة وقد كانوا يكرهون الجمال البارع اما لما يحدث عنه من شدة الادلال وقد قيل من بسط الادلال قبضه الاذلال واما لما يخاف عليه من محن الرغبة وبلوى المتعرض وقد قيل ان رجلا شاور حكيما في التزويج فقال افعل واياك والجمال البارع فانه مرعى انيق قال الرجل وكيف قال لما قال الاول شعرا

ولن تصادف مرعى ممرعا ابدا ... الا وجدت به آثار منتجع

واما ما يخافه اللبيب من شدة الصبوة ويتوقاه الحازم من عواقب الفتنة فقد قال بعض الحكما اياك ومخالطة النساء فان لحظ المراة سهم ولفظها سم ورأى بعض الحكما صيادا يكلم امراة فقال يا صياد احذر ان تصاد وقال سليمان بن داود عليهما السلام لابنه امش وراء الاسد ولا تمش وراء المراة وسمع عمر بن الخطاب امراة تقول

ان النساء رياحين خلقن لكم ... وكلكم يشتهي شم الرياحين

فقال عمر رضي الله عنه

ان النساء شياطين خلقن لنا ... نعوذ بالله من شر الشياطين

وان كان العقد رغبة في الدين فهو اوثق العقود حالا وادومها الفة واحمدها بدءا وعاقبة لان طالب الدين متبع له ومن اتبع الدين انقاد له فاستقامت حاله وامن من زلله ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم فاظفر بذات الدين تربت يداك وفيه تاويلان احدهما تربت يداك ان لم تظفر بذات الدين والثاني انها كلمة تذكر للمبالغة ولا يراد بها سوء كقولهم ما اشجعه قاتله الله وان كان العقد رغبة في الالفة فهذا يكون على احد وجهين اما ان يقصد به المكاثرة باجتماع الفريقين والمظافرة بتناصر الفيتين واما ان يقصد به تالف احد المستطيلين استكفافا لعاديتهم وتسكينا

المعاقل

لصولتهم وهذان الوجهان قد يكونان في الاماثل واهل المنازل وداعي الوجه
الاول هو الرغبة وداعي الوجه الثاني هو الرهبة وهما سببان في غير المتناكحين فان
استدام السبب دامت الالفة وان زال السبب بزوال الرغبة والرهبة
خيف زوال الالفة الا ان ينضم اليها احد الاسباب الباعثة عليها والمقوية
لها فان كان العقد رغبة في التعفف فهو الوجه الحقيقي المبتغى بعقد النكاح
وما سواه فاسباب متعلقة عليه او مضافة اليه وروي انه لما نزل قوله
تعالى يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها
قال النبي صلى الله عليه وسلم خلق الرجل من التراب فهمته في التراب وخلقت المراة
من الرجل فهمها في الرجل وروي عطية بن بشر عن عكاف بن وداعة الهلالي
ان النبي صلى الله عليه وسلم قال يا عكاف الك زوجة قال لا قال فانت اذا
من اخوان الشيطان ان كنت من رهبان النصارى فالحق بهم وان كنت منا فمن سنتنا
النكاح فكان هذا القول منه حثا على التعفف من الفساد وباعثا على طلب
المكاثرة بالاولاد ولهذا المعنى كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول للقفال من غزوهم
اذا افضيتم الى نسايكم فالكيس الكيس يعني من طلب الولد فلزم حينيذ في عقد
التعفف تحكيم الاختيار فيه والتماس الادوم من دواعيه وهي نوعان نوع يمكن
حصر شروطه ونوع لا يمكن حصر شروطه لاختلاف اسبابه وتغاير شروطه فاما
الشروط المحصورة فيه فثلاثة شروط احدها الدين المفضي الى الستر والعفاف
المودي الى القناعة والكفاف قال ابو هريرة رضي الله عنه لا يفرك مومن مومنة
وان كره منها خلقا رضي خلقا وخطب رجل من عبد الله بن عباس يتيمة كانت
عنده فقال لا ارضاها لك قال لم وفي دارك نشات قال انها تتشرف قال لا ابالي
قال الآن لا ارضاك لها وفي معنى هذا قول بعض الحكماء من رضي بصحبة من لا خير
فيه لم يرض بصحبته من فيه خير الشرط الثاني العقل الباعث على حسن
التقدير والامر بصواب التدبير فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم

في بيان قول بعض الحكما

انه

انه قال العقل حيث كان الوف مالوف وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال عليكم بالودود الولود ولا تنكحوا الحمقا فان صحبتها بلاء وولدها
ضياع والشرط الثالث الاكفا الذين يتقى بهم العار ويحصل بهم الاستكثار
فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال تخيروا لنطفكم ولا تضعوها
الا في الاكفا وقال اكثم بن صيفي لولده يا بني لا يحملنكم جمال النسا عن صراحة
النسب فان المناكح الليمة مدرجة للشرف وقال ابن الاسود الديلي لبنيه قد
احسنت اليكم صغارا وكبارا وقبل ان تولدوا قالوا وكيف احسنت
الينا قبل ان نولد قال اخترت لكم من الامهات ما لا تسبون بها وانشد الرياشي

واول احساني اليكم تخيري ... لماجدة الاعراق باد عفافها

وقد ينضم الى هذه الشروط من صفات الذات واحوال النفس ما يلزم
التحرز منه لتعذر الخير عنه وقلة الرشد فيه فان كوامن الاخلاق بادية
في الاشكال والصور كالذي روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لزيد
ابن حارثة اتزوجت يا زيد قال لا قال تزوج تستعفف مع عفتك ولا تزوج
من النسا خمسا قال وما هن يا رسول الله قال لا تزوج شهبرة ولا لهبرة ولا نهبرة
ولا هيدرة ولا لفوتا قال يا رسول الله لا اعرف فيما قلت شيئا قال اما الشهبرة
فالزرقا البذية واما اللهبرة فالطويلة المهزولة واما النهبرة فالعجوز المدبرة
واما الهيدرة فالقصيرة الذميمة واما اللفوت فذات الولد من غيرك وقال
شيخ من بني سليم لابنه يا بني اياك والرقوب الغضوب القطوب الرقوب والرقوب
هي التي تراقبه ان يموت فتاخذ ماله واوصى بعض الاعراب ابنا له في التزويج
فقال اياك والحنانة والمنانة والانانة فالحنانة التي تحن الى زوج كان لها والمنانة
التي تمن على زوجها بما لها والانانة التي تان كسلا وتمارضا وقال اوس بن دلهم
النسا اربع فمنهن معمع لها شيها اجمع ومنهن تبع ولا تنفع ومنهن صدع تفرق ولا تجمع
ومنهن غيث وقع ببلد فامرع قال الشاعر

انظر قول النبي صلى الله عليه وسلم لزيد اتزوجت وامره ونهيه عن النسا

ارى صاحب النسوان يحسبها انها … سوا وبون بينهن بعيد
فمنهن جنات يفي ظلالها … ومنهن نيران لهن وقود

وقال اخر

ان النسا كاشجار نبتن معا … منهن مر وبعض المر ماكول
ان النسا ولو صورن من ذهب … فيهن من هفوات الجهل تخييل
ان النسا متى ينهين عن خلق … فانه واجب لا بد مفعول
وما وعدنك من شر وفين به … وما وعدنك من خير فمطول

فاما النوع الاخر فهو ما لا يمكن حصر شروطه لانه قد يختلف باختلاف الاحوال
وينتقل بتنقل الانسان والازمان فانه لا يستغني فيه عن موافقة النفس ومنافعة
الشهوة ليكون ادوم لحال الالفة وامد لاسباب الوصلة فان الراي المعلول
لا يبقى على علته والميل المدخول لا يبقى على دخله ولا بد ان ينتقل الى احدى حالتين
اما الى الزيادة والكمال واما الى النقصان والزوال حكي ان رجلا قال لعلي
ابن ابي طالب كرم الله وجهه اني احبك واحب معويه فقال اما الان فانت اعور
فاما ان تبرى واما ان تعمى واذا كان كذلك فلا بد من كشف السبب الباعث على هذا
النوع فانه لا يخلو من ثلاثة احوال احدها ان يكون لطلب الولد فالمحمد فيه التماس
الحداثة والبكارة لانهما اخص بالولادة وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال عليكم بالابكار فانهن اعذب افواها وانتق ارحاما وارضا باليسير ومعنى
قوله انتق ارحاما اي اكثر اولادا وقال معاذ بن جبل عليكم بالابكار فانهن اكثر حبا
واقل خبا وهذه الحالة هي اولى الاحوال الثلاث لان النكاح موضوع لها والشرع
وارد بها وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال سودا ولود خير من حسنا
عاقر والعرب تقول من لم تلد فلا ولد وكانوا يختارون لمثل هذا الحال انكاح
البعدا الاجانب ويرون ذلك انجب للولد وانهى لخلقه ويجتنبون نكاح الاهل
والاقارب ويرونه مخنوا لخلق الولد بعيدا من نجابته وقد روي عن النبي صلى الله

من

عليه وسلم انه قال اغتربوا لا تضووا وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال
يا ابن السايب قد اضويتم فانكحوا في الغرايب قال الشاعر

تجاوزت بنت العم وهي عزيزة … مخافة ان يضوى علي سليل

وكان حكماء المتقدمين يرون ان انجب الاولاد خلقا وخلقا من كان سن امه
ما بين العشرين والثلاثين وسن ابيه ما بين الثلاثين والخمسين والعرب تقول
ان ولد الغيرى لا ينجب وان انجب النسا العروك لان الرجل يعليها على الستر لزهدها
في الرجل وقالوا ان الرجل اذا اكره المراة وهي مذعورة ثم اذكرت انجبت والحالة
الثانية ان يكون المقصود به القيام بما يتولاه النسا من امور المنزل وتدبير الاسباب
فهذا وان كان مختصا بمعاناة النسا فليست الزوم حالتي الزوجات لانه قد يجوز ان يتعاناه
غيرهن من النسا ولذلك قيل المراة ريحانة وليست بقهرمانة وليس في هذا المقصد تاثير
في دين ولا قدح في مروة والاحمد في مثل هذا التماس ذوي الاسنان والحنكة ممن
قد خبر تدبير المنازل وعرف عادات الرجال فانهن اقوم بهذه الحال والحال الثالث
ان يكون المقصود به الاستمتاع وهي اذم الاحوال الثلاثة واوهنها للمروة لانه ينقاد
للاخلاق البهيمية ويتابع شهوته الذميمة وقد قال الحارث بن النضر الاسدي
شر النكاح نكاح الغلمة الا ان يفعل ذلك لكسر الشهوة وقهرها بالاضعاف لها عند الغلبة
او تسكين النفس عند المنازعة حتى لا تطمح له عين لريبة ولا تنازعه نفس الى فجور
فلا يلحقه في ذلك ذم ولا يناله وصم وهو بالحمد اجدر وبالثنا احق ولو تنزه
في مثل هذه الحال عن استبدال الحراير الى الاما كان اكمل لمروته وابلغ في صيانته
وهذه الحال تقف على شهوات النفس لا يمكن ان يرجح فيها اولى الامور ثم هي اخطر
الاحوال بالمنكوحة لان للشهوات غايات متناهية يزول بزوالها ما كان
متعلقا بها فتصير الشهوة في الابتدا كراهية في الانتها ولذلك كرهت العرب
البنات وادمتهن اشفاقا عليهن وحمية لهن من ان يبتذلهن اللئام بمثل هذا
الحال وكان من تحوب من قبل البنات لرقة او محبة كان موتهن احب اليه

وانه عنده خطب الى عقيل بن علفة ابنته الجربا فقال

اني وان سيق الى المهر ... الف مهران وذود عشر
احب اصهاري الى القبر

وقال عبد الله بن طاهر

لكل ابي بنت يراعي شؤونها ... ثلاثة اصهار اذا حمد الصهر
فبعل يراعيها وخدر يكنها ... وقبر يواريها وخيرهم القبر

فصل واما المواخاة بالمودة وهي الرابع من اسباب الالفة فلانها تكسب بصادق الميل اخلاصا ومصافاة وتحدث بخلوص المصافاة وفاء ومحاماة وهذا اعلى مراتب الالفة ولذلك آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين اصحابه لتزيد الفتهم ويقوى تظافرهم وتناصرهم وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال عليكم باخوان الصدق فانهم زينة في الرخا وعصمة في البلا وروى ابن الزبير عن سهل بن سعد ان النبي صلى الله عليه وسلم قال المرء كثير باخيه ولا خير في صحبة من لا يرى لك من الحق مثل ما ترى له وقال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه لقاء الاخوان جلاء الاحزان وقال خالد بن صفوان ان اعجز الناس من قصر في طلب الاخوان واعجز منه من ضيع من ظفر به منهم وقال علي كرم الله وجهه لابنه الحسن يا بني الغريب من ليس له حبيب وقال ابن المعتز من اتخذ اخوانا كانوا له اعوانا وقال بعض الادبا افضل الذخاير اخ وفي وقال بعض البلغا صديق مساعد عضد وساعد وقال اخر بحسن تشاكل الاخوان يثبت التواصل وقال الشاعر

هموم رجال في امور كثيرة ... وهمي من الدنيا صديق مساعد
نكون كروح بين جسمين قسمت ... فجسماهما جسمان والروح واحد

وقيل انما سمي الصديق صديقا لصدقه والعدو عدوا لعدوه عليك وقال ثعلب انما سمي الخليل خليلا لان محبته تتخلل القلب فلا تدع فيه خللا الا ملاته وانشد قول بشار

قد تخللت مسلك الروح مني ... وبه سمي الخليل خليلا

والمواخاة في الناس قد تكون من وجهين احدهما مكتسبة بالاتفاق الجاري مجرى الاضطرار والثاني مكتسبة بالقصد والاختيار فاما المكتسبة بالاتفاق فهي اوكد حالا لانها تنعقد عن اسباب تقود اليها والمكتسبة بالقصد تنعقد لها اسباب تنقاد اليها وما كان حادثا بالطبع فهو الزم مما هو حادث بالقصد ونحن نبدا بالوجه الاول المكتسب بالاتفاق ثم نعقبه بالوجه الثاني المكتسب بالقصد اما المكتسب بالاتفاق فله اسباب يبتدي [illegible] ثم ينتقل في غاية لحواله المحدودة الى مراتب سبع ربما استكملهن وربما وقف على بعضهن ولكل مرتبة في ذلك حكم خاص وسبب موجب كما قال الشاعر

فما هو الا سبب ... يبتدا منه ويتشعب

فاول اسباب الاخا التجانس في حال يجتمعان فيها وياتلفان بها فان قوي التجانس قوي الايتلاف به وان ضعف كان ضعيفا به ما لم يحدث علة اخرى يقوى بها الايتلاف وانما كان كذلك لان الايتلاف بالتشاكل والتشاكل بالتجانس فاذا عدم التجانس من وجه انتفى التشاكل من كل وجه ومع انتفاء التشاكل يعدم الايتلاف فثبت ان التجانس وان تنوع اصل الاخا وقاعدة الايتلاف وقد روى يحيى بن سعيد عن ابن عمرة عن عايشة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ايتلف وما تناكر منها اختلف وهذا واضح وهي بالتجانس متعارفة وبفقده متناكرة وقد قيل في منثور الحكم الاضداد لا تتفق والاشكال لا تفترق وقال بعض الحكما بحسن تشاكل الاخوان يثبت التواصل قال بعضهم

فلا تحتقرن نفسي وانت خليلها ... فكل امرئ يصبو الى من يجانس

وقال اخر

[illegible] قالوا اخ من قرابة ... فقلت لهم ان الشكول اقارب
نسيبي في رايي وعزمي وهمتي ... وان فرقتنا في الاصول المناسب

ثم يحدث التجانس المواصلة بين المتجانسين وهي الرتبة الثانية من رتب الاخا

وسبب المواصلة بينهما وجود الاتفاق فصارت المواصلة نتيجة التجانس والتسبب
فيه وجود الاتفاق منهما لان عدم الاتفاق سنفر وقال الشاعر

الناس ان وافقتهم عذب الوا ... او لا فان جناهم مر
كم من رياض لا انيس بها ... تركت لان طريقها وعر

ثم يحدث عن المواصلة رتبة ثالثة وهي المؤانسة وسببها الانبساط ثم يحدث عن
المؤانسة رتبة رابعة وهي المصافاة وسببها خلوص النية ثم يحدث عن المصافاة
رتبة خامسة وهي المودة وسببها الثقة وهذه الرتبة هي ادنى الكمال في احوال
الاخاء وما قبلها اسباب تقود اليها فان اقترن بها المعاضدة وهي الصداقة ثم يحدث
عن المودة رتبة سادسة وهي المحبة وسببها الاستحسان فان كان ذلك الاستحسان
لفضايل النفس حدثت منه رتبة سابعة وهي الاعظام وان كان الاستحسان
للصورة والحركة حدثت منه رتبة ثامنة وهي العشق وسببه الطمع وقد
قال المامون اول العشق مزاح وولع ثم يزداد اذا زاد الطمع ...
كل من يهوا وان غالت به ... رتبة الملك لمن يهوى تبع

وهذه الرتبة هي آخر الرتب المحدودة وليس لما جاوزها رتبة مقدرة ولا حالة
محدودة لانها قد تؤول الى ممازجة النفوس وان تميزت ذواتها وتفضي الى
مخالطة الارواح وان تفارقت اجسادها فهذه حال لا يمكن حصر غايتها ولا الوقوف
عند نهايتها وقد قال الكندي الصديق انسان هو انت الا انه غيرك ومثل هذا
القول يحكى عن ابي بكر الصديق رضي الله عنه في عمر حين اقطع طلحة بن عبيد الله
ارضا وكتب له بها كتابا واشهد فيه اناسا منهم عمر فاتى طلحة بكتابه الى عمر ليختمه
فامتنع عليه فرجع طلحة مغضبا الى ابي بكر وقال والله ما ادري انت الخليفة
ام عمر فقال بل عمر لكنه انا واما المكتسبة بالقصد فلا بد لها من داع يدعو اليها وباعث
يبعث عليها وذلك من وجهين رغبة وفاقة فاما الرغبة فهو ان تظهر من الانسان
فضايل تبعث على اخايه وتوسم بجميل يدعو الى اصطفايه وهذه الحالة اقوى

من

من الحث بعدها لظهور الصفات المطلوبة من غير تكلف لطلبها فانما يخاف عليها
من الاغترار بالتصنع لها فليس كل من اظهر الخير كان من اهله ولا كل من تخلق بالحسنى
كان في طبعه والمتكلف للشيء مناف له الا ان يدوم عليه مستحسنا له في العقل او متدينا
به في الشرع فيصير متطبعا به لا مطبوعا عليه لانه قد تقدم من قول الحكما ليس في الطبع
ان يكون ما ليس في الطبع ثم اقول في المتعذر ان تكون اخلاق الفاضل كاملة بالطبع
واما الاغلب ان يكون بعض فضايله بالطبع وبعضها بالتطبع الجاري بالعادة
مجرى الطبع حتى يصير ما تطبع به في العادة اغلب عليه مما كان مطبوعا عليه اذا
خالف العادة ولذلك قيل العادة طبع ثان وقد قال ابن الرومي اعلم بان الناس
من طينة يصدق في الثلب لها الثالب ... لولا علاج الناس اخلاقهم ... اذا لفاح الحما اللازب
واما الفاقة فهو ان يفتقر الانسان لوحشة انفراده ومهانة وحدته الى اصطفاء
من يانس بمولاته ويثق بنصرته وموالاته وقد قالت الحكما من لم يرغب في ثلاث
بلي بست من لم يرغب في الاخوان بلي بالعداوة والخذلان ومن لم يرغب في السلامة
بلي بالشدايد والامتهان ومن لم يرغب في المعروف بلي بالندامة والخسران ولعمري
ان اخوان الصدق من انفس الذخاير وافضل العدد لانهم شفا النفوس
واولياء النوايب وقد قالت الحكما رب صديق اود من شفيق وقيل لمعاوية
اي الناس احب اليك قال صديق يحببني الى الناس وقال الشاعر

مودة من يحبك مخلصا ... خير من الرحم القريب الكاشح

وقال آخر

يخونك ذو القربى مرارا وربما ... وفى لك عند العهد من لا تناسبه

فاذا عزم على اصطفاء الاخوان سبر احوالهم قبل اخايهم وكشف عن اخلاقهم قبل
اصطفايهم لما تقدم من قول الحكما اسبر تخبر ولا تبعثه الوحدة على الاقدام قبل الخبرة ولا
حسن الظن على الاغترار بالتصنع فان الملق مصايد العقول والنفاق تدليس الفطن
وهما سجية المتصنع وليس فيمن يكون النفاق والملق بعض سجاياه خير يرجا ولا صلاح يومل

ولذلك قالت الحكما اعرف الرجل من فعله لا من كلامه • واعرف محبته من عينه لا من لسانه
وقال خالد بن صفوان انما نفقت على اخواني لاني لم استعمل معهم النفاق ولا قصرت
بهم عن الاستحقاق • وقال حماد عجرد

كم من اخ لك ليس تنكره • ما دمت من دنياك في يسر
متصنع لك في مودته • يلقاك بالترحيب والبشر
فاذا عدا والدهر ذو غير • دهر عليك غدا مع الدهر
فارفض باجمال مودته • يقلي المقل ويعشق المثري
وعليك من حالاه واحدة • في العسر ايما كنت واليسر

على ان الانسان موسوم بسيما من قارب • ومنسوب اليه افاعيل من صاحب • وقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم المرء مع من احب • وقال علي كرم الله وجهه الصاحب
مناسب • وقال عبد الله بن مسعود ما شي ادل على شي ولا الدخان على النار
من الصاحب على الصاحب • وقال بعض الحكما اعرف اخاك باخيه قبلك • وقال
بعض الادبا يظن بالمرء ما يظن بقرينه • وقال عدي بن زيد

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه • فكل قرين بالمقارن يقتدي

فلزم من هذا الوجه ايضا ان يتحرز من اخلاء السوء • ويجانب صحبة اهل الريب
ليكون موفور العرض سليم الغيب • فلا يلزم بلا ئمة غيره • ولهذا قيل التثبت والاناة
ومداومة الاختبار • والابتدا متعذر بل معوز • وقد ضرب ذو الرومة مثلا
بالنائيين حسن ظاهره وخبث باطنه • فقال

الم تر ان الما يخبث طعمه • وان كان لون الما ابيض صافيا

ونظر بعض الحكما الى رجل سوء حسن الوجه فقال اما البيت فحسن واما الساكن
فردي • فاخذ جحظة هذا المعنى فقال شعرا

رب ما بين التباين فيه • منزل عامر وعقل خراب

ثم قد تقدم من قول الحكما من لم يقدم الامتحان قبل الثقة • والثقة قبل الانس اثمرت

مودته ندما • وقال بعض البلغا مصارمة قبل اختبار افضل من مواخاة على اغترار
وقال بعض الادبا لا تثق بالصديق قبل الخبرة • ولا توقع بالعدو قبل القدرة • وانشد بعض الادبا

لا تركنن الى ذي منظر حسن • فرب رايقة قد سا مخبرها
ما كل اصفر دينار لصفرته • صفر العقارب اردها وانكرها

وقال بعض الشعرا

لا تحمدن امرء حتى تجربه • ولا تذمنه من غير تجريب
فحمدك المرء ما لم تبله خطاء • وذمك المرء بعد الحمد تكذيب

واذا قد لزم من هذين الوجهين سبر الاخوان قبل اخائهم وخبرة اخلاقهم
قبل اصطفائهم • فالخصال المعتبرة في اخائهم بعد المجانسة التي هي اصل
الاتفاق اربع خصال الاولى عقل موفور يهدي الى مراشد الامور • فان الحمق
لا تثبت معه مودة • ولا تدوم لصاحبه استقامة • وقد روي عن النبي صلى الله
عليه وسلم انه قال البذا لوم وصحبة الاحمق شوم • وقال بعض الحكما عداوة
العاقل اقل ضررا من مودة الجاهل الاحمق • وربما ضر وهو يقدر ان ينفع • والعاقل
لا يتجاوز الحد في مضرته فمضرته لها حد يقف به عليه العقل • ومضرة الجاهل ليست
بذات حد فالمحدود اقل ضررا مما هو غير محدود • وقال المنصور للمسيب
ابن زهير ما مادة العقل قال مجالسة العقلا • وقال بعض البلغا من الجهل
صحبة ذوي الجهل • ومن المحال مجادلة ذوي المحال • وقال بعض الادبا من اشار
اليك باصطناع جاهل او عاجز لم يخل ان يكون صديقا جاهلا او عدوا عاقلا
لانه يشير بما يضرك • ويحتال فيما يصنع بك • وقال الشاعر

اذا ما كنت متخذا خليلا • فلا تثق بكل اخي اخاء
فان خيرت بينهم فالصق • باهل العقل منهم والحياء
فان العقل ليس له اذا ما • تفاضلت الفضائل من كفاء

والخصلة الثانية الدين الواقف بصاحبه على الخيرات فان تارك الدين

عدو نفسه فكيف يرجى منه مودة غيره وقال بعض الحكما اصطف من الاخوان
ذا الدين والحسب والراي والادب فانهم ردُكم عند حاجتك ويد عند نايبتك
وانس عند وحشتك وزين عند عاقبتك وقال حسان بن ثابت الانصاري

اخلا الرخا هم كثير ... ولكن في البلا هم قليل
فلا يغررك خلة من تواخي ... فما لك عند نايبة خليل
وكل اخ يقول انا وفي ... ولكن ليس يفعل ما يقول
سوا خل له حسب ودين ... فذاك لما يقول هو الفعول

ولاخر في معناه

من لم تكن في الله خلته ... فخليله منه على خطر

والخصلة الثالثة ان يكون محمود الاخلاق مرضي الافعال موثرا للخير
امرا به كارها للشر ناهيا عنه فان مودة الشرير تكسب الاعدا وتفسد الاخلاق
ولا خير في مودة تجلب عداوة وتورث مذمة وملامة فان المتبوع تابع صاحبه
وقال عبد الله بن المعتز اخوان الشر كشجر النار ياكل بعضه بعضا وقال بعض
الحكما مخالطة الاشرار خطر والصبر على صحبتهم كركوب البحر من سلم منه سلم بدنه
من التلف فيه لم يسلم بقلبه من الحذر منه وقال بعض البلغا صحبة الاشرار
تورث سو الظن بالاخيار وقال اخر ان من خير الاختيار صحبة الاخيار
ومن شر الاختيار صحبة الاشرار وقال بعض الشعرا شعرا

مجالسة السفيه سفاه راي ... ومن عقل مجالسة الحليم
فانك والقرين معا سوا ... كما قد الاديم من الاديم

والخصلة الرابعة ان يكون من كل واحد منهما ميل الى صاحبه ورغبة
في مواخاته فان ذلك اوكد لحال المواخاة واحمد لاسباب المصافاة اذ ليس كل مطلوب
اليه طالب ولا كل مرغوب اليه راغب ومن طلب مودة ممتنع عليه ورغب
الى زاهد فيه كان معنى خايبا كما قال البحتري شعرا

وطلبت

وطلبت منك مودة لم اعطها ... ان المعنى طالب لم يظفر

وقال العباس بن الاحنف شعرا

فان كان لا يدنيك الا شفاعة ... فلا خير في ود يكون بشافع
واقسم ما تركي عتابك عن قلا ... ولكن لعلمي انه غير نافع
واني اذا لم الزم الصبر طايعا ... فلا بد منه كارها غير طايع

واذا استكملت هذه الخصال في انسان وجب اخاوه وتعين اصطفاوه وبحسب
وفورها فيه يجب ان يكون الميل اليه والثقة به وبحسب ما ترى من غلبة احداها
عليه يجعله مستعملا في الخلق الغالب عليه فان الاخوان على طبقات مختلفة واحوال
متشعبة ولكل واحد منهم حال يختص بها في المشاركة وثلمة يسدها في الموازرة والمصافاة
وليس تتفق احوال جميعهم على حد واحد لان التباين في الناس غالب واختلافهم
في الشيم ظاهر وقال بعض الحكما الرجال كالشجر شرابه واحد وثمره مختلف
فاخذ هذا المعنى منصور بن اسماعيل الفقيه فقال

بنوا ادم كالنبت ... ونبت الارض الوان
فمنه شجر الصندل ... والكافور والبان
ومنه شجر افضل ... ما يحمل قطران

ومن رام اخوانا تتفق احوال جميعهم رام امرا متعذرا بل لو اتفقوا لكان ربما
وقع به خلل في نظامه اذ ليس الواحد من الاخوان يمكن الاستعانة به في كل حال
ولا المجبولون على الخلق الواحد يمكن ان يتصرفوا في جميع الاعمال وانما بالاختلاف
يكون الايتلاف وقد قال بعض الحكما ليس بلبيب من لم يعاشر من لم يجد
بدا من معاشرته وقال المامون الاخوان ثلاث طبقات طبقة كالغذا لا يستغنى
عنه وطبقة كالدوا يحتاج اليه احيانا وطبقة كالدا لا يحتاج اليه ابدا ولعمري
الناس على ما وصفهم المامون وليس من كان منهم كالدا من الاخوان المعدودين بل
هم من الاعدا المحذورين وانما يدعون بالمواخاة استكفافا لشرهم وتحرزا

من مكاشفتهم فدخلوا في عداد الاخوان بالمظاهرة والمساترة وفي الاعدا عند المكاشفة والمجاهدة. قال بعض الحكما مثل العدو الضاحك اليك كالحنظلة الخضرة اوراقها القاتل مذاقها. وقد قيل في حكم الفرس لا تغتر بمقاربة العدو فانه كالما ان اطيل اسخانه بالنار لم يمنع من اطفايها. وقال يزيد بن الحكم الثقفي شعرا

تكاشرني كرها كانك ناصح ... وعينك تبدي ان صدرك لي دوي
لسانك معسول ونفسك علقم ... وشرك مبسوط وخيرك ملتوي
فليت كفافا كان خيرك كله ... وشرك عني ما ارتوى الما مرتوي

واذا خرج من كان كالدا من اعداد الاخوان فالاخوان هم الصنفان الاخران من كان منهم كالغذا وكالدوا لان الغذا قوام النفس وحياتها والدوا علاجها وصلاحها وافضلها من كان كالغذا لان الحاجة اليه اعم. واذا تميز الاخوان وجب ان ينزل كل واحد منهم حيث تنزلت به احواله اليه واستقرت خلاله وخصاله عليه من تقوية اسبابه وتقوية الثقة به وبحسب الثقة به يكون الركون اليه والتعويل عليه. قال الشاعر

ما انت بالسبب الضعيف وانما ... نجح الامور بقوة الاسباب
فاليوم حاجتنا اليك وانما ... يدعى الطبيب لشدة الاوصاب

وقد اختلف مذاهب الناس في اتخاذ الاخوان فمنهم من يرى ان الاستكثار منهم اولى ليكونوا اقوى سعة ويدا واوفر تحببا وتوددا واكثر تعاونا وتعقدا. وقيل لبعض الحكما ما العيش فقال اقبال الزمان وعز السلطان وكثرة الاخوان. وقد قيل حلية المرء كثرة اخوانه. ومنهم من يرى ان الاقلال منهم اولى لانه اخف انتقالا وكلفا واقل تنازعا وخلفا. وقد قال الاسكندر المستكثر من الاخوان من غير اختياره كالمستوقر من الحجارة والمقل من الاخوان المتخير لهم كالذي يتخير الجوهر. قال عمرو بن العاص من كثر اخوانه كثر غرماوه. وقال ابراهيم بن العباس مثل الاخوان كالنار قليلها متاع وكثيرها بوار. ولقد احسن الرومي في هذا المعنى ونبه على العلة حيث يقول شعرا

عدوك من صديقك مستفاد ... فلا تستكثرن من الصحاب

فان الدا اكثر ما تراه ... يكون من الطعام او الشراب
فدع عنك الكثير فكم كثير ... يعاف وكم قليل مستطاب
اذا انقلب الصديق غدا عدوا ... مبينا والامور لها انقلاب
فما اللجج الملاح بمرويات ... وتلقى الري في النطف العذاب

وقال بعض البلغا ليكن غرضك من اتخاذ الاخوان والاخلا واصطناع النصحا تكثير العدة لا تكثير العدة وتحصيل النفع لا تحصيل الجمع فواحد يحصل المراد خير من الف يكثر الاعداد. واذا كان التجانس والتشاكل من قواعد الاخوة واسباب المودة وكان وفور العقل وظهور الفضل يقتضي من حال صاحبه قلة اخوانه لانه يروم مثله ويطلب شكله وامثاله من ذوي العقل والفضل اقل من انداده من ذوي الحمق والنقص لان الخيار في كل جنس هو الاقل فلذلك قل ذوو العقل والفضل. وقد قال الله تعالى ان الذين ينادونك من ورا الحجرات اكثرهم لا يعقلون. فقل لهذا التعليل اخوان اهل الفضل لقلتهم وكثر اخوان ذوي النقص والجهل لكثرتهم. وقد قال في ذلك الشاعر

لكل امرئ شكل من الناس مثله ... فاكثرهم شكلا اقلهم عقلا
وكل اناس آلفون لشكلهم ... واكثرهم عقلا اقلهم شكلا
لان كثير العقل ليس بواجد ... له في طريق حين يسلكه مثلا
وكل سفيه طايش ان فقدته ... وجدت له في كل ناحية عقلا

واذا كان الامر على ما وصفنا فقد تنقسم احوال من دخل في اعداد الاخوان اربعة اقسام منهم من يعين ويستعين ومنهم من لا يعين ولا يستعين ومنهم من يستعين ولا يعين ومنهم من يعين ولا يستعين. فاما المعين المستعين فهو معاوض منصف يودي ما عليه ويستوفي ماله فهو كالمقرض يسعف عند الحاجة ويرد عند الاستغنا فهو مشكور في معونته ومعذور في استعانته وهذا اعدل حال الاخوان. واما من لا يعين ولا يستعين فهو متارك قد منع خيره وقمع شره فلا هو صديق يرجى ولا عدو

يخشى وقد قال المغيرة بن شعبة التارك للاخوان متروك ومن كان كذلك فهو كالصورة الممثلة يروعك حسنها ويخونك نفعها فلا هو مشكور لمنع خيره ولا هو مذموم لقمع شره وان كان بالذم لجدير وقال الشاعر

واسوأ ايام الفتى يوم لا ترى ... له احدا يزري عليه وينكر

غير ان فساد الوقت وتغير اهله يوجب شكر من كان شره ممنوعا وان كان خيره مقطوعا [illegible] كما قال المتنبي

انا لفي زمن ترك القبيح به ... من اكثر الناس احسان واجمال

واما من يستعين ولا يعين فهو لئيم كل ومهين مستذل قد قطع عنه الرغبة وبسط فيه الرهبة فلا خيره يرجى ولا شره يؤمن وحسبك برجل مهانة يستثقل عند اقلاله ويقل عند استقلاله فليس لمثله في الاخاء حظ ولا في الوداد نصيب وهو ممن جعله المامون من داء الاخوان لا من دوائهم ومن سمهم لا من غذائهم قال بعض الحكما شر ما في الكريم ان يمنعك خيره وخير ما في اللئيم ان يكف عنك شره قال ابن الرومي شعرا

عذرنا النخل في ابداء شوك ... يرد به الانامل عن جناه

فما للعوسج الملعون ابدا ... لنا شوكا بلا ثمر نراه

واما من يعين ولا يستعين فهو كريم الطبع مشكور الصنع قد حاز فضيلتي الابتدا والاكتفا فلا يرى ثقيلا في نائبة ولا يقعد عن نهضة في معونة فهذا اشرف الاخوان نفسا واكرمهم طبعا فينبغي لمن اوجده الزمان مثله وقل ان يكون له مثله لانه البر الكريم والدر اليتيم ان يثني عليه خنصره ويعض عليه بناجذه ويكون به اشد ضنا منه بنفايس امواله وسني ذخايره لان نفع الاخوان عام ونفع الاموال خاص وما كان اعم نفعا فهو بالادخار احق وقد قال الفرزدق

يمضي اخوك فلا تلقى له خلفا ... والمال بعد ذهاب المال مكتسب

وقال اخر

لكل شيء عدمته عوض ... وما لفقد الصديق من عوض

ثم

ثم لا ينبغي ان يزهد فيه لخلق او خلقين ينكرهما منه اذا رضي سائر اخلاقه وحمد اكثر شيمه بسايرها وحمد اكثرها فان اليسير مغفور والكمال معوز وقد قال الكندي كيف تريد من صديقك خلقا واحدا وهو ذو طباع اربع مع ان نفس الانسان التي هي اخص النفوس به ومدبرة باختياره وارادته لا تعطيه قيادها في كل ما يريد ولا تجيبه الى طاعته في كل ما يحب فكيف بنفس غيره وحسبك ان يكون لك من اخيك اكثره وقد قال ابو الدرداء معاتبة الاخ خير من فقده ومن لك باخيك كله واخذه ابو العتاهية فقال

احي من لك من بني الدنيا ... بكل اخيك من لك

فاسبق بعضك لا يملكه ... كلك ان اعطيت كلك

وقال ابو تمام الطائي

ما غبن المغبون مثل عقله ... من لك يوما باخيك كله

وقال بعض الحكما طلب الانصاف من قلة الانصاف قال بعض البلغا لا يزهدنك في رجل حمدت سيرته وارتضيت وتيرته وعرفت فضله وخبرت عقله عيب خفي تحيط به كثرة فضايله او ذنب صغير تستغفر له قوة وسايله فانك لن تجد ما بقيت مهذبا لا يكون فيه عيب ولا يقع منه ذنب واعتبر بنفسك بعد ان لا تراها بعين الرضى ولا تجري فيها على حكم الهوى فان في اعتبارك بها واختيارك لها ما يوئسك مما تطلب ويعطفك على من يذنب وقال الشاعر وقال النابغة الذبياني

ولست بمستبق اخا لا تلمه ... على شعث اي الرجال المهذب

وليس ينقض هذا القول ما وصفناه من اختياره واختبار الخصال الاربع فيه لان ما اعوز معفو عنه وهكذا لا ينبغي ان توحشه فترة يجدها منه ولا ان يسيء به الظن في نبوة تكون منه ما لم يتحقق تغيره ولم يتيقن تنكره وليصرف ذلك الى فترات النفوس واستراحات البواطن فان الانسان قد يفتر من مراعاة نفسه التي هي اخص النفوس به ولا يكون ذلك من عداوة لها ولا ملل منه وقد قال في منثور الحكم لا يفسدك الظن على صديقك وقد اصلحك اليقين له

كفى المرء نبلا ان تعد معايبه محاسن

انظر وانصف فيما قال الكندي كيف تريد من صديقك خلقا واحدا وهو ذو طباع اربع

انظر قول بعض البلغا لا يزهدنك في رجل حمدت سيرته

مو على ما اغضبتك ثلاث مرات ولم يغضبك اتخذه صاحبا

وقال جعفر بن محمد لابنه يا بني من اغضبت من اخوانك ثلاث مرات فلم يقل فيك سوءا فاتخذه لنفسك خلا وقال الحسن بن وهب من حقوق المودة اخذ عفو الاخوان والاغضاء عن تقصير ان كان وقد روي علي رضي الله عنه في قوله تعالى فاصفح الصفح الجميل قال الرضى بغير عتاب وقال ابن الرومي

هم الناس في الدنيا ولا بد من قذا ∴ يلم بعين او يكدر مشربا
ومن قلة الانصاف انك تبتغي الـ ∴ ـمهذب في الدنيا ولست مهذبا

وقال بعض الشعرا

تواصلنا على الايام باق ∴ ولكن هجرها مطر الربيع
يروعك صوبه لكن تراه ∴ على علاته دان النزوع
معاذ الله ان نلقى غضابا ∴ سوى ذل المطاع على المطيع

وانشد الازدي

لا يوحشنك من صديق نبوة ∴ ينبو الفتى وهو الجواد المكرم
فاذا ابى فاستبقه وتانه ∴ حتى تفي به الطباع الاكرم

واما الملول فهو السريع التغير الوشيك التنكر ووداده خطر واخاه غدر لانه لا يبقى على حالة ولا يخلو من استحالة وقال ابن الرومي في ذلك

اذا انا عاتبت الملول فانما ∴ اخط على جار من الما احرفا
وهبه ارعوى بعد العتاب الم تكن ∴ مودته طبعا فصارت تكلفا

وهم نوعان منهم من يكون ملله استراحة ثم يعود الى المعهود من اخايه فهذا اسلم المللين واقرب الرجلين يسامح في وقت استراحته وحين فترته ليرجع الى الحسنى ويوب الى الاخاء وان تقدم المتذمم بما نظمه الشاعر حيث يقول

وقالوا يعود الما في النهر بعدما ∴ عفت منه اثار وجفت مشاربه
فقلت الى ان يرجع الما عايدا ∴ ويعشب شطاه تموت عقاربه

لكن لا يطرح حقه بالتوهم ولا يسقط حرمته بالظنون وقال الشاعر

اذا ما حال عهد اخيك يوما ∴ وحار عن الطريق المستقيم
فلا تعجل بلومك واستدمه ∴ فان اخا الحفاظ المستديم
فان تكن زلة منه والا ∴ فلا تقعد عن الخلق الكريم

ومنهم من يكون ملله تركا واطراحا ولا يراجع اخاء ولا ودا ولا يتذكر حفاظا ولا عهدا كما قال الاشجع السلمي

اني رايت لها مواصلة ∴ كالسم يفرغه على الشهد
فاذا اخذت بعهد ذمتها ∴ لعب الصدود عليك بالعهد

وهذا اذم الرجلين حالا لان مودته من وساوس الخطرات وعوارض الشهوات وليس لاستدراك الحال معه الا بالاقلاع الخلطة وحسن المشاركة بعد الورطة كما قال العباس بن الاحنف

تداركت نفسي فعزيتها ∴ وبغضتها فبكى امالها
وما طابت النفس عن سلوة ∴ ولكن حملت عليها لها

وما شاء من هذه حالة الاكمة قال ابراهيم بن ابهرمه شعرا

فانك واطراحك وصل سلمى ∴ لاخرى في مودتها نكوب
كثاقبة لحلي مستعار ∴ باذنيها فشانهما الثقوب
فادت حلي جارتها اليها ∴ وقد بقيت باذنيها ندوب

فاذا صفت عنده اخلاق من سبره وتمهدت لديه احوال من خبره واقدم على اصطفائه اخا وعلى اتخاذه خدنا لزمته حينيذ حقوقه ووجبت عليه حرمته فقد قال عمرو بن مسعدة العبودية عبودية الاخا لا عبودية الرق وقال بعض الحكما من جاد لك بموداته فقد جعلك عديل نفسه فاول حقه اعتقاد مودته ثم ايناسه بالانبساط اليه في غير محرم ثم نصحه في السر والعلانية ثم تخفيف الانقال عنه ثم معاونته فيما ينوبه من حادثة او يناله من نكبة فان مراقبته في الظاهر نفاق وتركه في الشدة لوم وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم

انه قال خير اصحابك المعين لك على دهرك وشرهم من سعى لك بسوقٍ يومه
وقيل يا رسول الله اي الاصحاب خير قال الذي اذا ذكرت اعانك واذا نسيت
ذكرك وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه خير اخوانك من واساك وخير منه
من كفاك وكان ابو هريرة يقول اللهم اني اعوذ بك ممن لا يلتمس خالص مودتي
الا بموافقة شهوتي ومن يساعدني على سرور ساعتي ولا يفكر في حوادث
غدي وقال بعض البلغا عقود الغادر محلولة وعهوده مدخولة وقال
احزم اودك من اهلٍ وذٍّ ولا احبك من ابغض حبك وقال الشاعر

وكل اخ عند الهوينا ملاطف ... ولكنما الاخوان عند الشدائد

وقال صالح بن عبد القدوس

سوء الاخا لمن كانت مودته ... مع الزمان اذا ما خاف او رغبا
اذا وترت امرءًا فاحذر عداوته ... من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا
ان العدو وان ابدا مسالمة ... اذا راى منك يوما فرصة وثبا

وينبغي ان يتوقا الافراط في محبته فان الافراط داع الى التقصير ولان يكون
الحال بينهما نامية اولى من ان تكون متناهية وقد روى ابن سيرين عن
ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال احبب حبيبك هونا ما
عسى ان يكون بغيضك يوما ما وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يكن
حبك كلفا ولا بغضك تلفا وقال ابو الاسود الديلي

وكن معدنا للخير واصفح عن الاذى ... فانك راءٍ ما عملت وسامع
واحبب اذا احببت حبا مقاربا ... فانك لا تدري متى انت نازع
وابغض اذا ابغضت غير مباين ... فانك ما تدري متى انت راجع

وقال عدي بن زيد

ولا تامنن من مبغض قرب داره ... ولا من محب ان يمل فيبعدا

وانما يلزم من حق الاخا بذل المجهود في النصح والتناهي في رعاية ما بينهما

[Margin: في خ]
[Margin: نشر خ]
[Margin: ابغض بغيضك هونا ما عسى ان يكون حبيبك يوما ما صح]
[Margin: بغضا مقاربا خ]

من
الحق فليس في ذلك افراط وان تناها ولا مجاوزة حد وان كثر وافي وتستوي
حالاتهما في المغيب والمشهد ولان يكون مغيبهما افضل من مشهدهما اولى
فان فضل المشهد على المغيب على المشهد لوم وفضل المغيب على المشهد كرم
واستواهما حفاظ وقال الشاعر

علي لاخواني رقيب من الصفا ... تبيد الليالي وهو ليس يبيد
يذكرنيهم في مغيب ومشهد ... فسيان منهم غايب وشهيد
واني لاستحيي اخي ان ابره ... قريبا وان اجفوه وهو بعيد

وهكذا يقصد التوسط في زيارته وغشيانه غير مقلل ولا مكثر فان
تقليل الزيارة داعية الى الهجران وكثرتها سبب الملال وقد قال النبي
صلى الله عليه وسلم يا ابا هريرة زر غبا تزدد حبا وقال لبيد

توقف عن زيارة كل يوم ... اذا اكثرت ملك من تزور

وقال اخر

اقلل زيارتك الصديق ولا تطل ... هجرانه فيلج في هجرانه
ان الصديق يلج في غشيانه ... لصديقه فيمل من غشيانه
حتى تراه بعد طول سروره ... بمكانه متثاقلا بمكانه
واذا توانا عن صيانة نفسه ... رجل تنقص واستخف بشانه

وبحسب ذلك فليكف عن عتابه فان كثرة العتاب سبب للقطيعة واطراح
جميعه دليل على قلة الاكتراث بالصديق وقد قيل علة المعادات قلة
المبالاة بل يتوسط حالتي تركه وعتابه فيسامح بالمتاركة ويستصلح بالمعاتبة
فان المعاتبة والاستصلاح اذا اجتمعا لم يلبث معهما نفور ولم يبق معهما وجد
وقد قال بعض الحكما لا تكثرن معاتبة اخوانك فيهون عليهم سخطك وقال منصور
النمري شعرا

اقلل عتابك من استربت بوده ... ليست تنال مودة بعتاب

وقال بشار بن برد

اذا كنت في كل الامور معاتبا ... صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

وان انت لم تشرب مرارا على القذى ... ظمئت واي الناس تصفو مشاربه
فعش واحدا او صل اخاك فانه ... مقارف ذنب مرة ومجانبه

ثم من حق الاخوان ان تغفر هفوتهم وتستر زلتهم لان من رام بريا من الهفوات سليما من الزلات رام امرا معوزا واقترح وصفا معجزا وقد قالت الحكما اي عالم لا يهفو وصارم لا ينبو وجواد لا يكبو وقالوا من حاول صديقا يامن زلته ويدوم اغتباطه كان كضال الطريق الذي لا يزداد لنفسه اتعابا الا ازداد من غايته بعدا وقيل لخالد بن صفوان اي اخوانك احب اليك فقال من غفر زللي وقطع عللي وبلغني املي وقال بعض الشعرا

ما كدت افحص عن اخي ثقة ... الا ندمت عواقب الفحص

وانشدت عن الربيع للشافعي

احب من الاخوان كل مواتي ... وكل غضيض الطرف عن هفواتي
يوافقني في كل امر اريده ... ويحفظني حيا وبعد وفاتي
فمن لي بهذا ليت اني اصبته ... فقاسمته مالي من الحسنات
تصفحت اخواني فكان اقلهم ... على كثرة الاخوان اهل ثقات

قيل وانشد ثعلب

اذا انت لم تستقبل الامر لم تجد ... بكفيك في ادباره متعلقا
اذا انت لم تترك اخاك وزلة ... اذا زلها اوشكتما ان تفرقا

وحكى الاصمعي عن بعض الاعراب انه قال تناس مساوي الاخوان يدم لك ودهم ووصى بعض اهل الادب اخا له فقال كن للود حافظا وان لم تجد محافظا وللخل واصلا وان لم تجد مواصلا وقال رجل من اياد ليزيد بن المهلب

اذا لم تجاوز عن اخ عند زلة ... فلست غدا عن عثرتي متجاوزا
وكيف يرجيك البعيد لنفعه ... اذا كان عن مولاك خيرك عاجزا
ظلمت اخا كلفته فوق وسعه ... وهل كانت الاخوان الا غرايزا

كان
صح

وقال

وقال مسعود كاتب الرضى كنا في مجلس الرضى فشكى رجل اخاه فانشا الرضى يقول

اعذر اخاك على ذنوبه ... واستر وغط على عيوبه
واصبر على بهت السفيه ... وللزمان على خطوبه
ودع الجواب تفضلا ... وكل الظلوم على حسيبه
واعلم بان الحلم عند ... الغي احسن من ركوبه

وحكي عن بنت عبد الله بن المطيع انها قالت لزوجها طلحة بن عبد الرحمن بن عوف الزهري وكان اجود قريش في زمانه ما رايت قوما الام من اخوانك فقال لها مه ولم قلت ذلك قالت اراهم اذا ايسرت لزموك واذا اعسرت تركوك قال هذا والله من كرمهم ياتوننا في حال القوة بنا عليهم ويتركوننا في حال الضعف بنا عنهم انظر كيف تاول بكرمه هذا التاويل حتى جعل قبيح فعلهم حسنا وظاهر غدرهم وفاء وهذا الكرم ولباب الفضل وبمثل هذا يلزم ذوي الفضل ان يتاولوا الهفوات من اخوانهم

قال بعض الشعرا

اذا ما بدت من صاحب لك زلة ... فكن انت محتالا لزلته عذرا
احب الفتى ينفي الفواحش سمعه ... كان به عن كل فاحشة وقرا

والداعي الى هذا التاويل شيئان التغافل الحادث عن الفطنة والتالف الصادر عن الوفا وقال اكثم بن صيفي من تشدد نفر ومن تراخا تالف والشرف في التغافل وقال شبيب بن شيبة الاديب العاقل هو الفطن المتغافل وقال بعض الحكما وجدت اكثر امور الدنيا لا تجوز الا مع التغافل وقال ابو تمام الطاي ليس الغبي بسيد في قومه ولكن سيد قومه المتغابي وقال ابو العتاهية وهو اسماعيل بن القاسم الهاشمي

ان في صحة الاخا من الناس ... وفي صحة الوفا لقلة
جالس الناس ما استطعت على الخير ... والا لم تستقم لك خلة
عش وحيدا ان كنت لا تقبل العذر ... وان كنت لا تجاوز زله
من اب واحد وام خلقنا ... غير انا في المال اولاد علة

وفيما يتبع بهذا الفضل تالف الاعدا بما يثنيهم عن البغضة ويعطفهم على المحبة وذلك قد يكون بصنوف من البر ويختلف بحسب اختلاف الاحوال فان ذلك قد يكون من سمات الفضل وشروط السودد فانه ما احد يعدم عدوا او لا يفقد حاسدا او بحسب وفور النعمة تكثر الاعداء والحسدة قال البحتري

ولن تستبين الدهر موقع نعمة :. اذا انت لم تدلل عليها الحاسد

فان اغفل تالف الاعداء وفور النعمة وظهور الحسد فانه ربما تؤول اليه من مكر حليمهم وبادرة سفيههم ما تصير به النعمة غرما والدعة ملاما وروى ابن المسيب عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم راس العقل بعد الايمان بالله التودد الى الناس وقال سليمان بن داود عليه السلام لابنه لا تستكثرن ان يكون لك الف صديق فالالف قليل ولا تستقلن ان يكون لك عدو واحد فالواحد كثير فنظم ابن الرومي هذا المعنى فقال

تكثر من الاخوان ما استطعت انهم :. بطون اذا استنجدتهم وظهور

وليس كثيرا الف خل وصاحب :. وان عدوا واحدا لكثير

وقيل لعبد الملك بن مروان ما الذي افدت في ملكك هذا قال مودة الرجال وقال بعض الحكماء من علامة الاقبال اصطناع الرجال وقال بعض البلغاء من استصلح عدوه زاد في عدده ومن استفسد صديقه نقص من عدده وقال بعض الادباء العجب ممن يطرح عاقلا كافيا لما يتبصره من عداوته ويصطنع عاجزا جاهلا لما يظهره من محبته وهو يقدر على استصلاح من يعاديه بحسن صنايعه واياديه وقال عبد الله بن الزبير ثلاث ابيات جامعة لكل ما قالته العرب وهي هذه الابيات

بلوت الناس قرنا بعد قرن :. فلم ار غير ختال وقالي

وذقت مرارة الاشيا جميعا :. فما طعم امر من السوال

ولم ار في الخطوب اشد هولا :. واصعب من معادات الرجال

وقال القاسم التنوخي القاضي

الق العدو بوجه لا قطوب به :. يكاد يقطر من ماء البشاشات

فاحزم الناس من يلقى اعاديه :. في جسم حقد وثوب من مودات

الرفق يمن وخير القول اصدقه :. وكثرة المزح مفتاح العداوات

وانشدت عن الربيع للشافعي رحمه الله تعالى

لما عفوت ولم احقد على احد :. ارحت نفسي من هم العداوات

اني احيي عدوي عند رويته :. كانما قد حشي قلبي محبات

واظهر البشر للانسان ابغضه :. لادفع الشر عني بالتحيات

الناس دا ودوا الناس قربهم :. وفي اعتزالهم قطع المودات

وليس وان كان بتالف الاعدا مامورا والى مقاربتهم مندوبا ينبغي له ان يكون اليهم ركونا وبهم واثقا بل يكون منهم على حذر ومن مكرهم على تحرز فان العداوة اذا استحكمت في الطباع صارت طبعا لا يستحيل وجبلة لا تزول وانما يستكف بالتالف اظهارها ويستدفع به اضرارها كالنار يستدفع بالماء احراقها ويستفاد به انضاجها وان كانت محرقة بطبع لا يزول وجوهر لا يتغير وقد قال ابن نباته

واذا عجزت عن العدو فداره :. وامزج له ان المزاج وفاق

فالنار بالماء الذي هو ضدها :. تعطي النضاج وطبعها الاحراق

فصل واما البر وهو الخامس من اسباب الالفة فلانه يوصل الى القلوب الطافا ويثنيها محبة وانعطافا ولذلك ندب الله تعالى الى التعاون به وقرنه بالتقوى فقال وتعاونوا على البر والتقوى لان في التقوى رضى الله وفي البر رضى الناس ومن جمع بين رضى الله ورضى الناس فقد تمت سعادته وعمت نعمته وروى الاعمش عن خيثمة عن ابن مسعود قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم جبلت القلوب على حب من احسن اليها وجبلت القلوب على بغض

من اسا اليها وحكي ان الله تعالى اوحى الى داود عليه السلام ذكر عبادي
احساني اليهم فان عبادي لا يحبون الا من احسن اليهم فانشدني ابو الحسن بن الحارث البليغ
الناس كلهم عيال الله تحت ظلاله • فاحبهم طرا اليه ابرهم بعياله •
والبر نوعان صلة ومعروف فاما الصلة فهي التبرع ببذل المال
في جهات محمودة لغير عوض مطلوب وهذا يبعث عليه سماحة النفس وسخاوها
ويمنع منه شحها واباوها قال تعالى ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون
وروى محمد بن ابراهيم التيمي عن عروة بن الزبير عن النبي صلى الله عليه وسلم
السخي قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار والبخيل بعيد من الله
بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار وقال صلى الله عليه وسلم لعدي
ابن حاتم الطاي دفع الله عن ابيك العذاب الشديد لسخاء نفسه وبلغه عن الزبير
امساك فجذب عمامته اليه وقال يا زبير انا رسول الله اليك والى غيرك يقول
انفق عليك انفق ولا توك فاوك عليك وروى ابو الدردا قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم ما من يوم غربت فيه شمسه الا وملكان يناديان اللهم
اعط لكل منفق خلفا ولممسك تلفا فانزل في ذلك القران فاما من اعطى واتقى
وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى
فسنيسره للعسرى وقال ابن عباس رضي الله عنهما يعني من اعطى فيما امر
واتقى فيما حظر وصدق بالحسنى يعني الخلف من عطايه فعنه قال قال
ابن عباس سادة الناس في الدنيا الاسخيا وفي الاخرة الاتقيا وقيل
في منثور الحكم الجود عن موجود وقيل في المثل سود ثم بلا جود كملك بلا جنود
وقال بعض الحكما الجود حارس الاعراض وقال بعض الادبا
من جاد ساد ومن اضعف ازداد ~~~~ احرص ... ما المسرحر او خير
الاعمال ما استحق شكرا وقال بعض البلغا جود الرجل يحببه الى اضداده
وبخله يبغضه الى اولاده وقال بعض الفصحا خير الاموال ما استرق حرا

وخير

نظر هنا فعله وقوله صلى الله عليه وسلم مع الزبير رضي الله عنه

وخير الاعمال ما استحق شكرا فقال صالح بن عبد القدوس
ويظهر عيب المرء في الناس بخله • ويستره عنهم جميعا سخاوه •
تغط باثواب السخا فانني • ارى كل عيب فالسخا غطاوه •
وحد السخا بذل ما يحتاج اليه عند الحاجة وان وصل الى مستحقه بقدر الطاقة
وتدبير ذلك مستصعب ولعل بعض من يحب ان ينسب الى الكرم ينكر حد السخا
ويجعل تقتير العطية نوعا من البخل وان الجود بذل الموجود وهذا تكلف يفضي
الى الجهل بحدود الفضايل ولو كان حد الجود بذل الموجود لما كان للسرف موضعا
ولا للتبذير موقعا وقد ورد الكتاب بذمهما وجاءت السنة بالنهي عنهما واذا
السخا محمود فمن وقف على حده سمي كريما وكان للحمد مستحقا ومن قصر
عنه كان بخيلا وللذم مستوجبا قال الله تعالى ولا تحسبن الذين يبخلون بما
اتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيمة
وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اقسم الله تعالى بعزته لا يجاوره
بخيل وروي عنه صلى الله عليه وسلم انه قال طعام الجواد دوا وطعام البخيل
دا وسمع صلى الله عليه وسلم رجلا يقول الشحيح اعذر من الظالم فقال لعن الله
الشحيح ولعن الظالم وقال بعض الحكما البخل جلباب المسكنة وقال بعض
الادبا البخيل ليس له خليل وقال بعض البلغا البخيل حارس نعمته وخازن
ورثته وقال بعض الشعرا
اذا كنت جماعا لمالك ممسكا • فانت عليه خازن وامين •
تؤديه مذموما الى غير حامد • فياكله عفوا وانت دفين •
وتظاهر بعض ذوي النباهة بحب الثنا مع امساك فيه فقال فيه بعض الشعرا
اراك تامل حسن الثنا ولم • يرزق الله ذاك البخيلا •
وكيف يسود اخو بطنه • يمن كثيرا ويعطي قليلا •
وقد بينا في حب الثنا وحب المال ان حب الثنا يبعث على البذل وحب المال يمنع منه

فان ظهر عليه حب المال كان حب الثنا كاذبا قال الشاعر

جمعت امرين ضاع الحزم بينهما ۞ تيه الملوك واخلاق المماليك

اردت شكرا بلا بر ولا صلة ۞ لقد سلكت طريقا غير مسلوك

ظننت عرضك لم يقرع بقارعة ۞ وما اراك على حال بمتروك

لين سبقت الى مال حظيت به ۞ لما سبقت الى شي سوى النوك

وقد يحدث عن البخل من الاخلاق المذمومة وان كان ذريعة الى كل مذمة اربعة اخلاق ناهيك بها ذما وهي الحرص والشره وسو الظن ومنع الحقوق فاما الحرص فهو شدة الكدح والاسراف في الطلب واما الشره فهو استقلال الكفاية والاستكثار لغير حاجة وهذا فرق بين الحرص والشره وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم من لم يجزه من العيش ما يكفيه ما عاش ما يغنيه وقال بعض الحكما الشره من غرايز اللوم واما سو الظن فهو عدم الثقة بمن هو لها اهل فان كانت بالخالق كانت شكا يول الى ضلال وان كانت بالمخلوق كانت لستحانة يصير بها مختانا وخوانا لان ظن الانسان بغيره بحسب ما يراه من نفسه فان وجد فيها خيرا ظنه في غيره وان راى منها سوا اعتقده في الناس وقد قيل في المثل كل انا ينضح بما فيه فان قيل قد تقدم من قول الحكما ان من الحزم سو الظن فقيل تاويله قلة الاسترسال اليهم لا اعتقاد السو فيهم واما منع الحقوق فان نفس البخيل لا تسمح بفراق محبوبها ولا تنقاد الى ترك مطلوبها فلا تذعن لحق ولا تجيب الى انصاف واذا آل البخل الى ما وصفناه من هذه الاخلاق المذمومة والشيم اللئيمة لم يبق معه خير مرجو ولا صلاح مامول وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال للانصار من سيدكم قالوا الجد بن قيس على بخل فيه فقال النبي صلى الله عليه وسلم واي دا اردا من البخل قالوا وكيف ذاك يا رسول الله قال ان قوما نزلوا بساحل البحر فكرهوا لبخلهم نزول الاضياف

بهم فقالوا ليبعد الرجال منا عن النسا حتى يعتذر الرجال الى الاضياف ببعد النسا ويعتذر النسا ببعد الرجال ففعلوا وطال ذلك بهم فاشتغل الرجال بالرجال والنسا بالنسا واما السرف والتبذير فان من زاد على حد السخا فهو مسرف ومبذر وهو بالذم جدير قال الله تعالى ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين وقال المامون لا خير في السرف ولا سرف في الخير وقال بعض الحكما صديق الرجل قصده وسرفه عدوه وقال بعض البلغا لا كثير في اسراف ولا قليل مع احتراف واعلم ان السرف والتبذير قد يختلف معناهما فالسرف هو الجهل بمقادير الحقوق والتبذير هو الجهل بمواقع الحقوق وكلاهما مذموم وذم التبذير اعظم لان المسرف يخطي في الزيادة والمبذر يخطي في الجميع ومن جهل مقادير الحقوق ومواقعها بالبذل واخطاها فهو كمن جهلها بفعاله فتعداها وكما انه بتبذيره قد يضع الشي في غير موضعه فهذا قد يعدل عن موضعه لان المال اقل من ان يوضع في كل موضع من حق وغير حق وقال بعض الحكما الخطا في اعطا ما لا ينبغي ومنع ما ينبغي واحد وقال سفيان الثوري الحلال لا يحتمل السرف وليس يتم السخا ببذل ما في يده حتى تسخو نفسه عما بيد غيره فلا يميل الى طلب ولا يكف عن بذل وقد قيل ان الله اوحى الى ابراهيم عليه السلام اتدري لما اتخذتك خليلا قال لا يا رب قال لاني رايتك تحب ان تعطي ولا تحب ان تاخذ وروى سهل بن سعد الساعدي قال اتى رجل النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله صلى الله عليك وسلم اخبرني بعمل يحبني الله عليه ويحبني الناس قال ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في ايدي الناس يحبك الناس وقال ايوب السختياني لا ينبل الرجل حتى يكون فيه خصلتان العفة عن اموال الناس والتجاوز عنهم وقيل لسفيان ما الزهد في الدنيا قال الزهد في الناس وكتب كسرى لابنه هرمز يا بني استقل الكثير مما تعطي واستكثر القليل مما تاخذ فان قرة عيون الكرام في الاعطا وسرور اللئام في الاخذ ولا تعد الشحيح امينا ولا الكذاب حرا فانه لا عفة مع الشح

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ما عال من اقتصد صح

قف على معنى السرف والتبذير وكل منهما

وقال معاوية كل اسراف فبازايه حق مضيع صح

انظر قول الله تعالى خليل

انظر قوله فان قرة عيون الكرام في الاعطا وسرور اللئام

ولا مروة مع الكذب وقال بعض الحكماء السخاء سخاءان فاشرفهما سخاؤك عما
بيد غيرك وقال آخر السخاء ان تكون بمالك متبرعا وعن مال غيرك متورعا وقال
بعض البلغاء الجود غاية الزهد والزهد غاية الجود وقال بعض الشعراء
اذا لم تكن نفس الشريف كريمة ... وان كان ذا قدر فليس له شرف
والبذل على وجهين احدهما ما ابتدأ به الانسان من غير سؤال والثاني ما كان عن
طلب وسؤال فاما المبتدى به فهو اطبعهما سخاء واشرفهما عطاء سئل علي كرم
الله وجهه عن السخاء فقال ما كان منه ابتداء فاما ما كان عن مسألة فحياء وتكرم
وقال بعض الحكماء اجل النوال ما وصل قبل السؤال وقال بعض الشعراء
وفتى خلا من ماله ... ومن المروة غير خال
اعطاك قبل سؤاله ... فكفاك مكروه السؤال
وهذا النوع من البذل قد يكون لاحد تسعة اسباب فالسبب الاول ان يرى
خلة يقدر على سدها وفاقة يتمكن من ازالتها فلا يدعه الكرم والتدين الا
ان يكون زعيم صلاحها وكفيل نجاحها رغبة في الاجر ان يتوفر وفي الشكر ان يكثر وقال
ابو العتاهية ما الناس الا المستعمله ... للخير والشر جميعا فعله
والسبب الثاني ان يرى في ماله فضلا عن حاجته وفي يده زيادة عن كفايته
فيرى انتهاز الفرصة لها فيضعها بحيث تكون له ذخرا معدا او غنما مستجدا
وقال الحسن البصري ما انصفك من كلفك اجلاله ومنعك ماله قيل لهند بنت
الخس من اعظم الناس في عينك قالت من كانت لي اليه حاجة وقال الشاعر
وما ضاع مال اورث الحمد اهله ... ولكن اموال البخيل تضيع
والسبب الثالث ان يكون التعريض تنبيه عليه بفطنته اشارة يستدل عليها
بكرمه ولا يدعه الكرم ان يغفل ولا الحياء ان يكف كالذي حكي ان رجلا سايرا
خلف بعض الولاة فقال له ما اهزل برذونك فقال يده مع ايدينا فوصله اكتفاء
بهذا التعريض الذي بلغ ما لا يبلغه صريح السؤال وكذلك قال الحكم بن صيفي السخاء

حسن الفطنة واللوم سوء التغافل وحكي ان عبيد الله بن سليمان لما تقلد وزارة
المعتضد كتب اليه عبيد الله بن طاهر فقال

ابن عبد الله

ابا دهرنا اسعافنا في نفوسنا ... واسعفنا فيمن نحب ونكرم
فقلت له نعماك فيهم اتمها ... ودع امرنا ان المهم المقدم
فقال عبيد الله ما احسن من شكا امره بين اضعاف مدحه وقضى حاجته
وكذلك قال بعض الشعراء شعرا
ومن لا يرى في نفسه من مذاكر ... رأى طلب المستجزئين ثقيلا
والسبب الرابع ان يكون ذلك رعاية ليد وجزاء على صنيعة فيرى تأدية الحق
عليه طوعا اما لنفسه واما لشكر ليكون من اسر الامتنان طليقا ومن رق
الاحسان عتيقا فقد قال بعض الحكماء الاحسان رق والمكافأة عتق وقال ابو العتاهية شعرا
وليست ايادي الناس عندي غنيمة ... ورب يد عندي اشد من الاسر
والسبب الخامس ان يؤثر الاذعان بتقديمه والاقرار بتعظيمه توطئة لرياسة
هو لها محب وعلى طلبها مكب وقد قال الشاعر
حب الرياسة داء لا دواء له ... وقل ما تجد الراضين بالقسم
فيستدعي عليه اجابة النفوس له طوعا لا بالاستعطاف واذعانها الا بالكره
والاسعاف فقد قال بعض الادباء بالاحسان يترتب الانسان وقال بعض
البلغاء من بذل ماله ادرك امله قال الشاعر
اترجو ان تسود ولم تعني ... وكيف يسود ذو الدعة البخيل
والسبب السادس ان يستدفع به سطوة اعدائه ويستكف به نفار خصمائه
ليصير والى بعد الخصومة اعوانا وبعد العداوة اخوانا اما الصيانة عرض او
لحراسة مجد وقال ابو تمام الطائي شعرا
فلم يجتمع شرق وغرب لقاصد ... ولا المجد في كف امرئ والدراهم
ولم ار كالمعروف تدعى حقوقه ... مغارم في الافواه وهي مغانم

وقال بعض الادبا من عظمت مرافقه لعظم موافقه والسبب السابع
ان يرد بر سايره منبعه او لاها ويراعي بر قديم نعمة اسداها كيلا ينسى
ما اولاه ولا يضاع ما اسداه فان مقطوع البر ضايع ومهمل الاحسان ضايع وقد قال
الشاعر شعرا وسمت امرا بالعرف ثم اطرحته ❊ ومن افضل الاشيا ارب الصنايع
وقال محمود بن داود الاصبهاني شعرا ❊ جمد
بدات بنعما وجبت لي حرمة ❊ عليك فعد بالفضل فالعود احمد
والسبب الثامن المحبة التي يوثرها المحبوب على ماله فلا يظن عليه بمرغوب
فيه ولا ينفس عليه لمطلوب اللذة التي هي عنده احظى والى نفسه اشهى
لان النفس الى محبوبها اشوق والى ما يليه اسبق قال الشاعر
وما زرتكم عمدا ولكن ذا الهوى ❊ الى حيث يهوي القلب تهوي به الرجل
وهذا وان دخل في اقسام العطا فخارج عن حد السخا وهكذا الخامس والسادس
من هذه الاسباب والسبب التاسع وليس بسبب ان يفعل ذلك لغير سبب
وانما هي منه سجية قد فطر عليها وشيمة قد طبع بها فلا يميز بين مستحق ومحروم
ولا يفرق بين محمود ومذموم كما قال بشار
ليس يعطيك للرجا ولا الخوف ❊ ولكن يلذ طعم العطا
وقد اختلف الناس في مثل هذا هل يكون منسوبا الى السخا فيحمد او
خارجا عنه فيذم فقال قوم هو السخي طبعا والجواد كرما وهو احق من كان ممدوحا
واليه منسوبا قالوا والتمييز شطر البخل والبذل لسبب الجاه ضرورة قال الحسن
ابن سهل اذا لم اعط الا المستحق فكاني اعطيت غريما فقال الشرف في السرف
فقيل له لا خير في السرف فقال لا سرف في الخير وقال الفضل بن سهل العجب
لمن يرجو من فوقه كيف يحرم من دونه وقال اخرون الشاعر
وما الناس الا صاحباك فمنهم ❊ سخي ومغلول اليدين من البخل
وسامح فيما املكه فانه ❊ تفل وثري والعوافل في شغل

وقال اخرون هذا خارج من السخا المحمود الى السرف والتبذير المذموم لان العطا
اذا كان لغير سبب كان المنع لغير سبب لان المال يقل عن الحقوق ويقصر عن الواجبات
فاذا اعطى غير المستحق فقد منع مستحقا وما يناله من الذم بمنع المستحق اكثر
مما يناله من الحمد باعطا غير المستحق وحسبك ذما بمن كانت افعاله تصدر عن
غير تمييز وتوجد لغير علة وقد قال الله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك
ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا فنهى عن بسطها سرفا كما نهى
عن قبضها بخلا فدلت على استوا الامرين ذما وعلى انتفائهما كرما وقال الشاعر
وكان المال ياتينا فكنا ❊ نبذره وليس لنا عقول
فلما ان تولى المال عنا ❊ عقلنا حين ليس لنا فضول
قالوا ولان العطا والمنع اذا كانا لغير علة افضيا الى ذم الممنوع وقلة شكر المعطى
اما الممنوع فلانه فضل عليه من هو مساويه واما المعطى فلانه وجد ذلك اتفاقا
وربما امل بالاتفاق اضعافا فصار ذلك مفضيا الى اجتلاب الذم واحباط
الشكر وليس فيهما افضا الى واحد منهما خير يرتجى وهو جدير ان يكون شر يتقى
ولذلك قيل منع الجميع ارضى للجميع وعطا يكون المنع ارجى منه خسران تبين
اذا كان البذل والعطا عن سوال وطلب فشروط معتبرة من وجهين احدهما في
السايل والثاني في المسول فاما اذا كان معتبرا فثلاثة شروط الشرط الاول
ان يكون السوال لسبب والطلب لموجب فان كان لضرورة ارتفع عنه الحرج
وسقط عنه اللوم وقد قال بعض الحكما الضرورة توقح الصورة وقال بعض الشعرا
الا قاتل الله الضرورة انها ❊ تكلف اعلا الخلق ادنى الخلايق
ولله در الاختيار فانه ❊ يبين فضل السبق من غير سابق
وقال الكميت اذا لم يكن الا الاسنة مركب ❊ فلا راي للمضطر الا ركوبها
فان ارتفعت الضرورة ودعت الحاجة فيما هو اقل الامرين ان يكون
وان جاز ان لا يكون فالنفس المسامحة تغلب الحاجة وتسمح في الطلب وتراعي

في السايل م

ما استقام به الحال وانتظم به الامر وان نالت بذلة ولحق وهن وتاول لصاحبها قول البحتري شعرا

ورب ما كان مكروه الامور الى محبوبها سبب ما مثله سبب

والنفس الشريفة تطلب الصيانة وتراعي النزاهة وتحتمل من الصبر ما حملت ومن الشدة ما اطاقت ليبقى تحملها ويدوم تصونها فيكون كما قال الشاعر

قد يكتسي المرء خز الثياب ... ومن دونها حالة مضنية

كما يكتسي خده حمرة ... وعلتها ورم في الرية

ولا يرى ان يتدنس بطلب الشوم ومطالع اللوم فان من البهايم الوحشية ما يابى ذلك ويانف منه قال الشاعر

وليس الليث من جوع بغاد ... على جيف يطوف بها كلاب

فكيف بالانسان الفاضل الذي هو اكرم الحيوان جنسا واشرفه نفسا هل يحسن به ان يرى الوحشي البهايم عليه فضلا وقد قال الشاعر

على كل حال ياكل المرء زاده ... على البوس والضرا وفي الحدثان

والفضل في مثل هذا قيل لبعض الزهاد لو سالت جارك لاعطاك فقال والله ما اسال الدنيا من يملكها فكيف من لا يملكها ووصف بعض الشعرا قوما فقال

اذا افتقروا عضوا على الفقر حسبة ... وان ايسروا عادوا سراعا الى الفقر

فاما من يسال من غير ضرورة هست ولا حاجة دعت فذلك صريح اللوم ومحض الدناءة وقل ما تجد مثله ملحوظا او نموا لا محظوظا لان الحرمان قاده الى ضيق الارزاق واللوم ساقه الى اخبث المطاعم فلم يبق لوجهه ما الا اراقه ولا ذلا الا ذاقه قال عبد الصمد بن المعذل لابي تمام الطائي

انت بين اثنتين تبرز للناس ... وكلتاهما بوجه ابتذال

لست تنفك طالبا لوصال ... من حبيب او طالبا لنوال

اي ماء لحر وجهك يبقى ... بين ذل الهوى وذل السوال

ولو استقبح العار وانف من الذل لوجد غير السوال مكتسبا يونه ولقدر

على

84

على ما يقلد ويصونه وقد قال الشاعر

لا تطلبن معيشة بتذلل ... فلياتينك رزقك المقسوم

واعلم بانك اخذ كل الذي ... هو في الكتاب محبر مرقوم

والشرط الثاني من شروط السوال ان يضيق الزمان عن ارجايه ويقصر الوقت عن ابطائه فلا يجد لنفسه في التاخير فسحة ولا في التمادي مهلة فيصير من المعذورين وداخلا في عدد المضطرين فاما والوقت متسع والزمان ممتد فتعجيل السوال لوم وقنوط وقال الشاعر

اني لاغضي الجفون على القذا ... يقيني ان لا عسر الا مفرج

الا رب ما ضاق الفضاء باهله ... وامكن من بين الاسنة مخرج

والشرط الثالث اختيار المسوول ان يكون مرجو الاجابة ما مول النجح اما لحرمة السايل او كرم في المسوول فان سال لييما لا يراعي حرمة ولا يوالي مكرمة فهو في اختياره ملوم وفي سواله محروم وقد قال بعض الحكما المخذول من كانت له الى اللييام حاجة وقال بعض البلغا اذل من اللييم سايله واقل من البخيل نايله وقال بعض الشعرا

من كان يامل ان يرى ... من ساقط نيلا سنيا

فلقد رجى ان يجتني ... من عوسج رطبا جنيا

واما الشروط المعتبرة في المسوول فثلاثة شروط الاول ان يكتفي بالتعريض ولا يلجي الى السوال الصريح ليصون السايل عن ذل الطلب فان الحال ناطقة والتعريض كاف وقد قال الشاعر

اقول وستر الدجا مسبل ... كما قال حين شكا الضفدع

كلامي ان قلته ضاير ... وفي الصمت حتفي فما اصنع

وربما فهم المسوول الاشارة فالجا الى التصريح بالعبارة تهجينا للسايل ليخجل فيمسك ويستحيي فيكف فيكون كما قال ابو تمام

من كان مفقود الحيا فوجهه ... من غير بواب له بواب

النوادر

Margin notes beside the left page: المقدر ... المسطور ... ويصعب
Margin note beside the right page: [illegible]

والشرط الثاني ان يتلقى بالبشر والترحيب ويقابل بالطلاقة والتقريب
ليكون مشكورا ان اعطى ومعذورا ان منع وقد قال بعض الحكما الق صاحب
الحاجة بالبشر فان عدمت شكره لم تعدم عذره وحكى ابن لنكك ان ابا بكر
ابن دريد قصد بعض الوزرا في حاجة لم يقضها وظهر له منه ضجر فقال

لا تدخلنك ضجرة من سايل ... فلخير دهرك ان ترى مسئولا
لا تجبهن بالرد وجه مؤمل ... فبقاء عزك ان ترى مامولا
تلقى الكريم فتستدل ببشره ... وترى العبوس على اللئيم دليلا
واعلم بانك عن قريب صاير ... خبرا فكن خبرا يكون جميلا

والشرط الثالث تصديق الامل فيه وتحقيق الظن به ثم اعتبار حاله وحال سايله
فانهما لا يخلوان من اربعة احوال الاولى ان يكون السايل مستوجبا والمسول
متمكنا فالاجابة هاهنا تستحق كرما وتلزم مروة وليس الى الرد سبيل الا
لمن استولى عليه البخل وهان عليه الذم فيكون كما قال فيه عبد الرحمان بن حسان شعرا

اني رايت من المكارم حسبكم ... ان تلبسوا خز الثياب وتشبعوا
فاذا تذكرت المكارم مرة ... في مجلس انتم به فتقنعوا

ونعوذ بالله ممن حرم ثروة ماله ومنع حسن حاله ان يكون مستودعا في صنيع
مشكور وبر مذخور وقيل لبخيل لم حسبت مالك قال للنوايب قيل
فقد نزلت بك وقال بعض الشعرا

مالك من مالك الا الذي ... قدمت فابذل طايعا مالكا
تقول اعمالي ولو فتشوا ... رايت اعمالك اعمى لكا

ثم قد اسقط حق نفسه ورفع اسباب شكره فصار كان لا حق له مذموما
لا مشكورا وآثما لا ماجورا قال ابو العتاهية

جزى البخيل علي صالحة ... عني بخفته على ظهري
ما فاتني خير امرء وضعت ... عني يداه مؤنة الشكر

فاذلم

فاذا لم يكن الى الرد في مثل هذا الحال سبيل نظر فان كان التاخير مضرا عجل بذله
وقطع مطله وكانت اجابته فعلا وقوله عملا وقد قالت الحكما مروة المطلوب
اليه ان لا يرى الالحاح عليه وقال محمد بن حازم

ومنتظر سوالك بالعطايا ... واشرف من عطاياه السوال
اذا لم ياتك المعروف طوعا ... فدعه فالتنزه عنه مال

وان كان في الوقت مهلة وفي التاخير فسحة فقد اختلفت مذاهب الفضلا
فيها لان الوعد طمع والانجاز طعام وليس من جاءه طعام كمن عيد رعينه فذهب
بعضهم الى ان الاولى تعجيل الوعد قولا ثم يتعقبه الانجاز فعلا ليكون السايل
مسرورا بعاجل الوعد ثم باجل الانجاز ويكون المسول موهوبا بالكرم محظوظا
بالوفا وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال العدة عطية وقال النضر
ابن سهيل لرجل ساله حاجة اعدك اليوم واحبوك غدا بالانجاز لتذوق حلاوة
الامل وانتزين بثوب الوفا ومنهم وعد يحيى بن خالد رجلا بحاجة ساله اياها
فقيل له اتعد وانت قادر فقال ان الحاجة اذا لم يتقدمها وعد ينتظر صاحبها
نجحه لم يجد راحته وطعمه فدع الحاجة تختمر بالوعد ليكون لها طعم عند المصطنع
اليه وقال بعض البلغا اذا احسنت القول فاحسن الفعل لتجتمع لك مزية
اللسان وثمرة الاحسان ولا تقل ما لا تفعل فانك لا تخلو في ذلك من ذنب تكتسبه
او عجز تلتزمه ومنهم من ذهب الى ان تعجيل البذل فعلا من غير وعد اولى وتقديمه
من غير ترقب وانتظار اهنى وانما يقدم الوعد واحد من رجلين اما معوز ينتظر نجحه
واما شحيح يروض نفسه توطية وليس الموعد في هاتين الحالتين وجه يتضح ولا
راي يتضح مع ما يغيره الليل والنهار وتتقلب به الحال من يسار واعسار وقال بعض الشعرا

يا ايها الملك المقدم ... امره شرقا وغربا
اسمن بختم صحيفتي ... ما دام هذا الطين رطبا
واعلم بان جفافه مما ... يعيد السهل صعبا

بان الجفاف

قالوا ولان في الرجوع عنه من الانكسار وفي توقع الوعد من مرارة الانتظار
وفي العود اليه من بذلة الامتهان وذلة الاحتذار ما يكدر بره ويوهن
شكره وقد قال الشاعر ان الحوائج ربما ازرا بها • عند الذي تقضى له تطويلها
فاذا ضمنت لصاحب لك حاجة • فاعلم بان تمامها تعجيلها
والحالة الثانية ان يكون السايل غير مستوجب والمسول غير متمكن ففي الرد
فسحة وفي المنع عذر غير انه يلين عند الرد لينا يقيه الذم ويظهر عذرا يدفع
عند اللوم فليس كل مقل يعرف ولا كل معذور ينصف وقال ابو العتاهية يصف البخلا

ايا رب ان الناس لا ينصفونني • وكيف وان انصفتهم ظلموني
وان كان لي شي تصدوا لاخذه • وان جيت ابغي شيهم منعوني
وان نالهم بذلي فلا شكر عندهم • وان انا لم ابذل لهم شتموني
وان طرقتني نكبة فرحوا بها • وان صحبتني نعمة حسدوني
سامنع قلبي ان يحن اليهم • واحجب عنهم ناظري وجفوني
واقطع ايامي بيوم سهولة • واقضي بها عمري ويوم حزوني
الا ان اصفا العيش ما طاب غبه • وما نلته من لذة وسكوني

والحالة الثالثة ان يكون السايل مستوجبا والمسول غير متمكن فينبغي
بالجميل على النفس ما امكن من يسير يسد خلة ويدفع معرة او يوضح من اعذار
المعوزين ويوجع المتاملين ما يصير في المنع معذورا وبالتوجع مشكورا كما قال ابو نصر العتبي

الله يعلم اني لست ذا بخل • ولست ملتمسا في البخل لي عللا
لكن طاقة مثلي غير خافية • والنزر يعذر في القدر الذي حملا
زاد بعضهم
لو ان كل يسير رد محتقرا • لم يقبل الله يوما للورى عملا

وربما حسد بحدوث العجز بعد تقدم القدرة على فوت الصنيعة وزوال
العادة حتى صار اوفى حسدا او ازيد كمدا كما قال بعض الشعرا
وكنت كباز الجو قص جناحه • يرى حسرات كلما طار طاير

يرى

يرى طايرات الجو يخفقن حوله • فيذكر اذ ريش الجناحين وافر

والحالة الرابعة ان يكون غير مستوجب والمسول متمكنا وعلى البذل قادرا
فينظر فان خاف بالرد قدح عرض او فتح هجا فمحض كان الى البذل مندوبا
صيانة لا جودا فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما وقى المرء به عرضه
فهو صدقة وان امن ذلك وسلم منه فمن الناس من غلب المسالة وامر بالبذل
لئلا يقابل الرجا بالخيبة والامل باليأس ثم لما فيه من اعتياد الرد واستسهال المنع
وكما ان اعتياد البذل مفض الى السخا كذلك اعتياد المنع مفض الى الشح وانشد
الاصمعي عن الكسائي

كانك في الكتاب وجدت لا لا • محرمة عليك فلا تحل
فما تدري اذا اعطيت مالا • اتكثر من سماحك ام تقل
اذا حضر الشتا فانت شمس • وان حضر المصيف فانت ظل

ومن الناس من اعتبر الاسباب وغلب حال السايل وندب الى المنع اذا كان العطا
في غير حق ليقوى على الحقوق اذا عرضت ولا يعجز عنها اذا لزمت وتعينت وقال بعض الشعرا

لا خير في العطا في غير حق • ليس في منع غير ذي الحق بخل
انما الجود ان تجود على من • هو للجود والندا منك اهل

فاما من اجاب السوال ووعد بالبذل والنوال فقد صار بوعده مرهونا وصار
وفاؤه بالوعد مقرونا ولا اعتبار باستحقاق السايل بعد الوعد ولا سبيل الى رخصة
لنفسه في الرد فيستوجب مع ذم المنع لوم المخلف ومقت الغادر وهجنة الكذوب
ثم لا سبيل الى مطله بعد الوعد لما في المطل من تكدير الصنع وتمحيق الشكر والعرب
تقول في امثالها المطل احد المنعين والياس احد النجحين وقال بشار بن برد شعرا

اظلت علينا منك يوما غمامة • اضات لنا برقا وابطا رشاشها
فلا غيمها يجلى فييأس طامع • ولا غيثها ياتي فيروى عطاشها

ثم اذا انجز وعده واوفى بعهده لم يتبع نفسه ما اعطى وسر ان كانت يده العليا

فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم اليد العليا خير من اليد السفلى وقال الشاعر

وانك لا تدري اذا جاء سايل ... ءانت بما تعطيه ام هو اسعد

عسى سايل ذو حاجة ان منعته ... من اليوم سولا ان يكون له غد

وليكن من سروره اذا كانت الارزاق مقدرة ان تكون على يده جارية ومن جهته واصلة لا تنتقل عنه بمنع ولا تتحول عنه بياس حكي ان رجلا شكى كثرة عالته الى بعض الزهاد فقال انظر من كان منهم ليس رزقه على الله فحوله الى منزلي وقال ابن سيرين لرجل كان ياتيه على دابة ففقد الدابة فقال له ما فعل برذونك فقال اشتدت علي مونته فبعته فقال افتراه خلف رزقه عندك وقال ابن الرومي شعرا

ان لله عزم عالكرعا ... ترتعيه وعزما علك ماء

نعمه بالبرية لطفا ... سبق الامهات والاباء

ثم لا يكن غالب عطاه لله تعالى واكثر قصده ابتغا ما عند الله كالذي حكاه ابو بكره عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان اعرابيا اتاه فقال

يا عمر الخير جزيت الجنه ... اكس بنياتي وامهنه

وكن لنا من الزمان جنه ... اقسم بالله لتفعلنه

فقال عمر ان لم افعل يكون ماذا ... فقال اذا ابا حفص لاذهبنه

فقال اذا ذهبت يكون ماذا فقال

تكون عن حالي لتسالنه ... يوم تكون الاعطيات هنه

والموقف المسيول بينهنه ... اما الى نار واما جنه

فبكى عمر حتى اخضلت لحيته ثم قال يا غلام اعطه قميصي هذا لذلك اليوم لا لشعره هذا اما والله لا املك غيره واذا كان العطا على هذا الوجه خلا من طلب جزا وشكر وعري عن امتنان ونشر فكان ذلك اشرف للباذل واهنا للقابل فاما المعطي اذا التمس بعطايه الجزا وطلب به الشكر والثنا فخارج بعطايه عن حكم السخا لانه

ان

ان طلب به الشكر والثنا كان صاحب سمعة ورياء وفي هذين من الذم ما ينافي السخا وان طلب به الجزا كان تاجرا مستربحا لا يستحق حمدا ولا مدحا وقد قال ابن عباس في تاويل قوله تعالى ولا تمنن تستكثر اي لا تعطي عطية تلتمس بها افضل منها وكان الحسن البصري يقول في تاويل ذلك ولا تمنن بعملك تستكثر على ربك وقال ابو العتاهية

وليست يد اوليتها بغنيمة ... اذا كنت تبغي ان يعد لها شكرا

غنا المر ما يكفيه من سد حاجة ... وان رام شيا عاد ذاك الغنا فقرا

واعلم بان الكريم يجتدى بالكرامة واللطف واللئيم يجتدى بالمهانة والعنف فلا يجود الا خوفا ولا يجيب الا عنفا قال الشاعر

رايتك مثل الجوز يمنع لبه ... صحيحا ويعطي خيره حين يكسر

فاحذر ان تكون المهانة طريقا الى اجتدابك والخوف سبيلا الى عطايك فيجري عليك سفه الطغام وامتهان اللئام وليكن جودك كرما ورغبا لا لوما ورهبا كيلا يكون مع العصمة الوصمة كما قال العباس الاحنف

صرت كاني ذبالة نصبت ... تضي للناس وهي تحترق

واما النوع الثاني من البر فهو المعروف ويتنوع ايضا نوعين قول وعمل فاما القول فهو طيب الكلام وحسن البشر والتودد بجميل القول وهذا يبعث عليه حسن الخلق ورقة الطبع ويجب ان يكون محدودا كالسخا فانه ان اسرف فيه كان ملقا مذموما وان توسط واقتصد فيه كان معروفا وبرا محمودا وقد قال ابن عباس في تاويل قوله تعالى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير املا قال انها الكلام الطيب وكان سعيد بن جبير يتاول انها الصلوات الخمس وروى ابو سعيد عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال انكم لن تسعوا الناس باموالكم فليسعهم منكم بسط الوجوه وحسن الخلق وروي ان النبي صلى الله عليه وسلم انشد قول المغرني عنده

واعلم ان للمعروف شروطا لا يتم الا بها ولا يكمل الا معها فمن ذلك ستره
عن اذاعة يستطيل بها واخفاه عن اشاعة يستدل بها وقد قال بعض الحكما
اذا اصطنعت المعروف فاستره واذا اصطنع اليك فاذعه وانشره وقال
دعبل الخزاعي اذا انتقموا اعلنوا امرهم ∴ وان انعموا انعموا باكتتام
يقوم القعود اذا اقبلوا ∴ وتقعد هيبتهم بالقيام
على ان ستر المعروف من اقوى اسباب ظهوره واقوى دواعي نشره لما جبلت
عليه النفوس من اظهار ما اخفي واعلان ما كتم قد قال سهل بن هارون
خل اذا جيته يوما لتسأله ∴ اعطاك ما ملكت كفاه واعتذرا
يخفي صنايعه والله يظهرها ∴ ان الجميل اذا اخفيته ظهرا
ومن شروط المعروف تصغيره عن ان يراه مستكبرا وتقليله عن ان يكون
مستكثرا لئلا يصير به بطرا او مستطيلا اشرا وقال العباس بن عبد المطلب
رضي الله عنه لا يتم المعروف الا بثلاث خصال تعجيله وتصغيره وستره فاذا
اعجلته هنأته واذا اصغرته عظمته واذا سترته اتممته وقال بعض الشعرا
زاد معروفك عندي عظما ∴ انه عندك مستور حقير
تتناسيه كان لم تأته ∴ وهو عند الناس مشهور خطير
ومن شروط المعروف مجانبة الامتنان به وترك الاعجاب بفعله لما فيهما من
اسقاط الشكر واحباط الاجر فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال اياكم والامتنان بالمعروف فانه يبطل الشكر ويمحق الاجر ثم تلا ولا
تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى وسمع ابن سيرين رجلا يقول لرجل فعلت
اليك وفعلت فقال ابن سيرين اسكت لا خير في المعروف اذا احصي وقال
بعض الحكما المن مفسدة للصنيعة وقال بعض الادبا كدر معروفا امتنانه
وضيع حسبا استطالته وقال بعض البلغا من من بمعروفه سقط شكره ومن اعجب
بعمله حبط اجره وقال بعض الفصحا قوة المنن من ضعف المنن وقال بعض الشعرا

افسدت

افسدت بالمن ما اسديت من حسن ∴ ليس الكريم اذا اسدى بمنان
وقال ابو نواس فامض لا تمنن علي يدا ∴ منك المعروف من كدره
وانشدت عن الربيع لمحمد بن ادريس الشافعي رحمه الله تعالى
لا تحملن لمن يمن ∴ من الانام عليك منه
واختر لنفسك حظها ∴ واصبر فان الصبر جنه
منن الرجال على القلوب ∴ اشد من وقع الاسنه
ومن شروط المعروف ان لا يحتقر منه شيا وان كان قليلا نزرا اذا كان
الكثير معوزا وكنت عنه عاجزا فان من حقر يسيره منع منه اعوزه كثيره فامتنع عليه
وفعل قليل الخير افضل من تركه وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال لا يمنعكم من معروف صغره وقال عبد الله بن جعفر لا تستحي من القليل
فان البخيل اقل منه ولا تجبن عن الكثير فانك اكثر منه وقال الشاعر
اعمل الخير ما استطعت وان ∴ كان يسيرا فلن تحيط بكله
ومتى تفعل الكثير من الخير ∴ اذا كنت تاركا لاقله
على ان من المعروف ما لا كلفة على موليه ولا مشقة على مسديه وانما هو خبا
يستطيل به الادنى ويرتفق به التابع وقال الشاعر
ظل الفتى ينفع من دونه ∴ وما له في ظله حظ
واعلم انك لن تستطيع ان توسع جميع الناس معروفك ولا ان توليهم
احسانك فاعتمد بذلك اهل الفضل منهم والحفاظ واقصد به ذوي الرعاية
والوداد ليكون معروفك فيهم ناميا وصنيعك زاكيا وقد روي عن النبي صلى
الله عليه وسلم انه قال لا تنفع الصنيعة الا عند ذي حسب ودين وقال صلى الله
عليه وسلم اذا اراد الله بعبد خيرا جعل صنايعه في اهل الحفاظ قال حسان بن ثابت الانصاري
ان الصنيعة لا تكون صنيعة ∴ حتى يصاب بها طريق المصنع
فاذا صنعت صنيعة فاعمل بها ∴ لله او لذوي القرابة او دع

وقيل في منثور الحكم لا خير في معروف الى غير معروف وقد ضرب به الشاعر مثلا فقال

كحمار السوء ان اشبعته ؞ رمح الناس وان جاع نهق

وقال بعض الحكما على قدر المغارس يكون اجتنا الغارس فاخذه بعض الشعرا فقال

لعمرك ما المعروف في غير اهله ؞ وفي اهله الا كبعض الودايع

فمستودع ضاع الذي كان عنده ؞ ومستودع ما عنده غير ضايع

وما الناس في شكر الصنيعة عندهم ؞ وفي كفرها الا كبعض المزارع

فمزرعة طابت واضعف نبتها ؞ ومزرعة اكدت على كل زارع

فاما من اسدي اليه المعروف واصطنع اليه الاحسان فقد صار بانشاء المعروف
موثوقا وفي ملكة الاحسان موبوقا ولزمه ان كان من اهل المكافاة ان يكافي عليه
وان لم يكن من اهلها ان يقابل المعروف بنشره ويقابل الفاعل بشكره وروي
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من اودع معروفا فلينشره فان نشره فقد
شكره وان كتمه فقد كفره وروي الزهري عن عروة عن عايشة رضي الله عنها
قالت دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وانا اتمثل بهذين البيتين

ارفع ضعيفك لا يحر بك ضعفه ؞ يوما فتدركه العواقب قد نمى

يجزيك ان يثني عليك وان من ؞ اثنى عليك بما فعلت فقد جزى

فقال النبي صلى الله عليه وسلم ردي علي قول اليهودي قاتله الله لقد اتاني جبريل
عليه السلام برسالة من ربي تعالى ايما رجل صنع الى اخيه صنيعة فلم يجد لها
جزاء الا الدعاء والثنا فقد كافاه وقيل في منثور الحكم الشكر قيد النعم وقال
عبد الحميد من لم يشكر الانعام فاعدوه من الانعام وقيل في منثور الحكم
قيمة كل نعمة شكرها وقال بعض الحكما كفر النعم من امارات البطر واسباب
التغير وقال بعض الفصحا الكريم شكور ومشكور واللئيم كفور ومكفور
وقال بعض البلغا لا زوال للنعمة مع الشكر ولا بقاء لها مع الكفر وقال الشاعر

فلو كان يستغني عن الشكر ماجدا ؞ لعزة ملك او علو مكان

لما امر الله عباده بشكره ؞ فقال اشكروا لي ايها الثقلان

فان شكر معروف من احسن اليه ونشر افضال من انعم عليه فقد ادى حق النعمة
وقضى موجب الصنيعة ولم يبق عليه الا استدامة ذلك اتماما للشكر ليكون للمزيد
مستحقا ولمتابعة الاحسان مستوجبا وقال بعض الادبا شكر الاله بطول
الثنا وشكر الولاة بصدق الولا وشكر النظير بحسن الجزا وشكر من دونك
بسبب العطا وقال بعض الشعرا

اقاتل الحجاج عن سلطانه ؞ بيد تقر بانها مولاته

اني اذا لاخو الدناءة والذي ؞ شهدت باقبح فعله عذراته

ماذا اقول اذا وقفت ازاءه ؞ في الصف واحتجت على فعلاته

اقول جار علي لا اني اذا ؞ لاحق من جارت عليه ولاته

وتحدث الاقوام ان صنايعا ؞ غرست لدي فحنظلت نخلاته

وقيل في منثور الحكم المعروف رق والمكافاة عتق ومن اشكر الناس الذي يقول

لاشكرنك معروفا هممت به ؞ ان اهتمامك بالمعروف معروف

ولا الومك ان لم يمضه قدر ؞ فالشيء بالقدر المحتوم مصروف

وهذا النوع من الشكر في الذي يتحمل المعروف ويتقدم البر وقد
يكون على وجوه فيكون تارة من حسن الثقة بالمشكور وصول بره واسدى
عرفه ولا ارى لمن حسن به الظن شاكرا ان يخلف حسن ظنه فيكون كما قال الغساني

قد اورقت فيك امالي بوعدك لي ؞ وليس في ورق الامال لي ثمر

وقد يكون تارة من فرط شكر الراجي وحسن مكافاة الامل فلا يرضى لنفسه
الا بتعجيل الحق واسلاف الشكر وليس لمن صادف لمعروفه معدنا زاكيا
ومغرسا ناميا ان يفوت نفسه غنما فلا يحرمها رجا فهذا وجه ثاني وقد
يكون تارة ارتهانا للماسول وحثا للمسول فبحسب ما اسلف من الشكر يكون
الذم عند الناس قال بعض الحكما المتقدمين من شكرك على معروف

شعراء

لم تسده اليد فعاجل بالبر والا انعكس فصار ذما وقال ابن الرومي في ذكر

وما الحقد الا توام الشكر في الفتى ... وبعض السجايا ينتسبن الى البعض

فحيث ترى حقدا على ذي اساءة ... فثم ترى شكرا على حسن العرض

اذا الارض ادت ريع ما انت زارع ... من البذر فيها نا هيك من ارض

فهي صح

فاما من ستر معروف المنعم ولم يشكر على ما اولاه من نعمة فقد كفر النعمة وجحد الصنيعة وابا من ذم الخلائق وسوء الطرائق عما يستوجب به قبيح الرد وسوء المنع وقد روى ابو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا يشكر الله من لم يشكر الناس وقال بعض الادباء من لم يشكر النعمة استحق قطع النعمة وقال بعض الفصحاء من كفر نعمة المفيد استوجب حرمان المزيد وقال بعض البلغاء من انكر الصنيعة استوجب قبح القطيعة وانشدني بعض الادباء ما ذكر انه لعلي بن ابي طالب كرم الله وجهه

من جاوز النعمة بالشكر لم ... يخش على النعمة مغتالها

لو شكروا النعمة جازاهم ... مقالة الله التي قالها

لئن شكرتم لازيدنكم ... لكنما كفرهم غالها

والكفر بالنعمة يدعو الى ... زوالها والشكر ابقى لها

فهذا اخر ما يتعلق بالقاعدة الثانية من اسباب الالفة الجامعة

فصل واما القاعدة الثالثة فهي المادة الكافية لان حاجة الانسان لازمة لا يعرى منها بشر قال الله تعالى وما جعلناهم جسدا لا ياكلون الطعام وما كانوا خالدين فاذا عدم المادة التي هي قوام نفسه لم تدم له حياة ولم تستقم له الدنيا واذا تعذر شيء منها عليه لحقه من الوهن في نفسه والاختلال في دنياه بقدر ما تعذر من المادة عليه لان الشيء القائم بغيره يكمل بكماله ويختل باختلاله ثم لما كانت المواد مطلوبة لحاجة الكافة اليها اعوزت بغير طلب وعدمت لغير سبب واسباب المواد

مختلفة

مختلفة وجهات المكاسب متشعبة ليكون اختلاف اسبابها علة للائتلاف بها وتشعب جهاتها توسعة لطلابها كيلا يجتمعوا على سبب واحد فلا يلتئمون او يشتركوا في جهة واحدة فلا يكتفون ثم هداهم اليها بعقولهم وارشدهم اليها بطباعهم حتى لا يتكلفوا الابتلاء منهم في المعايش المختلفة فيعجزون ولا يعانوا بتقدير موادهم بالمكاسب المتسعة فيجهلون حكمة منه سبحانه اطلع بها على عواقب الامور وقد انبا الله تعالى في كتابه اخبارا واذكارا سبحانه وتعالى قال ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى واختلف المفسرون في تاويل ذلك فقال قتادة اعطى كل شيء ما يصلحه ثم هداه له وقال مجاهد اعطى كل شيء صورته ثم هداه المعيشة وقال ابن عباس اعطى كل ذكر زوجة لنكاحه وقال تعالى يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا يعني معايشهم متى يزرعون ومتى يغرسون وهم عن الاخرة هم غافلون وقال الله تعالى وقدر فيها اقواتها في اربعة ايام سواء للسائلين قال عكرمة قدر في كل بلدة منها ما لم يجعله في الاخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من بلد الى بلد وقال الحسن البصري وعبد الرحمن ابن زيد قدر ارزاق اهلها سواء للسائلين الزيادة في ارزاقهم ثم ان الله جعل لهم مع ما هداهم اليه من مكاسبهم وارشدهم اليه من معايشهم دينا يكون لهم حكما وشرعا يكون عليهم قيما ليصلوا الى موادهم بتقديره ويطلبوا اسباب مكاسبهم بتدبيره حتى لا يتفردوا بارادتهم فيتغالبوا ولا تستولي عليهم اهواؤهم فيتقاطعوا قال الله تعالى ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن قال المفسرون الحق في هذا الموضع هو الله جل وعلا فلاجل ذلك لم يجعل المواد مطلوبة بالالهام حتى يجعل العقل هاديا اليها قاضيا عليها لتتم السعادة وتعم المصلحة ثم انه جلت عظمته جعل سد حاجتهم وتوصلهم الى منافعهم من وجهين بمادة وكسب فاما المادة فهي حادثة عن اقتناء اصول نامية بذواتها وهي شيئان نبت نام وحيوان متناسل قال الله تعالى وانه هو اغنى واقنى

قف

قال ابو صالح اغنا خلقه بالمال وأقنى جعل لهم قنية هي اصول الاموال
واما الكسب فيكون بالافعال الموصلة الى المادة والتصرف المؤدي
الى الحاجة وذلك من وجهين احدهما تقلب في تجارة والثاني صناعة وهذان الوجهان
هما فرع لوجهي المادة فصارت اسباب المواد المالوفة وجهات المكاسب المعروفة
من اربعة اوجه نماء زراعة ونتاج حيوان وربح تجارة وكسب صناعة وقد
حكى الحسن بن رجا عن ذلك عن المامون قال سمعته يقول معايش الناس على اربعة
اقسام زراعة وصناعة وتجارة وامارة فمن خرج عنها كان كلا عليها واذ قد
تقررت اسباب المواد بما ذكرنا فسنصف حال كل واحد منها بقول موجز اما
الاول من اسبابها وهو الزراعة فهي مادة اهل الحضر وسكان الامصار والمدن
والاستمداد بها اعم نفعا واوفر ربحا ولذلك ضرب الله به المثل فقال مثل
الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة
مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
خير المال عين ساهرة لعين نائمة وقال صلى الله عليه وسلم نعمت لكم النخل تشرب
من عين خرارة وتغرس في ارض خوارة وقال صلى الله عليه وسلم في النخل هن الراسخات
في الوحل المطعمات في المحل وقال بعض السلف خير المال عين خرارة في ارض خوارة
تسهر لها العين اذا نامت وتشهد اذا غابت وتكون عقبا اذا ماتت وروى
هشام بن عروة عن عايشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
التمسوا الرزق في خبايا الارض يعني الزرع وحكي عن المعتضد انه قال رايت
علي بن ابي طالب رضي الله عنه في المنام فناولني مسحاة وقال خذها فانها مفاتيح
خزاين الارض وقال كسرى للموبذ ما قيمة تاجي هذا فاطرق ساعة ثم قال ما اعرف
له قيمة الا انه يكون مطوة في بستان فانها تخلص من معايش الرعية ما يكون
قيمته مثل مقدار تاج الملك ولقي عبد الله بن عبد الملك بن شهاب
الزهري فقال دلني على مال اعالجه فانشا ابن شهاب يقول

تتبع

تتبع خبايا الارض وادع مليكها ... لعلك يوما ان تجاب فترزقا
فيؤتيك مالا واسعا ذا مثابة ... اذا ما مياه الارض غارت ترفقا
وقد اختلف الناس في تفضيل الزرع والشجر بما ليس يسعه كتابنا هذا لبسط
القول فيه غير ان من فضل الزرع قرب مداه ووفور جدواه ومن فضل
الشجر ثبوت اصله وتوالي ثمره واما الثاني من اسبابها وهو نتاج الحيوان
فهو مادة اهل الفلوات وسكان الخيام لانهم لما لم تستقر بهم دار ولم تضمهم
امصار افتقروا الى الاموال المنتقلة معهم وما لا ينقطع نماؤه بالظعن والرحلة
فاقتنوا الحيوان لانه ينتقل في النقلة لنفسه ويستغني في العلوفة برعيه
ثم هو مركوب ومحلوب فكان اقتناؤه على اهل الخيام ايسر لقلة مؤنته وتسهيل كلفته
فكانت جدواه عليهم اكثر لوفور نسله واقتنيت رسله الهاما من الله تعالى
لخلقه في تقدير المصالح فيهم وارشادا للعباد في قسم المنافع بينهم وقد روي
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خير المال مهرة مامورة وسكة مابورة ومعنى قوله
صلى الله عليه وسلم مهرة مامورة اي كثيرة النسل وبه ما تاول الحسن وقتادة في
قوله تعالى امرنا مترفيها ففسقوا فيها اي كثرنا عددهم واما السكة المابورة
فهي النخل المؤبرة الحمل وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال في الغنم
سمنها معاش وصوفها رياش وروي عن ابي ظبيان قال قال عمر بن الخطاب
رضي الله عنه ما مالك يا ابا ظبيان قال قلت عطائي الفان قال اتخذ من الحرث
والسبايا قبل ان ذلك علمه من قريش لا تعد العطا معهم مالا والسبايا النتاج
وروي ان امراة اتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله اني اتخذت
غنما ابتغي نسلها ورسلها وانها لا تنمي فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم ما الوانها
قالت سود فقال عفري وهذا مثل قولهم في مناكح الادميين اغتربوا لا تضووا
واما الثالث من اسبابها وهو التجارة فهي فرع لمادة الزرع والنتاج وروي
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال تسعة اعشار الرزق في التجارة والجزء الباقي في السابياء

انظر اسباب المواد المالوفة الخ

وهي نوعان تقلب في الحضر من غير نقلة ولا سفر وهذا تربص واحتكار قد رغب عنه اولوا الابصار وزهد فيه ذو والاخطار والثاني تقلب المال بالاسفار ونقله الى الامصار فهذا اليق لاهل المروة واعم نفعا وجدوى ومنفعة غير انه اكثر خطرا واعظم غررا وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان المسافر وماله لعلى قلت الا ما وقى الله يعني على خطر وقيل في التورية يا ابن آدم احدث سفرا احدث لك رزقا واما الرابع من اسبابها وهو الصناعة فقد تتعلق بما مضى من الاسباب الثلاثة وتنقسم اقساما ثلاثة صناعة فكر وصناعة عمل وصناعة مشتركة بين فكر وعمل لان الناس آلات للصناعات فاشرفهم نفسا اشرفها جنسا كما ان ارذلهم نفسا ارذلها جنسا لان الطبع يبعث على ما لايمه ويدعوا الى ما جانسه وحكي ان الاسكندر لما اراد الخروج الى اقاصي الارض قال لارسطاطاليس اخرج معي قال قد نحل جسمي وضعفت عن الحركة فلا تزعجني قال فما اصنع في عمالي خاصة قال انظر من كان له عبيد فاحسن سياستهم فوله الجند ومن كان له ضيعة فاحسن تدبيرها فوله الخراج فتنبه باعتبار الطبايع على ما اغناه عن كلف التجربة واشرف الصناعات صناعة الفكر وارذلها صناعة العمل لان العمل يخدم الفكر وهو مدبر به واما صناعة الفكر فقد تنقسم قسمين احدهما ما وقف على التدبيرات الصادرة عن نتايج الارا الصحيحة كسياسة الناس وتدبير البلاد وقد افردنا للسياسة كتابا لخصنا فيه من جملتها ما ليس يحتمل هذا الكتاب ذكره والثاني ما ادت الى المعلومات الحادثة عن الافكار النظرية وقد مضى في العلم من كتابنا هذا باب اغنى ما فيه عن زيادة قول فيه واما صناعة العمل فقد تنقسم قسمين عمل صناعي وعمل بهيمي فالعمل الصناعي اعلاها رتبة لانه يحتاج الى معاطاة في تعلمه ومعاناة في تصوره فصار اخذا الشبه من المعلومات الفكرية والآخر

فلما

فانما هو صناعة كد وآلة مهنة وهي الصناعة التي تقتصر عليها النفوس الرذلة وتقف عليها الطباع الخاسية كما قال اكثم بن صيفي لكل ساقطة لاقطة وقال المتلمس

ولا يقيم على ضيم يراد به ... الا الاذلان عير الحي والوتد

هذا على الخسف مربوط برمته ... وذا يشج فلا يرثي له احد

واما الصناعة المشتركة بين الفكر والعمل فقد تنقسم قسمين احدهما ان تكون صناعة الفكر اغلب والعمل تبعا كالكتابة والثاني ان تكون صناعة العمل اغلب والفكر تبعا كالبنا فاعلاهما ما كان صناعة الفكر اغلب عليها والعمل تبعا فهذه احوال الخلق التي ركبهم الله عز وجل عليها في ارتياد موادهم ووكلهم الى فطرهم في طلب اكتسابهم وفرق بين هممهم في التماسها ليكون ذلك سببا لالفتهم فسبحان من تفرد فينا بلطيف حكمته واظهر لفطننا عزايم قدرته واذ وضح القول في اسباب المواد وجهات المكاسب فليس يخلو حال الانسان فيها من ثلاثة امور احدها ان يطلب منها قدر كفايته ويلتمس وفق حاجته من غير ان يتعدى الى زيادة عليها او تقصير على نقصان منها فهذه احمد احوال الطالبين واعدل مراتب المقتصدين وقد روي عن قتادة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال اوحى الله تعالى الي كلمات قد دخلن في اذني ووقرن في قلبي وهن من اعطى فضل ماله فهو خير له ومن امسك فهو شر له ولا يلم الله على كفاف وروى حميد عن معاوية بن حيدة قال قلت يا رسول الله ما يكفيني من الدنيا قال ما سد جوعتك وستر عورتك فان كان دار فذاك وان كان حمار فبخ بخ فلق من خبز وجرعة من ما وانت مسول عما فوق الازار وحكي ابن عباس ومجاهد في قوله تعالى اذ جعل فيكم انبيا وجعلكم ملوكا ان كل من يملك بيتا وزوجة وخادما فهو ملك وروى زيد بن اسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان له بيت وخادم فهو ملك وهو في المعنى صحيح لانه بالزوجة والخادم مطاع في امره وفي الدار محجوب الا عن ربه فليس على من طلب قدر الكفاية فلم يتجاوز بها الى زيادة

الا توقي الحرام وطلب الحلال منه واجمال الطلب فيه ومجانبة الشبه المازجة
له فقد روى نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحلال بين والحرام
بين فدع ما يريبك الى ما لا يريبك فلن تجد فقد شي تركته لله وسيل رسول
الله صلى الله عليه وسلم عن الزهد فقال اما انه ليس باضاعة المال ولا تحريم الحلال
ولكن ان تكون بما في يد الله اوثق منك بما في يدك وان يكون ثواب المصيبة ارجح عندك
من بقائها وحكى عبد الله بن المبارك قال كتب عمر بن عبد العزيز الى الجراح بن عبد الله
الحكمي ان استطعت ان تدع مما احل الله لك ما يكون حاجزا بينك وبين الحرام فافعل
فانه من استوعب الحلال تاقت نفسه الى الحرام وقد اختلف اهل التاويل في قوله تعالى
فان له معيشة ضنكا فقال عكرمه يعني كسبا حراما وقال ابن عباس رضي الله عنهما
هو انفاق ما لا يوفر بالحلق وقال يحيى بن معاذ الدرهم عقرب فان احسنت رقيتها
والا فلا تاخذها وقيل من قل توقيه كثرت مساويه وقال بعض البلغا خير
الاموال ما اخذته من الحلال وصرفته في النوال وشر الاموال ما اخذته
من الحلال وصرفته في الاثام وكان الفقيه الاوزاعي كثيرا ما يتمثل بهذه الابيات

المال يفنى حله وحرامه . يوما وتبقى بعده اثامه
ليس التقي بمتق لالهه . حتى يطيب شرابه وطعامه
ويطيب ما يحوي ويكسب اهله . ويطيب من لفظ الحديث كلامه

حكي عن ابي عمرو المعتمر السلمي انه قال الناس ثلاثة اصناف اغنيا وفقرا
واوساط فالفقرا موتى الا من قد اغناه الله بعز القناعة والاغنيا سكارى
الا من عصمه الله بتوقع الغير واكثر الخير مع اكثر الاوساط واكثر الشر مع اكثر الفقرا
والاغنيا لسخفهم والحالة الثالثة ان يقتصر على طلب كفايته ويزهد
في التماس اذا ينته وهذا التقصير قد يكون على ثلاثة اوجه فيكون تارة كسلا
وتارة توكلا وتارة زهدا وتقنعا فان كان تقصيره لكسل فقد حرم ثروة النشاط ومرح
الاغتباط فلن يعدم ان يكون كلا مبعضا او ضايعا شقيا فقد روي عن النبي

الفقر وبطر الغناء

صلى الله عليه وسلم انه قال كاد الحسد ان يغلب القدر وكاد الفقر ان يكون كفرا
وقال بزرجمهر ان كان شي فوق الحياة فالصحة وان كان شي هو مثلها فالغنا وان
كان شي فوق الموت فالمرض وان كان شي مثله فالفقر وقيل في منثور الحكم القبر
خير من الفقر وقال بعض الشعرا

اعوذ بك اللهم من بطر الغنا . ومن نكهة البلوى ومن ذلة الفقر
ومن امل يمتد في كل شارق . ويرجعني منه بخط يد صفر
اذا لم تدنس الذنوب بعارها . فلست ابالي ما تشعث من امري

وان كان تقصيره لتوكل فذلك عجز قد اعذر به نفسه وترك الحزم قد غير
اسمه لان الله تعالى انما امر بالتوكل عند انقطاع الحيل والتسليم للقضا بعد الاعذار
وذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل يذكر فيه خير وقالوا يا رسول
الله خرج معنا حاجا فاذا نزلنا منزلا لم يزل يصلي حتى نرتحل فاذا ارتحلنا لم يزل
يذكر الله حتى ينزل فقال من كان يكفيه علف ناقته وصنيع طعامه قالوا كلنا
قال فكلكم خير منه وقال بعض الحكما ليس من توكل المرء اضاعته للحزم
ولا من الحزم اضاعته نصيبه من التوكل وان كان تقصيره لزهد وتقنع
فهذه حال من علم بمحاسبة نفسه بتبعات الغنى والثروة وخاف عليها بوايق
الهوى والقدرة فاثر الفقر على الغنا وزجر النفس عن ركوب الهوى قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من يوم طلعت فيه الشمس الا وبجنبيها ملكان
يناديان يسمعه خلق الله كلهم الا الثقلان يا ايها الناس هلموا الى ربكم ان ما قل
وكفى خير مما كثر والهى وروي عن زيد بن علي عن ابيه عن جده قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم انتظار الفرج من الله عز وجل عبادة ومن رضي بالقليل من الرزق
رضي الله عنه بالقليل من العمل وروي عن عمر بن الخطاب انه قال من فضل الفقر
انك لا تجد احدا يعصي الله ليفتقر فاخذه محمود الوراق فقال شعرا

يا عايب الفقر الا تزدجر . عيب الغنا اكثر لو تعتبر

من شرف الفقر ومن فضله ... على الغنى ان صح منك النظر
انك تعصي لتنال الغنى ... ولست تعصي الله كي تفتقر
وهذه الحال انما تصح لمن نصح نفسه فاطاعته وصدقها فاجابته حتى
لان قيادها وهان عنادها وعلمت ان من لم يتقنع بالقليل لم يقنع بالكثير
كما كتب الحسن البصري الى عمر بن عبد العزيز يا اخي من استغنى بالله اكتفى
ومن انقطع الى غيره تعنى ومن كان من قليل الدنيا لا يشبع لم يغنه منها
كثرة ما يجمع فعليك منها بالكفاف والزم العفاف واياك وجمع الفضول فان
حسابه يطول وقال بعض الحكما هيهات منك الغنى ان لم يقنعك ما حويت
فاما من عزفت نفسه عن قبول نصحه وجمحت به عن قناعة زهده فليس
الى اكرامها سبيل ولا الى الحمل عليها وجه الا بالرياضة والمرون وان
يستنزلها عن اليسير الذي لا تنفر منه فاذا استقرت عليه استنزلها الى ما هو
اقل منه لتنتهي بالتدريج الى الغاية المطلوبة وتستقر بالرياضة والمرون
على الحالة المحبوبة فقد تقدم قول الحكما ان الكره يسهل بالمرون فهذا
حكم ما في الحالة الثانية من التقصير عن طلب الكفاية واما الحالة الثالثة
فهو ان لا يقنع بالكفاية ويطلب الكثرة والزيادة فقد يدعوه الى ذلك
اربعة اشيا احدها منازعة الشهوات التي لا تنال الا بزيادة المال وكثرة
المادة فاذا نازعته الشهوة طلب من المال ما يوصله اليها وليس للشهوات
حد متناه ومن لم يتناه طلبه استدام كده وتعبه ومن استدام به الكد
والتعب لم يف التذاذه بنيل شهواته بما يعانيه من استدامة كده واتعابه
مع ما قد لزمه من ذم الانقياد لمغالبة الشهوات والتعريض لاكتساب
التبعات حتى يصير كالبهيمة التي قد انصرف طلبها الى ما تدعوا اليه شهوتها
فلا تنزجر عنه بعقل ولا تنكف عنه بقناعة وقد روي عن علي بن ابي طالب
كرم الله وجهه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال من اراد الله به خيرا

حال بينه وبين شهواته وحال بينه وبين قلبه واذا اراد به شرا
وكله الى نفسه وقال الشاعر وانك ان اعطيت نفسك سولها ... وفرجك نالا منتهى الذم اجمعا
والسبب الثاني ان يطلب الزيادة ويلتمس الكثرة ليصرفها في وجوه
الخير ويتقرب بها في جهات البر ويصطنع بها المعروف ويعين بها الملهوف
فهذا اعذر وهو بالحمد احرى واجدر اذا انصرفت عنه تبعات المطالب وتوقي
شبهات المكاسب ولحسن التقدير في حالتي فايدته وافادته على قدر الزمان
وبقدر الامكان لان المال الة المكارم وعون على الدين وبه يتالف الاخوان
ومن فقده من ابنا الدنيا قلت الرغبة فيه والرهبة منه ومن لم يكن منهم بموضع
رهبة ولا رغبة استهانوا به قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
ان احساب اهل الدنيا هذا المال وقال مجاهد الخير في القران كله هو
المال قال الله تعالى وانه لحب الخير لشديد يعني المال واحببت حب الخير
عن ذكر ربي يعني المال فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا يعني مالا وقال
اني اراكم بخير يعني الغنا والمال وانما سمى الله تعالى المال خيرا اذا كان
في الخير مصروفا لان ما ادى الى الخير فهو في نفسه خير وقد اختلف
اهل العلم في قوله تعالى ربنا اتنا في الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة وقنا
عذاب النار فقال السدي وعبد الرحمان بن زيد الحسنة في الدنيا
المال وفي الاخرة الجنة وقال الحسن البصري وسفيان الثوري الحسنة
في الدنيا العلم والعبادة وفي الاخرة الجنة وقال عبد الله بن العباس الدرهم
والدينار خواتيم الله في الارض لا توكل ولا تشرب حيث ما قصدت بها
قضيت حاجتك وقال قيس بن سعد اللهم ارزقني حمدا ومجدا فانه
لا حمد الا بفعال ولا مجد الا بمال وقيل لابي الزناد لم تحب الدراهم وهي
تدنيك من الدنيا قال هي وان ادنتني منها فقد صانتني عنها وقال
بعض الحكما من اصلح ماله فقد صان الاكرمين الدين والعرض وقيل

قف على قصة مجاهد

في منثور الحكم من استغنى كرم على اهله ومر رجل من ارباب الاموال ببعض العلما فتحرك له واكرمه فقيل له بعد ذلك اكانت لك اليه حاجة فقال لا ولكني رايت المال مهيبا وسال رجل محمد بن عمير بن عطارد وعتاب بن ورقا في عشر ديات فقال محمد علي دية وقال عتاب الباقي علي فقال محمد نعم العون اليسار على المجد وكان يقال الدراهم مراهم لانها تداوي كل جرح ويطيب بها كل صحيح وقيل في منثور الحكم الفقر مخذلة والغنى مجدلة والبوس مرذلة والسوال مبذلة وقال اوس بن حجر

اقيم بدار الحزم ما دام حزمها ... واحرى اذا حالت بان اتحولا

فاني وجدت الناس الا اقلهم ... خفاف عهود يكثرون التنقلا

بني ام ذي المال الكثير يرونه ... وان كان عبدا سيد الامر جحفلا

وهم لمقل المال اولاد علة ... وان كان محضا في العشيرة مخولا

وقال اخر

اجلك قوم حين صرت الى الغنا ... وكل غني في العيون جليل

وليس الغنى الا غنى زين الفتى ... عشية يقري او غداة ينيل

وقد اختلف الناس في تفضيل الغنى والفقر مع اتفاقهم ان ما اخرج من الفقر مكروه وما ابطر من الغنى مذموم فذهب قوم الى تفضيل الغنى على الفقر لان الغني مقتدر والفقير عاجز والقدرة افضل من العجز وهذا مذهب من غلب عليه حب النباهة وذهب اخرون الى تفضيل الفقر على الغنى لان الفقير تارك والغني ملابس وترك الدنيا افضل من ملابستها وهذا مذهب من غلب عليه حب السلامة وذهب اخرون الى تفضيل التوسط بين الامرين بان يخرج عن حد الفقر الى ادنى مراتب الغنى ليصل الى فضيلة الامرين ويسلم من مذمة الحالتين وهذا مذهب من يرى تفضيل الاعتدال وان خيار الامور اوسطها وقد مضى من شواهد كل فريق في موضعه ما اغنى عن اعادته والسبب الثالث ان يطلب الزيادة ويقتني الاموال ليدخرها لولده ويخلفها على ورثته مع شدة

ظنه على نفسه وكفه عن صرف ذلك في حقه اشفاقا عليهم من كدح الطلب وسوء المنقلب فهذا اشقى بجمعها ماخوذ بوزرها فقد استحق اللوم واستوجب الذم من وجوه ولا يخيل على ذي لب منها بسوء ظنه بخالقه في انه لا يرزقهم الا من جهته وقد قيل قتل القنوط صاحبه وفي حسن الظن بالله تعالى راحة القلوب وقال عبد الحميد كيف تبقى على حالتك والدهر على حالتك ومنها الثقة ببقاء ذلك على ولده مع نوائب الزمان ومصائبه وقد قيل الدهر حسود لا ياتي على شي الا غيره وقيل في منثور الحكم المال ملول وقال بعض الحكما الدنيا ان بقيت لك لم تبق لها ومنها ما حرم من منافع ماله وسلب من فوق حاله وقد قيل انما مالك لك او للوارث او للجائحة فلا تكن اشقى الثلاثة به وقال عبد الحميد لطرح كواذب املك وكن وارث مالك ومنها ما لحقه من شقا جمعه ونال من عناكده حتى صار ساعيا محروما وجاهدا مذموما وقيل رب مغبوط بمسرة هي دواه ومحروم من سقم هو شفاوه وقال الشاعر

ومن كلف النفس فوق كفافها ... فما ينقضي حتى الممات عناوه

ومنها ما يواخذ به من وزره واثامه ويحاسب عليه من تبعاته واجرامه كما حكي ان هشام بن عبد الملك لما ثقل بكي عليه ولده فقال جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم عليه بالبكا وترك لكم ما كسب وتركتم عليه ما اكتسب ما اسوء حال هشام ان لم يغفر الله له فاخذ هذا المعنى محمود الوراق فقال شعرا

تمتع بمالك قبل الممات ... والا فلا مال اذا انت متا

شقيت به ثم خلفته ... لغيرك بعدا وسحقا ومقتا

فجادوا عليك بزور البكا ... وجدت لهم بالذي قد جمعتا

وارهنتهم كل ما في يديك ... وخلوك رهنا بما قد كسبتا

وقد روي ان عباس بن عبد المطلب رحمه الله تعالى ورضي عنه جاء الى النبي

انظر قول النبي صلى الله عليه وسلم لعمه العباس

صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم يا عباس يا عم النبي قليل يكفيك خير من كثير يرديك يا عباس يا عم النبي صلى الله عليه وسلم نفس تنجيها خير من لا تحصيها يا عباس يا عم النبي ان الامارة او لها ندامة ولو سطها ملامه ولخرها خزي يوم القيمة فقال يا رسول الله صلى الله عليه وسلم الا من عدل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف تعدلون مع الاقارب وقال رجل للحسن البصري اني اخاف الموت واكرهه فقال اراك خلفت مالك ولو قدمته لسرك اللحاق به وقيل في منثور الحكم كثرة مال الميت تعزي ورثته عنه فاخذ هذا المعنى ابن الرومي فقال

ابقيت مالك ميراثا لوارثه ❊ فليت شعري ما ابقى لك المال
القوم بعدك في حال تسرهم ❊ فكيف بعدهم حالت بك الحال
ملوا البكا فما يبكيك من احد ❊ واستحكم القول في الميراث والقال
الهتهم عنك دنيا اقبلت لهم ❊ وادبرت عنك والايام احوال

والسبب الرابع ان يجمع المال ويطلب المكاثرة استحلاة لجمعه وشغفا باحتجانه فهذا اسوء الناس حالا فيه واشدهم حرمانا له وقد توجهت اليه سائر الملاوم حتى صار بالاعلية ومذلة له وفي مثله قال تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم قال النبي صلى الله عليه وسلم تبا للذهب تبا للفضة فشق ذلك على اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا فاي مال نتخذ قال عمر انا اعلم لكم ذلك فقال يا رسول الله ان اصحابك شق عليهم ما قلت وقالوا فاي مال نتخذ فقال لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة مومنة تعين احدكم على دينه وروى شهر بن حوشب عن ابي امامة قال مات رجل من اهل الصفة فوجد في مئزره دينار فقال النبي صلى الله عليه وسلم كية ثم مات اخر فوجد في مئزره ديناران فقال النبي صلى الله عليه وسلم كيتان وانما ذكر

فيهما وان كان قد مات على عهده من ترك اموالا جمة واحوالا ضخمة فلم يكن منه فيهم ما كان في هذين لانهما تظاهرا بالقناعة واختبيا ما ليس منهما اليه حاجة فصار ما اختبياه وزرا عليهما وعقابا لهما وقد قال الشاعر

اذا كنت ذا مال ولم تك ذا ندا ❊ فانت اذا والمقترون سواء
على ان للاموال يوما تباعة ❊ على اهلها والمقترون براء

وانشدت عن الربيع لمحمد بن ادريس الشافعي رضي الله عنه

ان الذي رزق اليسار فلم يصب ❊ حمدا ولا شكرا لغير موفق
والجد يدني كل شي شاسع ❊ والجد يفتح كل باب مغلق
واحق خلق الله بالهم امرء ❊ ذو همة يبلى بعيش ضيق
ومن الدليل على القضا وحكمه ❊ بوس اللبيب وطيب عيش الاحمق

وافة من بلي بالجمع والاستكثار ومني بالامساك والادخار حتى انصرف عن رشده فغوى وانحرف عن سنن قصده فهوى يستولي عليه حب المال وبعد الامل فيبعثه حب المال على الحرص في طلبه ويدعوه بعد الامل الى الشح به والحرص والشح اصلا كل ذم وسببا كل لوم لان الشح يمنع عن اداء الحقوق ويبعث على القطيعة والعقوق ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم شر ما اعطي العبد شح هالع وجبن خالع وقال بعض الحكما الغني البخيل كالقوي الجبان واما الحرص فيسلب فضايل النفس لاستيلايه عليهما ويمنع من التوفر على العبادة لتشاغله عنها ويبعث على التورط في الشبهات لقلة تحرزه منها وهذه ثلث خصال من جامعات الرذايل وسالبات الفضايل مع ان الحريص لا يستزيد بحرصه زيادة على رزقه سوى الاذلال لنفسه واسخاط خالقه وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الحريص الجاهل والقانع الزاهد يستوفيان اكلهما غير منتقص منه شيا فعلام التهافت في النار وقال بعض الحكما الحرص مفسدة الدين

والمرق فوالله ما عرفت من وجه رجل حرصا فرايت ان فيه مصطنعا وقال
الاخر الحريص اسير مهانة لا يفك اسره وقال بعض البلغا المقادير الغالبة
لا تنال بالمغالبة والارزاق المكتوبة لا تنال بالشدة والمكالبة فذلل
للمقادير نفسك واعلم بانك غير نايل بالحرص الا حظك وقال بعض الادبا
رب حظ ادركه غير طالبه ودر احرزه غير حالبه وانشدني بعض اهل الادب لمحمد بن حازم
يا اسير الطمع الكاذب في على الهوان ❊ ان عز الياس خير لك من ذل الاماني ❊
نساج الدهر اذا عز ❊ وخذ صفو الزمان ❊ ربما العدم ذو الحرص ❊ واثرى ذو التواني ❊
وليس للحريص غاية مقصوده يقف عندها ولا نهاية محدودة يقنع بها
لانه ان وصل بالحرص الى ما امل اغراه ذلك بزيادة الحرص والامل وان لم
يصل راى اضاعة العنى لوما والصبر عليها حزما وصار لما سلف من عنايه
اكثر رجاء وابسط املا وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
يشيب ابن ادم ويشيب معه خصلتان الحرص وطول الامل وقيل
للمسيح عليه السلام ما بال المشايخ احرص على الدنيا من الشباب قال لانهم
ذاقوا من طعم الدنيا ما لم يذقه الشباب ولو صدق الحريص نفسه
واستنصح عقله لعلم ان من تمام السعادة وحسن التوفيق الرضا بالقضا
والقناعة بالقسم وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اقتصدوا
في الطلب فانما رزقتموه اشد طالبا لكم منكم له وما حرمتموه فلن تنالوه
ولو حرصتم وروي ان جبريل عليه السلام هبط على النبي صلى الله عليه وسلم
فقال ان الله عز وجل يقريك السلام ويقول لك اقرا بسم الله الرحمن الرحيم
لا تمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه
ورزق ربك خير وابقى فامر النبي صلى الله عليه وسلم مناديا فنادى من لم
يتادب باداب الله عز وجل تقطعت نفسه على الدنيا حسرات وقيل مكتوب
في بعض الكتب ردوا ابصاركم عليكم فان لكم فيها اشغالا وقال مجاهد في

عقله

تاويل

تاويل قوله تعالى فلنحيينه حيوة طيبة قال بالقناعة وقال اكثم بن صيفي
من باع الحرص بالقناعة ظفر بالغنى والسرور وقال بعض السلف قد يخيب
الجاهد الساعي ويظفر الوادع الهادي اخذه البحتري فقال
لم الق مقدورا على استحقاقه ❊ في الحظ اما ناقصا او زايدا ❊
وعجبت للمحدود يحرم ناصبا ❊ كلفا وللمحدود يغنم قاعدا ❊
ما خطب من حرم الارادة وادعا ❊ خطب الذي حرم الارادة جاهدا ❊
وقال بعض الحكما من قنع كان غنيا وان كان فقيرا ومن لم يقنع كان فقيرا
وان كان مكثرا وقال بعض البلغا اذا طلبت العز فاطلبه بالطاعة واذا
طلبت الغنا فاطلبه بالقناعة فمن اطاع الله عز وجل فقد عز نصره ومن
لزم القناعة فقد زال فقره وقال بعض الادبا القناعة عز المعسر والصدقة
حرز الموسر وقال بعض الشعرا ❊ اني ارى من له قنوع ❊ يدركه ما نال من تمنى ❊
والرزق ياتي بلا عناء ❊ وربما فات من تعنى ❊ والقناعة قد تكون من ثلاثة
اوجه فالوجه الاول ان يقنع بالبلغة منه ويصرف نفسه عن التعرض
لما سواه وهذا اعلا منازل اهل القناعة وقد روي عن النبي صلى الله
عليه وسلم انه قال اذا اشتهيت ان تحيى عزيزا غنيا فلا تكن على حالة الا رضيت
بدونها قال مالك بن دينار ان من الناس من لم تتجاوز رغبته من
الدنيا بلغته وقال بعض الحكما الرضى بالكفاف يؤدي الى العفاف
وقال بعض الادبا رب ضيق افضل من سعة وعنا خير من دعة وانشدني
بعض اهل الادب وذكر انه لعلي بن ابي طالب كرم الله وجهه
افادتني القناعة اي عز ❊ واي غنا اعز من القناعة ❊
فصيرها لنفسك راس مال ❊ وصير بعدها التقوى بضاعه ❊
تحرز عنه يعني عن بخيل ❊ وينعم في الجنان بفضل ساعه ❊
والوجه الثاني ان تنتهي به القناعة الى الكفاية ويحذف الفضول الزايده

الى خ

وهذه اوسط الاحوال للمقتنع وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال ما من عبد الا بينه وبين رزقه حجاب فان قنع واقتصد اتاه
رزقه وان هتك الحجاب لم يزد في رزقه وقال بعض الحكما طلب ما فوق
الكفاية اسراف وقال بعض البلغا من رضي بالمقدور قنع بالميسور وقال البحتري

اتطلب الاكثر في الدنيا وقد ... تبلغ الحاجة منها بالاقل

وانشدت لابراهيم بن المدبر

ان القناعة والعفاف ... ليغنيان عن الغنى
فاذا صبرت عن المنى ... فاشكر فقد نلت المنى

والوجه الثالث ان تنتهي به القناعة الى الوقوف
على ما سنح فلا يكره ما اتاه وان كان كثيرا ولا يطلب ما تعذر وان كان يسيرا وهذه
الحالة ادنى منازل اهل القناعة لانها مشتركة بين رغبة ورهبة اما الرغبة
فلانه لا يكره الزيادة على الكفاف اذا اسنحت واما الرهبة فلانه لا يطلب المتعذر
عن نقصان المادة اذا تعذرت وفي مثل ذلك قال ذو النون المصري من
كانت قناعته سمينة طابت له كل مرقة وقد روى الحسن عن ابيه عن جده
انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا دول فما كان لك منها اتاك
على ضعفك وما كان منها عليك لم تدفعه بقوتك ومن انقطع رجاوه مما فات
استراح بدنه ومن رضي بما رزقه الله تعالى قرت عينه وقال ابو حازم
الاعرج وجدت الدنيا شيئين شيئا هو لي لن اعجله قبل اجله ولو طلبته بقوة
السموات والارض وشيئا هو لغيري وذلك مما لم انله فيما مضى ولا اناله فيما بقي
يمنع الذي لي من غيري كما يمنع الذي لغيري مني ففي اي هذين افني عمري واهلك نفسي
وقال ابراهيم ابو تمام الطائي

لا تاخذني بالزمان فليس لي ... تبعا ولست على الزمان كفيلا
من زاحف الايام ثم عنا لها ... غير القناعة لم يزل مغلولا
من كان يرعى عزمه وهمومه ... روض الاماني لم يزل مهزولا
لو جار سلطان القنوع وحكمه ... في الخلق ما كان القليل قليلا
الرزق لا تكمد عليه فانه ... ياتي ولم تبعث اليه رسولا

وانشد

وانشد بعض اهل الادب لابن الرومي

جرى قلم القضا بما يكون ... فسيان التحرك والسكون
جنون منك ان تسعى لرزق ... ويرزق في غشاوته الجنين

ونحن نسال الله اكرم مسؤول وافضل مامول ان يحسن التوفيق فيما منح
ويصرف عنا الرغبة فيما منع استكفا فالتبعات الثروة وموبقات الشهوة
روى شريك بن ابي نمر عن اعمامه واجداده عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال خير امتي الذين لم يعطوا حتى يبطروا ولم يقتر عليهم حتى يسالوا وقال
ابو تمام الطائي

عندي من الايام ما لو انه ... اضحى بشارب مرقد ما غمضا
لا تطلبن الرزق بعد شماسه ... فترومه سعيا اذا ما غيضا
ما عوض الصبر امرؤ الا راى ... ما فاته دون الذي قد عوضا

الباب الخامس في آداب النفس

اعلم ان النفس مجبولة على شيم
مهملة واخلاق مرسلة لا يستغني بمحمودها عن التاديب ولا يكتفى بالمرضي منها
عن التهذيب لان لمحمودها اضدادا مقابلة يسعدها هوى مطاع وشهوة غالبة
فان اغفل تاديبها تفويضا الى العقل وتوكلا على ان ينقاد الى الاحسن بالطبع
اعدمه التفويض درك المجتهدين واعقبه التوكل ندم الخائبين فصار من الادب عاطلا
وفي صورة الجهل داخلا لان الادب مكتسب بالتجربة ومستحسن بالعادة ولكل
قوم مواضعة وكل ذلك لا ينال بتوفيق العقل ولا بانقياد الطبع حتى يكتسب
بالتجربة والمعاناة ويستفاد بالدربة والمعاطاة ثم يكون العقل عليه قيما
وذكاء الطبع اليه مسلما ولو كان العقل مغنيا عن الادب لكان انبياء الله تعالى
عن الادب مستغنين وبعقولهم مستكفين وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال بعثت لاتمم مكارم الاخلاق وقيل لعيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام من
ادبك فقال ما ادبني احد رايت جهل الجاهل فاجتنبته وقال علي كرم الله
وجهه ان الله تعالى جعل مكارم الاخلاق ومحاسنها وصلا بينه وبينكم فحسب الرجل

ان يتصل من الله تعالى بخلو منها وقال ازدشير بن بابك من فضيلة الادب
انه ممدوح بكل لسان ومتزين به في كل مكان وباق ذكره على ايام الزمان
وقال بعض العلما صاحب الادب يشبه العالم الشريف ومن حرم الادب
كالبنيان الخرب الذي كلما علا سمكه كان اشد وحشة وبالنهر اليابس الذي كلما
كان اعرض واعمق كان اشد لوعورته وبالارض الجيدة المعطلة التي كلما طال
خرابها ازداد نباتها غير المنتفع به التفافا وصار للهوام مسكنا وقال ابن المقفع
ما نحن الى ما نتقوى به على حواسنا من المطعم والمشرب باحوج منا الى الادب الذي
هو لقاح عقولنا فان الحبة المدفونة في الثرى لا تقدر ان تطلع زهرتها ونضارتها
الا بالماء الذي يعود اليها من مستودعها وحكي الاصمعي ان اعرابيا
قال لابنه يا بني الادب دعامة ايدي الله بها الالباب وحلية يزين بها
عواطل الاحساب فالعاقل لا يستغني وان صحت غريزته عن الادب المخرج
زهرته كما لا تستغني الارض وان عذبت تربتها عن الماء المخرج لثمرتها وقال
بعض الحكما الادب صورة العقل فصور عقلك كيف شئت وقال آخر العقل
بلا ادب كالشجر الحايل ومع الادب كالشجر المثمر وقيل الادب احد المنصبين
وقال بعض البلغا الفضل بالعقل والادب والنسب لان من سا ادبه
ضاع نسبه ومن قل عقله ضل اصله وقال بعض الادبا ذك قلبك بالادب
كما تذكى النار بالحطب واتخذ الادب غنما والحرص عليه حظا يرجمك
راغب ويخف صولتك راهب ويومل نفعك ويرجى عدلك وقال بعض
العلما الادب وسيلة الى كل فضيلة وذريعة الى كل شريعة وقال بعض
الفصحا الادب يستر قبيح النسب وقال بعض الشعرا

فما خلق الله مثل العقول ... ولا اكتسب الناس مثل الادب
وما كرم المرء الا التقى ... وما حسب المرء الا النسب
وفي العلم زين لاهل الحجى ... وافة ذي الحكم طيش الغضب

وانشد

وانشد لعبد الملك بن قريب الاصمعي

ان يكن العقل مولدا فلست ارى ... ذا العقل مستغنيا عن حادث الادب
اني رايتهما كالماء مختلطا ... بالترب يظهر عنه زهرة العشب
وكل من اخطاته في مولده ... غريزة العقل حاكى البهم في النسب

نعم مولودا

والادب يلزم من وجهين احدهما ما يلزم الوالد للولد في صغره
والثاني ما لزم الانسان في نفسه عند نشاه وكبره فاما التادب اللازم
للاب فهو ان ياخذ ولده بمبادي الادب ليانس بها وينشا عليها فيسهل عليه
قبولها عند الكبر لاستيناسه بمباديها في الصغر لان نشي الصغير على الشي
يجعله متطبعا به ومن اغفل في الصغر كان تاديبه في الكبر عسيرا وقد
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما نحل والد ولده نحلة افضل
من ادب حسن يمنحه اياه او جهل قبيح يكفه عنه ويمنعه منه وقال بعض
الحكما بادروا بتاديب الاطفال قبل تراكم الاشغال وتفرق البال وتغير الاحوال وقال بعض الشعراء

ان الغصون اذا قومتها اعتدلت ... ولا تلين اذا قومتها الخشب
قد ينفع الادب الاحداث في صغر ... وليس ينفع في ذي الشيبة الادب

وقال اخر

ينشو الصغير على ما كان والده ... ان العروق عليها تنبت الشجر

واما الادب اللازم للانسان عند نشيه وكبره فادبان ادب مواضعة
واصلاح وادب رياضة واستصلاح فاما ادب المواضعة والاصلاح فيوخذ
تقليدا على ما استقر عليه اصطلاح العقلا واتفق عليه استحسان الادبا وليس
لاصطلاحهم على وضعه تعليل يستنبط ولا لاتفاقهم على استحسانه دليل موجب
كاصطلاحهم على المواضعات للخطاب واتفاقهم على هيئات اللباس حتى ان الانسان
الآن اذا تجاوز ما اتفقوا عليه منها صار مجانبا للادب مستوجبا للذم لان فراق
المالوف في العادة ومجانبة ما صار متفقا [2] ظاهرة بمعنى حادث وقد كان
جايزا في العقل ان يوضع ذلك على غير ما اتفقوا عليه فيرونه حسنا ويرون

[2] عليه بالمواضعة مفضي الى استحقاق الذم بالعقل ما لم يكن مخالفته عليه صح

ماسواه قبيحا فصار هذا مشاركا لما وجب بالعقل من حيث توجه الذم على
تاركه بمخالفة الدين من حيث انه كان جائزا في العقل فيما يجب ان يوضع على خلافه
وأما أدب الرياضة والاستصلاح فهو ما كان محمولا على حال لا يجوز
في العقل ان يكون بخلافها ولا ان يختلف العقلا في صلاحها وفسادها
وما كان كذلك فتعليله بالعقل مستنبط ووضوح صحته بالدليل مرتبط
وللنفس على ما ياتي من ذلك شاهد الهمها الله ارشادها قال الله تعالى فالهمها
فجورها وتقواها قال ابن عباس بيّن لها ما ياتي من الخير ويذر من الشر
وسنذكر تعليل كل شي في موضعه فانه اولى واحق فاول مقدمات ادب
الرياضة والاستصلاح ان لا يسبق الى حسن الظن بنفسه فيخفى عليه
مذموم شيمته ومساوي اخلاقه لان النفوس بالشهوات آمرة وعن الرشد
زاجرة قال الله تعالى ان النفس لامارة بالسوء **قال** النبي صلى الله عليه وسلم
اعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك ثم اهلك ثم عيالك **ودعت** اعرابية
لرجل فقالت كبت الله كل عدو لك الا نفسك **اخذه** بعض الشعرا فقال

قلبي الى ما ضرني داعي … يكثر اسقامي واوجاعي
كيف احتراسي من عدوي اذا … كان عدوي بين اضلاعي

واذا كانت النفس كذلك فحسن الظن بها ذريعة الى تحكيمها وتحكيمها داعي
الى سلاطتها وفساد الاخلاق بها واذا صرف عنها حسن الظن وتوسمها
بما هي عليه من التسويف والمكر فاز بطاعتها وانحاز عن معصيتها **فقد**
قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه العاجز من عجز عن سياسة نفسه **قال**
بعض الحكما من ساس نفسه ساد ناسه **واما** سو الظن بها فقد اختلف
الناس فيه فمنهم من كرهه لما فيه من اتهام طاعتها ورد مناصحتها فان النفس
وان كان لها مكر يردي فلها نصح يهدي فلما كان حسن الظن بها يعمي عن مساويها
كان سو الظن يعمي عن محاسنها ومن عمي عن محاسن نفسه كان كمن عمي عن مساويها

فلم

فلم ينف عنها قبيحا ولم يهد اليها حسنا **وقد** قال الجاحظ في كتاب البيان
يجب ان يكون في التهمة لنفسه معتدلا وفي حسن الظن بها مقتصدا فانه
ان تجاوز مقدار الحق في التهمة ظلمها فاودعها ذلة المظلومين وان تجاوز بها
الحق في مقدار حسن الظن اودعها تهاون الآمنين ولكل ذلك مقدار من
الشغل ولكل شغل مقدار من الوهن ولكل وهن مقدار من الجهل **وقال**
الاحنف بن قيس من ظلم نفسه كان لغيره اظلم ومن هدم دينه كان لمجده اهدم
وذهب قوم الى ان سو الظن بها ابلغ في صلاحها واوفر في اجتهادها لان للنفس
جورا لا ينفك الا بالسخط عليها وغرورا لا ينكشف الا بالتهمة لها لانها مجبولة
تجور ادلالا وتغر مكرا فان لم يسي الظن بها غلب عليه جورها وتموه عليه غرورها
فصار بميسورها قانعا وبالشبهة من افعالها راضيا وقد قالت الحكما من رضي عن
نفسه اسخط عليه الناس **وقال كشاجم**

لم ارض عن نفسي مخافة سخطها … ورضى الفتى عن نفسه اغضابها
لو انني عنها رضيت لقصرت … عما تريد بمثله آدابها
وتبينت آثار ذاك فاكثرت … عذلي عليه وطال فيه عتابها

وقد استحسن قول ابي تمام الطائي وتمنى بالاحسان ظنا لمن هو بابنه وبعرضه
مفتون فلم ير واساته ظنه بالاحسان ظلما ولا استقلال علمه لوما بل راوا ذلك
ابلغ في الفضل وابعث على الازدياد فاذا عرف من نفسه ما تحب وتصوره
منها ما تكره لم يطاوعها فيما تحب اذا كان غيا ولا صرف عنها ما تكره اذا كان رشدا
فقد ملكها بعد ان كان في ملكتها وغلبها بعد ان كان في غلبتها **وقد** روى ابو حازم
عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الشديد من غلب نفسه **وقال**
عوف بن عبد الله اذا عصتك نفسك فيما كرهت فلا تطعها فيما تحب ولا يغرك ثنا من
جهل امرك **وقال** بعض البلغا من قوي على نفسه تناهى في القوة ومن صبر عن شهوة نفسه بالغ
بالغ في المروة فحينئذ ياخذ نفسه عند معرفة ما اكنت وجبوة ما اجنت بتقويم عوجها

واصلاح فسادها فقد روي عن عايشة رضي عنها انها قالت للنبي صلى الله عليه
يا رسول الله متى يعرف الانسان ربه فقال اذا عرف نفسه ثم يراعي منها ما يصلح
واستقام من زيغ يحدث من اغفال او ميل يكون من اهمال ليتم له الصلاح وتستديم
منه الاستقامة فان المغفل بعد المعاناة ضايع والمهمل بعد المراعاة زايغ وسنذكر
من احوال ادب الرياضة والاستصلاح فصولا تحتوي على ما تلزم مراعاته من الاخلاق
وتجب معاناته من الاداب وهي ستة فصول متفرعة الفصل الاول ومنها
مجانبة الكبر والاعجاب لانهما يسلبان الفضايل ويكسبان الرذايل وليس لمن
استوليا عليه اصغا لنصح ولا قبول لتاديب لان الكبر قد يكون بالمنزلة
والعجب عليه يكون بالفضيلة فالمتكبر يجل نفسه عن رتبة المتعلمين والمعجب
يستكثر فضله عن استزادة المتاد بين فلذلك وجب تقديم القول فيهما بابانة
ما يكسبانه من ذم او يوجبانه من لوم فنقول اما الكبر فيكسب المقت ويلهي عن
ويوغر صدور الاخوان وحسبك بذلك سوا عن استقصا ذمه
وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمه العباس انهاك عن الشرك بالله والكبر
فان الله يحتجب منهما وقال اذدشير بن بابك ما الكبر الا فضل حمق لم يدر
صاحبه اين يذهب فصرفه الى الكبر وما اشبه ما قال بالحق حكي ان مطرف
ابن عبد الله بن الشخير نظر الى المهلب بن صفرة وعليه حلة يسحبها ويمشي الخيلا
فقال له يا ابا عبد الله ما هذه المشية التي يبغضها الله ورسوله فقال المهلب
او ما تعرفني قال بلى اعرفك اولك نطفة مذرة واخرك جيفة قذرة وحشوك
فيما بين ذلك بول وعذرة فاخذ ابن عون هذا الكلام فنظمه فقال

عجبت من معجب بصورته	وكان بالامس نطفة مذره
وفي غد بعد حسن هيئته	يصير في اللحد جيفة قذره
وهو على تيهه ونخوته	ما بين ثوبيه يحمل العذره

وقد كان المهلب افضل من ان يخدع نفسه بهذا الجواب ولكنها زلة من زلات

الاسترسال

الاسترسال وخطية من خطايا الادلال واما الحمق الصريح والجهل القبيح
فهو ما حكي عن نافع بن جبير بن مطعم انه جلس في حلقة العلي بن عبد الرحمن
الحرمي وهو يقري الناس فلما فرغ قال اتدرون لم جلست اليكم قالوا جلست
لتسمع قال لا ولكني اردت ان اتواضع لله بالجلوس اليكم فهل يرجى من مثل هذا فضل
او ينفع فيه عقل وقد قال ابن المعتز لما عرف اهل النقص حالهم عند
ذوي الكمال استعانوا بالكبر ليعظم صغيرا ويرتفع حقيرا وليس بفاعل واما
الاعجاب فيخفي المحاسن ويظهر المساوي ويكسب المذام ويصد عن الفضايل وقد
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال العجب ياكل الحسنات كما تاكل النار الحطب
وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه الاعجاب ضد الصواب وآفة الالباب
وقال بزرجمهر النعمة التي يحسد عليها صاحبها التواضع والبلا الذي
لا يرحم صاحبه العجب وقال بعض الحكما عجب المرء بنفسه احد حساد عقله
وليس لما يكسبه الكبر من المقت حد ولا لما ينتهي اليه العجب من الجهل غاية حتى انه
ليطمس من المحاسن ما انتشر ويسلب من الفضايل ما اشتهر وناهيك بسيئة تحبط
كل حسنة وبمذمة تهدم كل فضيلة مع ما يثيره من حنق ويكسبه من حقد وحكي
عن عمر بن حصين قال قيل للحجاج كيف وجدت منزلك بالعراق قال خير منزل لو كان
الله بلغني اربعة فتقربت بدمايهم اليه قيل ومن هم قال مقاتل بن مسمع ولي سجستان
فاتاه الناس فاعطاهم الاموال فلما عزل دخل مسجد البصرة فبسط له الناس
ارديتهم فمشى عليها فقال لرجل ما شاه لمثل هذا فليعمل العاملون وعبيد الله بن زياد
ابن ظبيان التيمي حرب اهل البصرة امر فخطب خطبة اوجز فيها فتنادى الناس من اعراض
المسجد اكثر الله فينا مثلك فقال لقد كلفتم شططا ومعبد بن زرارة كان ذات يوم جالسا
في طريق فمرت به امراة فقالت يا عبد الله كيف الطريق الى موضع كذا فقال يا بغياه
مثلي يكون من عبيد وابو سماك الاسدي اضل راحلته فالتمسها الناس فلم يجدوها
فقال والله لئن لم يرد علي راحلتي لا صليت له ابدا فالتمسها الناس حتى وجدوها

فقال الى قدرت الله رحلتك فضل فقال ان يميني يمين مصر فانظر الى هولاء
كيف افضى بهم العجب الى الحمق حتى صاروا بذلك نكالا في الاولين ومثلا في الآخرين
ولو تصور المعجب والمتكبر ما فطر عليه من جبلة وبلي به من مهنة لخفض جناح
نفسه واستبدل لينا من عتيه وسكونا من تهوره وقال الاحنف بن قيس عجبت
لمن جرى في مجرى البول مرتين كيف يتكبر وقد وصف بعض الشعرا فقال

يا مظهر الكبر اعجابا بصورته ... انظر خلاك فان الطين تثريب
لو فكر الناس فيما في بطونهم ... ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
هل في ابن آدم مثل الراس مكرمة ... وهو بخمس من الاقذار مضروب
انف يسيل واذن ريحها سهك ... والعين مرمصة والثغر ملعوب
يا ابن التراب وماكول التراب غدا ... اقصر فانك ماكول ومشروب

ولحق من كان للكبر مجانبا وللاعجاب مباينا من جل في الدنيا قدره وعظم
فيها خطره حتى انه يستقل بعالي همته كل كثير ويستصغر معها كل كبير وقال محمد
بن علي الباقر لا ينبغي للشريف ان يرى شيا النفسه خطرا فيكون به تابيها وقال
ابن السماك لعيسى بن موسى تواضعك في شرفك اشرف لك من شرفك وكان يقال اسمان
متضادان بمعنى واحد التواضع والشرف وللكبر اسباب فمن اقوى اسبابه علو
اليد ونفوذ الامر وقلة مخالطة الاكفا حكي ان قوما مشوا خلف علي بن ابي طالب
كرم الله وجهه فقال ابعدوا عني خفق نعالكم فانها مفسدة لقلوب نوكى الرجال
ومشوا خلف ابن مسعود فقال ارجعوا فانها ذلة للتابع وفتنة للمتبوع وروي
قيس بن حازم ان رجلا اتى النبي صلى الله عليه وسلم فاخذته الرعدة فقال النبي صلى
الله عليه وسلم هون عليك فانما انا ابن امراة كانت تاكل القديد وانما قال ذلك
حسما لمواد الكبر وقطعا لذرايع الاعجاب وكسرا لاشر النفس وتذليلا لسطوة الاستعلا
ومثل ذلك ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه نادى الصلاة جامعة
فلما اجتمع الناس صعد المنبر وحمد الله تعالى واثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله

النوكى



علية

عليه وسلم ثم قال ايها الناس لقد رايتني ارعى على خالات لي من بني مخزوم
فيقبض لي القبضة من التمر والزبيب فاظل يومي واي يوم فقال له عبد
الرحمن بن عوف والله يا امير المومنين ما زدت على ان قصرت بنفسك فقال له
عمر ويحك يا ابن عوف اني خلوت بنفسي فحدثتني فقالت انت امير المومنين
فمن ذا افضل منك فاردت ان اعرفها نفسها وللاعجاب اسباب فمن اقوى
اسبابه كثرة مدح المتقربين واطرا المتملقين الذين قد جعلوا النفاق عادة
وتكسبا والتملق خديعة وملعبا فاذا وجدوه مقبولا في العقول الضعيفة
اغروا اربابها باعتقادهم وكذبهم وجعلوا ذلك ذريعة الى الاستهزا بهم وقد
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه سمع رجلا يزكي رجلا فقال قطعت مطاه
لو سمعها ما افلح بعدها وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه المدح ذبح وقال
ابن المقفع قابل المدح كمادح نفسه وقال بعض الحكما من رضي ان يمدح بما ليس
فيه فقد امكن الساخر منه وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اياكم والتمادح
فانه الذبح ان كان احدكم مادحا اخاه لا محالة فليقل احسب ولا ازكي على الله احدا
وقيل في ما انزل الله تعالى من الكتب السالفة عجبت لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف
يفرح وعجبت لمن قيل فيه الشر وهو فيه كيف يغضب وقال الشاعر

يا جاهلا غره افراط مادحه ... لا يغلبن جهل من اطراك علمك بك
اثنى وقال بلا علم احاط به ... وانت اعلم بالمحصول من ربتك

وهذا امر ينبغي للعاقل ان يضبط نفسه من ان يستفزها ومنعها من تصديق
المدح لها فان للنفس ميلا الى حب الثنا وسماع المدح وقال بعض الشعرا في معنى ذلك

يهوى الثنا مبرز ومقصر ... حب الثنا طبيعة الانسان

فاذا سامح نفسه في هذه الصورة وتابعها على هذه الشهوة تشاغل بها عن الفضايل
الممدوحة ولهى عن المحاسن الممنوعة فصار الظاهر من مدحه كذبا والباطن
من ذمه صدقا وعند تقابلهما يكون الصدق الزم الامرين وهذه خديعة لا يرتضيها

عاقل ولا يوثرها كيس وليعلم ان المتقرب بالمدح يسرف مع القبول ويكف
مع الاباء فلا يغلبه حسن الظن على تصديق مدح هو اعرف بحقيقته ولتكن تهمة
المادح اغلب عليه فقل مدح كان جميعه صدقا وقل ثنا كان كله حقا ولذلك
كره اهل الفضل ان يطلقوا السنتهم بالثنا والمدح تحرزا من التجوز فيه وتنزها
عن التملق به وقد روي عن مكحول قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
لا تكونوا عيابين ولا تكونوا لعانين ولا متمادحين ولا متماوتين وحكى الاصمعي
ان ابا بكر الصديق رضي الله عنه كان اذا مدح قال اللهم انت اعلم بي من نفسي وانا
اعلم بنفسي منهم اللهم اجعلني خيرا مما يحسبون واغفر لي ما لا يعلمون ولا تواخذني
بما يقولون وقال الشاعر اذا المرء لم يمدحه حسن فعاله ٭ فمادحه يهذي وان كان مفصحا
وربما آل الحث المدح بصاحبه الى ان يصير مادح نفسه اما لتوهمه
ان الناس قد غفلوا عن فضله واخلوا بحقه واما ليخدعهم بتدليس نفسه بالمدح
والاطرا فيعتقدون ان قوله حق متبع وصدق مستمع واما ليتلذذ بسماع
الثنا ويسر نفسه بالمدح والاطرا كما يتغنى لنفسه طربا اذا لم يسمع صوتا مطربا
ولا غنا ممتعا ولاجل ذلك كان هو الجهل الصريح والنقص الفاضح قال بعض الشعرا

وما حسن ان يمدح المرء نفسه ٭ ولكن اعمالا تذم وتمدح
وما كل حين يصدق المرء ظنه ٭ ولا كل اصحاب التجارة تربح
ولا كل من ترجو لغيبك حافظا ٭ ولا كل من ضم الوديعة يصلح

فينبغي ان يسترشد اخوان الصدق والذين هم اصفيا القلوب ومرآة
المحاسن والعيوب على ما ينبهونه عليه من مساويه التي صرفه حسن الظن
عنها فانهم امكن نظرا واسلم فكرا ويجعل ما ينبهونه عليه من مساويه عوضا
عن تصديق المدح وقد روى انس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
انه قال المومن مرآة المومن اذا رأى فيه عيبا اصلحه وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه
يقول رحم الله امرءا اهدى الينا مساوينا وقيل لبعض الحكما اتحب ان تهدى

اليك

اليك عيوبك قال نعم من ناصح وبما يقارب هذا القول ما روي عن ابن عمر
انه قال لابن عباس من ترى ان نوليه حمص قال رجلا صحيحا لك قال فكن انت
ذلك الرجل قال لا ينبغي لي مع سوء ظني بك وسوء ظنك بي وقيل في
منثور الحكم من اظهر عيب نفسه فقد زكاها فاذا قطع اسباب الكبر وحسم مواد
العجب اعتاض بالكبر تواضعا وبالعجب توددا وذلك من اسباب الكرامة واقوى
مواد النعم وابلغ شافعا الى القلوب يعطفها الى المحبة ويثنيها عن البغضة
وقد قال بعض الحكما من برئ من ثلاث نال ثلاثا من برئ من الشر نال العز
ومن برئ من البخل نال الشرف ومن برئ من الكبر نال الكرامة وقال مصعب
ابن الزبير التواضع مصايد الشرف وقيل في منثور الحكم من تواضع كثر
صديقه وقد تحدث المنازل والولايات لقوم اخلاقا مذمومة يظهرها سوء
طباعهم ولاخرين فضايل محمودة يبعث عليها زكي شيمهم لان لتقلب الاحوال
سكرة تظهر من الاخلاق مكنونها ومن السراير مخزونها لا سيما اذا هجمت بغير
تدريج وطرقت من غير تاهب وقد قال بعض الحكما في تقلب الاحوال
تعرف جواهر الرجال وقال الفضل بن سهل من كانت ولايته فوق قدره
تكبر لها ومن كانت ولايته دون قدره تواضع لها وقال بعض البلغا
الناس في الولاية رجلان رجل يجل عن العمل بفضله ومروته ورجل
يجل بالعمل لدناته ونقصه فمن جل عن عمله ازداد به تواضعا وبشرا ومن جل
عنه عمله يلبس به تجبرا وكبرا

الفصل الثاني في حسن الخلق

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله اختار لكم الاسلام دينا فاكرموه
بحسن الخلق والسخا فانه لا يكمل الا بهما وقال الاحنف بن قيس الا اخبركم
بادوأ الداء قالوا بلى قال الخلق الدني واللسان البذي وقال بعض الحكما من ساء
خلقه ضاق رزقه وعلة هذا القول ظاهرة وقال بعض البلغا الحسن الخلق

صحيحا لسنك صح

او كرم

الحسن الخلق من نفسه في راحة والناس منه في سلامة والسيء الخلق الناس منه
في بلاء وهو من نفسه في عناء وقال بعض الحكماء عاشر اهلك باحسن اخلاقك فان
الثوى فيهم قليل قال الشاعر
اذا لم تتسع اخلاق قوم ... يضيق بها الفسيح من البلاد
اذا ما المرء لم يخلق لبيبا ... فليس اللب عن قدم الولاد
فاذا حسنت اخلاق الانسان كثر مصافوه وقل معادوه فتسهلت عليه
الامور الصعاب وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال حسن الخلق
وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الاعمار وقال بعض الحكماء في سعة الاخلاق
كنوز الارزاق وسبب ذلك ما ذكرنا من كثرة الاصفياء المسعدين وقلة الاعداء
المجحفين ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم احبكم الي احسنكم اخلاقا الموطئون اكنافا
الذين يالفون ويولفون وحسن الخلق ان يكون سهل العريكة لين الجانب طلق الوجه
قليل النفور طيب الكلمة وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الاوصاف
فقال اهل الجنة كل هين لين سهل طلق ولما ذكرنا من هذه الاوصاف حد ومقدار
وموضع مستحق كما قال الشاعر اصفو واكدر احيانا لمختبري ... وليس مستحسنا صفو بلا كدر
وليس يريد الكدر الذي هو البذاء وشراسة الخلق فان ذلك ذم لا يستحسن وعيب
لا يرتضى وانما يريد الكف والانقباض في موضع يلام فيه المساعدة ويذم
الموافقة واذا كانت لمحاسن الاخلاق حد ومقدار وموضع مستحق فان
تجاوز بها الحد صارت تملقا وان عدل بها عن موضعها صارت نفاقا والملق
ذل والنفاق لوم وليس لمن وسم بهما ود مبرور ولا اثر مشكور وقد روى
حكيم عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم شر الناس ذو
الوجهين الذي ياتي هولاء بوجه وهولاء بوجه وروى مكحول عن ابي هريرة
رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينبغي لذي الوجهين ان يكون

وحسن الخلق

وجيها

١٠٦

وجيها عند الله قال سعيد بن ابي عروبة لان يكون لي نصف وجه ونصف لسان
على ما فيهما من قبح المنظر وعجز المخبر احب الي من ان اكون ذا وجهين وذا لسانين
وذا قولين مختلفين وقال الشاعر خل النفاق لاهله ... وعليك فالتمس الطريقا
وارغب بنفسك ان ترى ... الا عدوا او صديقا وقال ابراهيم بن محمد
وكم من صديق وده بلسانه ... خؤون بظهر الغيب لا يتذمم
كذلك ذو الوجهين يرضيك شاهدا ... وفي غيبه ان غاب صبر وعلقم
وربما تغير حسن الخلق والعطا الى الشراسة والبذا والوطا الغلظة والطلاقة
عبوسا فمن اسباب ذلك الولاية التي تحدث في الاخلاق تغيرا وعلى الخلطاء تنكرا
اما من لوم طبع او ضيق صدر وقد قيل من تاه في ولايته ذل في عزله وقيل
ذل العزل يضحك من تيه الولاية ومنها العزل فقد يسيء الخلق ويضيق به
الصدر اما لشدة اسف او لقلة صبر حكى حميد الطويل ان عمار بن ياسر
عزل عن ولاية فاشتد ذلك عليه وقال اني وجدتها حلوة الرضاع مرة الفطام ومنها
الغنى فقد تتغير به اخلاق اللئيم بطرا وسوء طرايقه اشرا ولذلك قيل من نال استطال
وانشدني الرياشي غضبان يعلم ان المال ساق له ... ما لم يسقه له دين ولا خلق
فمن يكن عن كرام الناس يسالني ... فاكرم الناس من كانت له ورق
وقال الشاعر فان تكن الدنيا انالتك ثروة ... فاصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر
لقد كشف الاثراء منك خلائقا ... من اللوم كانت تحت ثوب من الفقر
وبحسب ما افسده الغنى كذلك يصلحه الفقر كتب قتيبة بن مسلم الى الحجاج ان اهل الشام
قد التاثوا عليه فكتب اليه ان اقطع عنهم الارزاق ففعل فساءت حالهم فاجتمعوا اليه
فقالوا اقلنا فكتب الى الحجاج فيهم فكتب اليه ان كنت انست منهم رشدا فاجر عليهم
ما كنت تجري واعلم ان الفقر جند الله الاكبر يذل به كل جبار عنيد متكبر وقد
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لولا ان الله تعالى اذل ابن آدم بثلاث
ما طاطا راسه لشيء الفقر والمرض والموت ومنها الفقر قد يتغير به الخلق اما انفة

من ذل الاستكانة او اسفا على فائت الغنى ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم كاد الفقر ان يكون كفرا وكاد الحسد ان يغلب القدر وقال ابو تمام الطائي

واعجب حالات ابن ادم خلقه ... اذا فكرت في كنهه الفكر

فيفرح بالشيء القليل بقاؤه ... ويجزع لما صار وهو له ذخر

وربما تسلى من هذه حاله بالاماني وان قل صدقها فقد قيل ما تصدق الامنية لكن قد يعتاض بها سلوة من هم ومسرة ترتجى وقد قال ابو العتاهية

حرك مناك اذا اغتممت ... فانهن مراوح

وقال اخر

اذا تمنيت مالا بت مغتبطا ... ان المنى راس اموال المفاليس

ومنها الهموم التي تذهل اللب وتشغل القلب فلا تتسع لاحتمال ولا تقوى على صبر وقد قيل الهم كالسم وقال بعض الادبا الحزن كالداء المخزون في فؤاد المحزون وقال الشاعر

هموم بالعيش مقرونة ... فلا تقطع العيش الا بهم

اذا تم امر بدا نقصه ... توقع زوالا اذا قيل تم

اذا كنت في نعمة فارعها ... فان المعاصي تزيل النعم

حلاوة دنياك مسمومة ... فلا تاكل الشهد الا بسم

فكم قد دببت في مهلة ... فلم يعلم الناس حتى هجم

ومنها الامراض التي يتغير بها الطبع كما يتغير بها الجسم فلا تبقى الاخلاق على اعتدال ولا يقدر معها على احتمال وقال المتنبي

آلة العيش صحة وشباب ... فاذا وليا عن المرء ولى

ابدا تسترد ما تهب الدنيا ... فيا ليت جودها كان بخلا

ومنها علو السن وحدوث الهموم والتاثير في الجسد كذلك يكون تاثيره في اخلاق النفس فكما يضعف الجسد عن احتمال ما كان يطيقه من الاثقال فكذلك تعجز النفس عن احتمال ما كانت تصبر عليه من مخالفة الوفاق وضيق الشقاق وكذلك ما ضاهاه قال منصور النميري

ما كنت اوفي شبابي كنه عزته ... حتى مضى واذا الدنيا له تبع

اصبحت لم تطعمي ثكل الشباب ولم ... لشمي تغطيه فالعذر لا يقع

ما كان اقصر ايام الشباب وما ... ابقى حلاوة ذكراه الذي يدع

ما واجه الشيب من عين وان رمقت ... الا لها نبوة عنه ومرتدع

قد كدت تقضي على فوت الشباب اسى ... لولا تعزيك ان الشيب منقطع

فهذه سبعة اسباب ان احدثت سوء الخلق كان عاما وها هنا سبب ان احدث خاص وهو البغض الذي تنفر منه النفس فتحدث نفورا على المبغض فيؤل الى سوء خلق يخصه دون غيره فاذا كان سوء الخلق حادثا بسبب كان زواله مقرونا بزوال ذلك السبب ثم بالضد

الفصل الثالث في الحيا

اعلم ان للخير والشر معادن تعرف بسمات دوالّ كما قالت العرب في امثالها تخبر عن مجهول مرآته وكما قال عمر بن سلم الشاعر

لا تسال المرء عن خلائقه ... في وجهه شاهد من الخبر

فسمة الخير الدعة والحياء وسمة الشر القحة والبذاء وكفى بالحياء خيرا ان يكون على الخير دليلا وكفى بالقحة والبذاء ان يكون الى الشر سبيلا وقد روى حسان ابن عطية عن ابي امامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحيا والعي شعبتان من الايمان والبذا والبيان شعبتان من النفاق وتفسيره ان يكون العي في معنى الصمت والبيان في معنى التشدق كما جا في الحديث الاخر ابغضكم الثرثارون المتفيهقون يعني المتشدقون وروى ابو سلمة عن ابي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الحيا من الايمان والايمان في الجنة والبذا من الجفا والجفا في النار وقال بعض الحكما من كساه الحيا ثوبه لم ير الناس عيبه وقال بعض البلغا حياة الوجه بحيائه كما ان حياة الغرس بمائه وقال بعض الادبا يا عجبا كيف لا تستحي كثيرا مما لا يستحي وتتقي من ما لا يتقى وقال صالح بن عبد القدوس

اذا قل ماء الوجه قل حياؤه ... ولا خير في وجه اذا قل ماؤه

حياءك فاحفظه عليك فانما ... يدل على فعل الكريم حياؤه

وليس لمن سلب الحيا صادٌّ عن قبيح ولا زاجر عن محظور فهو يقدم على ما يشاء
ويأتي بما يهوى وبذلك جاء الخبر روى شعبة عن منصور عن ربعي عن ابن مسعود
البدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مما ادرك الناس من
كلام النبوة الاولى يا ابن ادم اذا لم تستحي فاصنع ما شيت وليس هذا
القول اغراءً منه بفعل المعاصي عند قلة الحيا كما توهمه بعض من جهل معاني
الكلام ومواضعات الخطاب ومثل هذا الخبر قول الشاعر

اذا لم تخش عاقبة الليالي ... ولم تستحي فاصنع ما تشاء
فلا والله ما في العيش خير ... ولا الدنيا اذا ذهب الحياء
يعيش المرء ما استحيا بخير ... ويبقى العود ما بقي اللحاء

واختلف اهل العلم في معنى الخبر فقال ابو بكر محمد بن علي الشاشي
في اصول الفقه معنى هذا الخبر ان من لم يستحي دعاه ترك الحيا ان يعمل ما يشاء
لا يردعه عنه رادع فليستحي المرء فان الحيا يردعه وسمعت من يحكي عن ابي بكر
الرازي من اصحاب ابي حنيفة ان المعنى فيه اذا عرضت عليك افعالك التي
هممت بفعلها لم تستحي منها لحسنها فاعمل ما شيت منها فجعل الحيا حكما على
افعاله وكلا القولين حسن والاول اشبه لان الكلام خرج من النبي صلى الله عليه وسلم
مخرج الذم لا مخرج الامر لكن قد قال في الحديث ما يضاهي القول الثاني وهو
قوله صلى الله عليه وسلم ما احببت ان تسمعه اذناك فأته وما كرهت ان تسمعه
اذناك فاجتنبه ويجوز ان يحمل هذا الحديث على المعنى الصريح فيه ويكون
التاويل الاول في الحديث المتقدم اصح اذ ليس يلزم ان يكون احاديث
رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها متفقة المعاني بل اختلاف معانيها ادخل في الحكمة
وابلغ في الفصاحة اذا لم يضاد بعضها بعضا واعلم ان الحيا في الانسان من
ثلاثة اوجه احدها حياؤه من الله تعالى وجل والثاني حياؤه من الناس والثالث حياؤه
من نفسه فاما حياؤه من الله عز وجل فيكون بامتثال اوامره والكف عن زواجره

روى

روى ابن مسعود ان النبي صلى الله عليه وسلم قال استحيوا من الله حق الحياء
قيل يا رسول الله كيف نستحيي من الله حق الحيا قال من حفظ الرأس
وما حوى والبطن وما وعى وترك زينة الحياة وذكر الموت والبلا
فقد استحيى من الله حق الحيا وهذا الحديث من ابلغ الوصايا قال
اقضى القضاة رحمه الله تعالى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم
في المنام ذات ليلة فقلت يا رسول الله اوصني فقال استحي الله من الله عز وجل
حق الحيا ثم قال تغير الناس قلت وكيف يا رسول الله قال كنت انظر الى الصبي
فارى في وجهه البشر والحيا وانا انظر اليوم اليه فلا ارى ذلك في وجهه ثم
تكلم بعد ذلك بوصايا وعظات تصورتها واذهلني السرور عن حفظها
ووددت لو اني حفظتها فلم يزد صلى الله عليه وسلم بشي قبل الوصية بالحيا
من الله تعالى وجعل ما سلبه الصبي من البشر والحيا لتغير الناس وقد
خص الصبي لان ما يأتيه بالطبع من غير تكلف فصلى الله عليه وسلم من هاد
لامته تابع انذارها وقطع اعذارها واصل تأديبها وحفظ تهذيبها
وجعل لكل عصر حظا من زواجره ونصيبا من اوامره اعان الله على
قبولها بالعمل وعلى استدامتها بالتوفيق وقد روى عن علقمة بن علاثة
قال يا رسول الله عظني فقال النبي صلى الله عليه وسلم استحي من الله استحياءك من
ذي الهيبة من قومك وهذا النوع من الحياء يعني من الله تعالى يكون من قوة
الدين وصحة اليقين ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم قلة الحيا كفر يعني بما
الله تعالى لما فيه من مخالفة اوامره وقال النبي صلى الله عليه وسلم الحياء نظام الايمان
فاذا انحل نظام الشي تبدد ما فيه وتفرق واما حياؤه من الناس فيكون
بكف الاذى وترك المجاهرة بالقبيح وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال من تقوى الله اتقاء الناس وروي ان حذيفة بن اليمان اتى الى
الجمعة فوجد الناس قد انصرفوا فتنكب الطريق عن الناس وقال لا خير فيمن لا

الدنيا صح

يستحي من الناس **وقال بشار بن برد**

ولقد اصرف الفواد عن الشيء ... حياء وحبه في الفواد
امسك النفس بالعفاف وامسى ... ذاكرا في غد حديث الاعادي

وهذا النوع من الحيا قد يكون من كمال المروة وحب الثنا فلذا قال النبي صلى الله عليه وسلم من القى جلباب الحياء فلا غيبة له يعني والله اعلم لقلة مروته وظهور شهوته وروى الحسن عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من مروة الرجل ممشاه ومدخله ومخرجه ومجلسه والفه وجليسه

وقال بعض الشعرا

ورب قبيحة ما حال بيني ... وبين ركوبها الا الحياء
اذا رزق الفتى وجها وقاحا ... تقلب في الامور كما يشاء

وقال اخر

اذا لم تصن عرضا ولم تخش خالقا ... ولم تستحي مخلوقا فما شئت فاصنع

واما حياؤه من نفسه فيكون بالعفة وصيانة الخلوات وقد قال بعض الحكما ليكن استحياوك من نفسك اكثر من استحيايك من غيرك وقال بعض الادبا من عمل في السر عملا يستحي منه في العلانية فليس لنفسه عنده قدر ودعى قوم رجلا كان يالف عشرتهم فلم يجبهم وقال اني دخلت البارحة في الاربعين سنة من سني وانا استحي من نفسي وقد قال بعض الشعرا

فسري كاعلاني وتلك خليقتي ... وظلمة ليلي مثل ضوء نهاري

وهذا النوع من الحيا قد يكون من فضيلة النفس وحسن السريرة فمتى كان حياء الانسان من وجوهه الثلاثة فقد كملت فيه اسباب الخير وانتفت عنه اسباب الشر وصار بالفضل مشهورا وبالجميل مذكورا وقال بعض الشعرا

واني ليثنيني عن الجهل والخنا ... وعن شتم ذي القربى خلايق اربع
حياء واسلام وتقوى وانني ... كريم ومثلي من يضر وينفع

وان اخل

وان اخل باحد وجوه الحيا لحقه من النقص باخلاله بقدر ما كان يلحقه من الفضل بكماله وقد قال الرياشي يقال ان ابا بكر الصديق رضي الله [عنه] كان يتمثل بهذا الشعر

وحاجة دون اخرى قد سمحت بها ... جعلتها للتي اخفيت عنوانا
اني كاني ارى من لا حياء له ... ولا امانة وسط القوم عريانا

الفصل الرابع في الحلم والغضب

وروى محمود بن حارث ان جبريل عليه السلام نزل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد اني اتيتك بمكارم الاخلاق في الدنيا والاخرة خذ العفو وامر بالعرف واعرض عن الجاهلين وروى سفيان بن عيينة ان النبي صلى الله عليه وسلم حين نزلت هذه الاية خذ العفو وامر بالعرف قال يا جبريل ما هذا قال ما ادري حتى اسال العالم ثم عاد جبريل عليه السلام وقال يا محمد ان ربك يامرك ان تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك وروى هشام عن الحسن ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ايعجز احدكم ان يكون كابي ضمضم كان اذا خرج من منزله قال اللهم اني قد تصدقت بعرضي على عبادك وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله يحب الحليم الحيي ويبغض الفاحش البذي وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه في الجنة من حلم ساد ومن تفهم ازداد وقال بعض الادبا من غرس شجرة الحلم اجتنى ثمرة السلم وقال بعض البلغاء ما ذب عن الاعراض كالصفح والاعراض وقال الشاعر

احب مكارم الاخلاق جهدي ... واكره ان اعيب وان اعابا
واصفح عن سباب الناس حلما ... وشر الناس من يهوى السبابا
ومن هاب الرجال تهيبوه ... ومن حقر الرجال فلن يهابا

فالحلم من اشرف الاخلاق واحقها بذوي الالباب لما فيه من سلامة العرض وراحة الجسد واجتلاب الحمد وقد قال علي بن ابي طالب كرم الله

وعن الحلم والعفو

انظر الجواب عن قوله تعالى خذ العفو وامر بالعرف [illegible]

وجهه اول عوض الحليم عن حلمه ان الناس انصاره وحد الحلم ضبط النفس
عن هيجان الغضب وهذا يكون لباعث وسببه واسباب الحلم ...
الحلم الباعثة على ضبط النفس عشرة احدها الرحمة وذلك من خير يوافق
رقة ورحمة وقد قال في منثور الحكم من اوكد اسباب الحلم رحمة
الجهال وقال ابو الدرداء لرجل اسمعه كلاما يا هذا لا تغرقن في سبنا ودع
للصلح موضعا فانا لا نكافي من عصى الله فينا باكثر من ان نطيع الله فيه وشتم
رجل الشعبي فقال ان كنت كما قلت فغفر الله لي وان لم اكن كما قلت فغفر الله لك
واغتاظت عايشة رضي الله عنها على خادم لها ثم رجعت الى نفسها فقالت
لله در التقوى ما تركت لذي غيظ شفا وقسم معاوية قطفا فاعطى شيخا من
اهل دمشق قطيفة فلم تعجبه فحلف ان يضرب بها راس معاوية فاتاه فاخبره
فقال له معاوية اوف بنذرك وليرفق الشيخ بالشيخ والثاني من اسبابه
القدرة على الانتصار وذلك من سعة الصدر وحسن الثقة وقد روي عنه
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا قدرت على عدوك فاجعل عفوك
شكر للقدرة وقال بعض الحكما ليس من العفوية من لا يجد امتناعا من
السطوة وقال بعض البلغا احسن المكارم عفو الكريم المقتدر وجود المقتدر
والثالث من اسبابه الترفع عن السباب وذلك من شرف النفس وعلو الهمة
كما قالت الحكما شرف النفس ان تحمل المكاره كما تحمل المكارم وقد قيل ان الله تعالى
سمى يحيى سيد الحكما وقال الشاعر

لن يبلغ المجد اقوام وان كرموا ⁂ حتى يذلوا وان عزوا الاقوام
ويشتموا فترى الالوان مسفرة ⁂ لا صفح ذل ولكن صفح احلام

والرابع من اسبابه الاستهانة بالسباب فذلك عن ضرب من ضروب الكبر
والاعجاب كما حكي عن مصعب بن الزبير انه لما ولي العراق فامر منادي فنادى
ابن عمرو بن جرموز وهو الذي قتل اباه الزبير فقيل له ايها الامير انه قد
تباعد في الارض فقال افظن الجاهل اني اقتله بابي عبد الله فليظهر امنا

بيمينك

الكرم

سيد الحكما

والباعث

١١٠

ولياخذ عطاه موفرا فعد الناس ذلك من مستحسن الكبر او مثل ذلك
قول بعض الزعما في شعره

اوكلما طن الذباب طردته ⁂ ان الذباب اذا على كريم
واكثر رجل من ذم الاحنف وهو لا يجيبه فقال والله ما منعه من جوابي
الا هواني عليه وفي مثله يقول الشاعر

نجا بك لومك منجا الذباب ⁂ حمته مقاذره ان ينالا

وسب رجل ابن هبيرة فاعرض عنه فقال له الرجل اياك اعني فقال وعنك
اعرض وفي مثله يقول الشاعر

فاذهب فانت طليق عرضك انه ⁂ عرض عززت به وانت ذليل

وقال عمر بن علي

اذا نطق السفيه فلا تجبه ⁂ فخير من اجابته السكوت
سكت عن السفيه فظن اني ⁂ عييت عن الجواب وما عييت

والخامس من اسباب الاستحيا من جزا الجواب وهذا يكون من صيانة
النفس وكمال المروة وقد قال بعض الحكما احتمال السفيه ايسر من
التحلي بصورته والاغضا عن الجاهل خير من مشاكلته وقال بعض
الادبا ما افحش حليم ولا اوحش كريم وقال لقيط بن زرارة شعر

فقل لبني سعد فما لي وما لكم ⁂ ترقون مني ما استطعتم واعتق
وعركم اني باحسن شيمة ⁂ بصير واني بالفواحش اخرق
وان تك قد فاحشتني فقهرتني ⁂ هنيا مريا انت بالفحش احذق

والسادس من اسبابه التفضل على السباب وهذا يكون من الكرم وحب
التالف كما قيل للاسكندر ان فلانا وفلانا ينتقصانك ويثلبانك
فهلا عاقبتهما فقال هما بعد العقوبة اعذر في تنقصي وثلبي فكان هذا
تفضلا منه وتالفا وقد حكي عن الاحنف بن قيس انه قال ما عادا

لعله مشاكلته

احد قط الا اخذت في امره باحد ثلاث خصال ان كان اعلا مني عرفت له قدره
وان كان دوني رفعت نفسي وقدري عنه وان كان نظيري تفضلت عليه
فاخذه الخليل بن احمد فنظمه شعرا فقال

سالزم نفسي الصفح عن كل مذنب … وان عظمت منه الي الجرايم
فما الناس الا واحد من ثلاثة … شريف ومشروف ومثلي مقاوم
فاما الذي فوقي فاعرف قدره … فاتبع فيه الحق والحق لازم
واما الذي دوني فاعفو وانما … اصون به عرضي وان لام لايم
واما الذي مثلي فان زل او هفا … تفضلت ان الفضل بالعز حاكم

والسابع من اسبابه استنكاف السباب وقطع الجواب وهذا يكون من
الحزم كما حكي ان رجلا قال للضرار بن القعقاع والله ان قلت واحدة
لتسمعن عشرا فقال ضرار والله لو قلت عشرا لم تسمع واحدة وحكي
عن علي بن ابي طالب كرم الله وجهه انه قال لعامر بن مرة الزهري من احمق
الناس قال من ظن انه اعقل الناس قال صدقت قال فمن اعقل الناس
قال من لم يتجاوز الصمت في عقوبة الجهال وقال الشعبي ما ادركت
امي فابرها ولكن لا اسب احدا فيسبها وقال بعض الحكما اعراضك
صون اعراضك قال بعض الشعرا

وفي الحلم ردع السفيه عن الاذا … وفي الخرق اغرا فلا تك اخرقا
فتندم اذ لا تنفعنك ندامة … كما ندم المغبون لما تفرقا

وقال اخر

قل ما بدا لك من زور ومن كذب … حلمي اصم واذني غير صماء

والثامن من اسبابه الخوف من العقوبة على الجواب وهذا يكون من
ضعف النفس وربما اوجبه الراي واقتضاه الحزم وقد قيل في منثور الحكم
الحلم حجاب الافات وقال الشاعر

ارفق

ارفق اذا خفت من ذي هفوة خرقا … ليس الحليم لمن في امره خرق

والتاسع من اسبابه الرعاية ليد سالفة او حرمة لازمة وهذا يكون من
الوفا وحسن العهد وقد قيل في منثور الحكم اكرم الشيم ارعاها للذمم

وقال الشاعر

ان الوفا على الكرام فريضة … واللوم مقرون بذي الاخلاف
وترى الكريم لمن يعاشر منصفا … وترى اللئيم مجانب الانصاف

والعاشر من اسبابه المكر وتوقع الفرص الخفية وهذا يكون من الدها
وقيل في منثور الحكم من ظهر غضبه قل كيده وقال بعض الادبا غضب
الجاهل في قوله وغضب العاقل في فعله وقال بعض الحكما اذا سكت عن
الجاهل فقد اوسعته جوابا واوجعته عقابا وقال اياس بن قتادة

تعاقب ايدينا ويحلم راينا … ونشتم بالافعال لا بالتكلم

وقال اخر

والكف عن شتم اللئيم تكرما … اضر له من شتمه حين يشتم

فهذه عشرة اسباب تدعوا الى الحلم وبعض الاسباب افضل من بعض وليس
اذا كان بعض اسبابه مفضولا لم يقتض ان يكون ما ينتجه من الحلم مذموما وانما
الاولى بالانسان ان يدعو الى الحلم افضل اسبابه وان كان الحلم كله فضلا
فان عري من احد هذه الاسباب كان ذلا ولم يكن حلما لانا قد ذكرنا في حد
الحلم انه ضبط النفس عن هيجان الغضب فاذا فقد الغضب بسماع ما
يغضب كان ذلك من ذلة النفس وقلة الحمية ولذلك قالت الحكما
ثلاثة لا يعرفون الا في ثلاثة مواطن لا يعرف الجواد الا في العسرة ولا الشجاع
الا في الحرب ولا الحليم الا في الغضب وقال الشاعر

وليست الاحلام في حال الرضى … وانما الاحلام في حال الغضب

وقال اخر

من يدعي الحلم اغضبه لتعرفه … لا يعرف الحلم الا ساعة الغضب

وانشد النابغة الجعدي بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولا خير في حلم اذا لم يكن له ... بوادر تحمي صفوه ان يكدرا
ولا خير في جهل اذا لم يكن له ... حليم اذا ما اورد الامر اصدرا

فلم ينكر عليه صلى الله عليه وسلم قوله عليه ومن فقد الغضب في الاشيا المغضبة
حتى استوت حالتاه قبل الاغضاب وبعده فقد عدم من فضايل النفس
الشجاعة والانفة والحمية والغيرة والاخذ بالثار والدفاع لانها خصال
مركبة من الغضب فاذا عدمها الانسان نهان بها ولم يكن لباقي فضايله
في النفوس موضعا ولا لوفور حلمه في القلوب موقعا وقال المنصور اذا
كان الحلم مفسدة كان العفو معجزة وقال بعض الحكما العفو يفسد من
اللئيم بقدر اصلاحه من الكريم وقال عمرو بن العاص اكرموا سفهاكم
فانهم يكفونكم العار والنار وقال مصعب بن الزبير ما قل سفهاء قوم
الا ذلوا وقال ابو تمام الطائي

والحرب تركب راسها في مشهد ... عدل السفيه به بالف حليم

وليس هذا القول اغرا بتحكيم الغضب والانقياد اليه عند حدوث ما يغضب
فيكتسب بالانقياد للغضب من الرذايل اكثر مما يسلبه عدم
الغضب من الفضائل ولكن اذا ثار به الغضب عند هجوم ما يغضب
كف سورته بحزمه واطفا ثائرته بحلمه وكل من استحق المكافاة الى
غيره فلن يعدم مسيء مكافيا كما لن يغلب محسن مجازيا والعرب تقول
دخل بيتا ما خرج منه اي ان خرج منه خير دخله خير وان خرج منه
شر دخله شر وانشد ابن دريد عن ابي حاتم

اذا امن الجهال جهلك مرة ... وعرضك للجهال غنم من الغنم
فعم عليه الحلم والجهل والقه ... بمنزلة بين العداوة والسلم
اذا انت جازيت السفيه كما جزا ... فانت سفيه مثله غير ذي حلم

انظر قوله ومن فقد الغضب في الاشياء المغضبة الخ

انظر قول عمرو بن العاص اكرموا سفهاكم فانهم يكفونكم العار والنار

لن يعدم محسن

ولا تقضين عرض السفيه وداره ... بحلم فان اعيا عليك فبالصرم
فيرجوك تارات ويخشاك تارة ... وياخذ فيما بين ذلك بالحزم
فان لم تجد بدا من الجهل فاستعن ... عليه بجهال فذاك من العزم

وهذه من احكم ابيات وجدتها في تدبير الحلم والغضب وهذا التدبير
انما يستعمل فيما لا يجد الانسان بدا من مقاربته ولا سبيلا الى اطراحه
ومتاركته اما لخوف شره وللزوم امره فاما من امكن اطراحه وابعاده
فالاهوان به اولى والاعراض اصوب فاذا كان على ما وصفت استفاد
بتحريك الغضب فضايله وامن بكف نفسه عن الانقياد له رذايله
وصار الحلم مدبرا للامور المغضبة بقدر لا يعتوره نقص بعدم
الغضب ولا يلحقه زيادة بفقد الحلم ولا عزب عنه الحلم حتى انقاد
لغضبه ضل عنه وجه الصواب فيه وضعف رايه عن خبرة اسبابه ودواعيه
حتى يصير بليد الراي مغمور الروية مقطوع الحجة مسلوب العزم
قليل الحيلة مع ما يناله من اثر ذلك في نفسه وجسده حتى يصير اضر
عليه مما غضب له وقد قال بعض الحكما من كثر شططه كثر غلطه وروي
ان سليمان قال لعلي بن ابي طالب كرم الله وجهه ما الذي يباعدني من غضب
الله تعالى قال ان لا تغضب وقال بعض السلف اقرب ما يكون العبد
من غضب الله اذا غضب وقال بعض الادبا ما هيج جاهك كغيظ
اجاشك وقال رجل لبعض الحكما عظني فقال لا تغضب فينبغي
لذي اللب السوي والحزم التوي ان يتلقى قوة الغضب بحلمه
فيصدها ويقابل دواعي شدته فيردها ليحظى باجل الخيرة
اغبابه ويسعد بحميد العاقبة وقال بعض الادبا في اعضائك
راحة وسبب الغضب هجوم ما تكرهه النفس ممن دونها وسبب
الحزن هجوم ما تكرهه ممن فوقها والغضب يتحرك من داخل الجسد

فالهوان

الى خارجه والحزن يتحرك من خارج الجسد الى داخله ولذلك قيل
الحزن ولم يقتل الغضب لبروز الغضب وكمون الحزن وصار الحادث
عن الغضب السطوة والانتقام والحادثات عن الحزن المرض والاسقام
لكمونه فمن اجل ذلك افضى الحزن الى الموت ولم يفض الغضب فهذا
فرق بين الحزن والغضب واعلم ان التسكين الغضب اذا هجم اسبابا
يستعان بها على الحلم منها ان يذكر الله تعالى فيدعوه ذكره الى الخوف منه و
يبعثه الخوف منه على الطاعة له فيرجع الى ادبه وياخذ بيده فعند
ذلك يزول الغضب قال تعالى واذكر ربك اذا نسيت قال عكرمة
يعني اذا غضبت وقال تعالى واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ
بالله ومعنى ينزغنك يغضبك فاستعذ بالله انه سميع عليم يعني
سميع بجهل من يجهل عليك عليم بما يذهب عنك الغضب وذكر ان في التوراة
مكتوب يا ابن آدم اذكرني حين تغضب اذكرك حين اغضب فلا امحقك
فيمن امحق وحكي ان بعض ملوك الفرس كتب كتابا ودفعه الى حاجب
له وقال اذا غضبت فناولنيه وكان فيه مكتوب ما لك والغضب انما
انت بشر ارحم من في الارض يرحمك من في السما وقال بعض الحكما من
ذكر قدرة الله لم يستعمل قدرته في ظلم عباد الله وقال عبد الله بن مسلم
ابن محارب لهارون الرشيد يا امير المومنين انت بين يديه اذل مني بين
يديك وبالذي هو اقدر على عقابك منك على عقابي الا عفوت عني
فعفا عنه لما ذكره قدرة الله عز وجل وروي ان رجلا شكى الى رسول الله
صلى الله عليه وسلم القسوة فقال اطلع في القبور واعتبر بالنشور وكان
بعض ملوك الطوايف اذا غضب القى عنده مفاتيح ترب الملوك فيزول
عنه غضبه ولذلك قال عمر بن الخطاب من اكثر ذكر الموت رضي من الدنيا
باليسير ومنها ان ينتقل عن الحالة التي هو فيها الى حالة غيرها فيزول عنه

الغضب

١١٣

الغضب بتغير الاحوال والتنقل من حال الى حال وكان هذا مذهب
المامون اذا غضب او شتم وكانت الفرس اذا غضب القايم فليجلس
واذا غضب الجالس فليقم ومنها ان يتذكر ما يؤول اليه الغضب من
الندم ومذمة الانتقام وكتب ابرويز الى ابنه شيرويه ان كلمة منك
تسفك دما وان اخرى تحقن دما وان نفاذ امرك مع ظهور كلامك
فاحترس في غضبك من قولك ان تخطي ومن لونك ان يتغير ومن جسدك
ان يخف فان الملوك تعاقب قدرة وتعفو حلما قال بعض الحكما الغضب
على من لا يملك عجز وعلى من تملك لوم وقال بعض الادبا اياك وعزة
الغضب فانها تفضي الى ذلة وقال بعض الشعرا
اذا ما اعترتك في الغضب العزة … فاذكر تذلل الاعتذار
ومنها ان يذكر ثواب العفو وجزاء الصفح فيقهر نفسه على الغضب رغبة
في الجزاء والثواب وحذرا من استحقاق الذم والعقاب روي عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال ينادي مناد يوم القيمة من له اجر على الله عز
وجل فليقم فيقوم العافون عن الناس ثم تلى فمن عفا واصلح فاجره
على الله وقال رجا بن حياة لعبد الملك بن مروان في اسارى ابن الاشعث
ان الله عز وجل [illegible] قد اعطاك ما تحب من الظفر فاعط الله ما يحب
من العفو وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الخير ثلاث خصال
من كن فيه استكمل الايمان من اذا رضي لم يدخله رضاه الى باطل واذا
غضب لم يخرجه غضبه عن حق واذا قدر عفا واسمع رجل عمر بن عبد العزيز
كلاما فقال عمر اردت ان يستفزني الشيطان بعزة السلطان فانال منك
اليوم ما تناله مني غدا انصرف يرحمك الله ومنها ان يتذكر انعطاف القلوب
عليه وميل النفوس اليه فلا يرى اضاعة ذلك بتغير الناس عنه فيرغب في
التالف وجميل الثنا وروى ابو ليلى عن عطية عن ابي سعيد قال قال

لعله لبروز

سكين

رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ازداد احد بعفو الا عزا فاعفو يعزكم
الله وقال بعض البلغاء ليس من عادة الكرام سرعة الانتقام ولا من شروط
الكرم ازالة النعم وقال المامون لابرهيم بن المهدي اني شاورت في
امرك فاشاروا علي بقتلك الا اني وجدت قدرك فوق ذنبك فكرهت
القتل للازم حرمتك فقال يا امير المومنين ان المشير قد اشار بما جرت به
العادة في السياسة الا انك ابيت ان تطلب النصر الا من حيث عودته من
العفو فان عاقبت فلك نظير وان عفوت فلا نظير لك وانشا يقول

البرني منك وطا العذر عندك لي ... فيما فعلت فلم تعذل ولا تلم
وقام علمك بي فاحتج عندك لي ... مقام شاهد عدل غير متهم
لئن جحدتك معروفا مننت به ... اني لفي اللوم احظى منك في الكرم
تعفو بعدل وتسطو ان سطوت به ... فلا عدمتك من عاف ومنتقم

الفصل الخامس في الصدق والكذب

قال الله تعالى وهو اصدق القائلين ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين
وقال عز وجل انما يفتري الكذب الذين لا يومنون بايات الله وروي
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال للحسن بن علي دع ما يريبك الى ما لا
يريبك فان الكذب ريبة والصدق طمانينة وروي عن النبي صلى الله
عليه وسلم انه قال رحم الله امرا اصلح من لسانه وقصر من عنانه ولزم
طريق الحق بقوله ولم يعود الخطل مفصله وروي صفوان بن سليم قال
قيل للنبي صلى الله عليه وسلم ايكون المومن جبانا قال نعم قيل ايكون
كذابا قال لا وقال ابن عباس في قوله تعالى ولا تلبسوا الحق بالباطل اي لا
تخلطوا الصدق بالكذب وقيل في منثور الحكم الكذاب لص لان اللص
يسرق مالك والكذاب يسرق عقلك وقال بعض الحكما الخرس خير من الكذب
وصدق اللسان اول السعادة وقال بعض البلغاء الصادق مصان جليل

والكاذب

والكاذب مهان ذليل وقال بعض الادبا لا سيف كالحق ولا عون كالصدق

وقال بعض الشعرا

وما شي اذا فكرت فيه ... باذهب للمروة والجمال
من الكذب الذي لا خير فيه ... وابعد بالبهاء من الرجال

والكذب جماع كل شر واصل كل ذم لسوء عواقبه وخبث نتايجه
لانه ينتج النميمة والنميمة تنتج البغضاء والبغضاء تؤول الى العداوة
وليس مع العداوة امن ولا راحة ولذلك قيل من قل صدقه قل صديقه
والصدق والكذب يدخلان الاخبار الماضية كما ان الوفا والخلف
يدخلان المواعيد المستقبلة فالصدق هو الاخبار عن الشي على ما هو
عليه والكذب هو الاخبار عن الشي بخلاف ما كان عليه ولكل واحد منهما
دواع فدواعي الصدق لازمة ودواعي الكذب عارضة لان الصدق
يدعو اليه العقل الموجب والشرع المؤكد والكذب يمنع منه العقل
ويصد عنه الشرع ولذلك جاز ان يستفيض الاخبار الصادقة حتى
تصير متواترة ولم يجز ان يستفيض الاخبار الكاذبة لان اتفاق الناس
في الصدق والكذب انما هو لاتفاق الدواعي فدواعي الصدق يجوز ان
يتفق الجمع الكثير عليها حتى اذا نقلوا خبرا وكانوا عددا ينتفي عن
مثلهم المواطاة وقع في النفوس صدقه لان الدواعي اليه نافعة واتفاق
الناس في الدواعي النافعة ممكن ولا يجوز ان يتفق العدد الكثير الذي
لا يمكن مواطاة مثلهم على نقل يكون كذبا لان الدواعي اليه غير نافعة
وربما كانت ضارة وليس في جاري العادة ان يتفق الجمع الكثير على
دواع غير نافعة فلذلك جاز اتفاق الناس على الصدق لجواز اتفاق
دواعيهم ولم يجز الكذب واذا كان الصدق والكذب دواع فلا بد من ذكر
ما سنح به الخاطر من دواعيهما اما دواعي الصدق فمنها العقل لانه

صح

موجب لقبح الكذب لا سيما اذا لم يجلب نفعا او يدفع ضررا والعقل يدعو
الى فعل ما كان مستحسنا ويمنع عن اتيان ما كان مستقبحا وليس ما استحسن
من مبالغات الشعرا حتى صارت كذبا صريحا استحسانا للكذب في العقل
كالذي انشد به الازدي لبعض الشعرا

توهمه فكري فاصبح خده ∴ وفيه مكان الوهم من فكرتي اثر
وصافحه كفي فالم كفه ∴ فمن لمس كفي في انامله عقر
ومر بقلبي خاطر فجرحته ∴ ولم ار شيئا قط يجرحه الفكر

وكقول العباس ابن الاحنف وان كان دون هذه المبالغة شعر

تقول وقد كتبت دقيق خطي ∴ اليها لم تجنبت الجليلا
فقلت لها نحلت فصار خطي ∴ مساعدة لكاتبه نحيلا

لانه خرج مخرج المبالغة في التشبيه والاقتدار على صيغة الشعر وان
شواهد الحال تخرجه عن تلبيس الكذب فلذلك استحسن في الصيغه
ولم يستقبح في العقل وان كان الكذب مستقبحا في العقل ومنها الدين
الدين الوارد باتباع الصدق وحظر الكذب لان الشرع لا يجوز ان
يرد برخص ما حظره العقل وقد جاء الشرع زايدا على ما اقتضاه
العقل من حظر الكذب لان الشرع ورد بحظر الكذب وان جر نفعا
او دفع ضررا ومنها المروة فانها مانعة من الكذب باعثة على الصدق
لانها قد تمنع من فعل ما كان مستكرها فاولى ان تمنع من فعل ما كان
مستقبحا ومنها حب الثنا والاشتهار بالصدق حتى لا يرد عليه
قول ولا يلحقه ندم وقد قال بعض البلغا ليكن مرجعك الى الحق ومنزعك
الى الصدق فالحق اقوى معين والصدق افضل قرين وقد قال بعض الشعر

عود لسانك الصدق تحظ به ∴ ان اللسان لما عودت معتاد
موكل بتقاضي ما سننت له ∴ في الخير والشر فانظر كيف تزداد

فاما دواعي الكذب فمنها اجتلاب النفع واستدفاع الضرر فيرى ان
الكذب اسلم واغنم فيرخص لنفسه فيه اغترارا بالخدع واستشفافا
للطمع وربما كان الكذب ابعد لما يامل واقرب لما يخاف لان القبيح لا يكون
حسنا والشر لا يصير خيرا وليس يجنى من الشوك العنب ولا من الكرم الحنظل
وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال تحروا الصدق وان رايتم ان
فيه الهلكة فان فيه النجاة وتجنبوا الكذب وان رايتم ان فيه النجاة فان
فيه الهلاك وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لان يضعني الصدق وقلما
يفعل احب الي من ان يرفعني الكذب وقلما يفعل وقال بعض الحكما الصدق
منجيك وان خفته والكذب مرديك وان امنته وقال الجاحظ الصدق
والوفاء توءمان فهن نماء كل دين وصلاح كل دنيا واضدادهن سبب
كل فرقة واصل كل فساد ومنها ان يوثر ان يكون حديثه مستعذبا
وكلامه مستظرفا غرايبه معوزة وطرايفه معجزة وهذا النوع اسوء حالا
مما قبل لانه يصدر عن مهانة النفس ودناءة الهمة وقد قال الجاحظ
لم يكذب احد الا لصغر قدر نفسه عنده وقال ابن المقفع لا تتهاون بارسال
الكذبة من الهزل فانها تسرع الى ابطال الحق ومنها ان يقصد بالكذب
للتشفي من عدوه فيشتمه بقبايح يخترعها عليه ويشتمه بفضايح ينسبها
اليه ويروي ان معرة الكذب غنم وان ارسالها في العدو سهم وسم وهذا
اسوء حالا من النوعين الاولين لانه قد جمع بين الكذب المعر والشر
المضر ولذلك ورد الشرع برد شهادة العدو ومنها ان يكون دواعي
الكذب قد ترادفت عليه حتى الفها فصار الكذب له عادة ونفسه اليه
منقادة حتى لو رام مجانبة الكذب عسر عليه لان العادة طبع ثان وقد
قالت الحكما من استحلى الكذب عسر فطامه وقيل في منثور الحكم لا يلزم
الكذب شيا الا غلب عليه واعلم ان للكذب قبل خبره امارات دالة

عليه ومنها انك اذا القته الحديث تلقيه ولم تكن بين ما القته وبين ما
اورد فرق عنده ومنها انك اذا استكثته فيه تشكك حتى يكاد يرجع
عنه ولولاك ما خالجه الشك فيه ومنها انك اذا رددت عليه قوله
حصر وارتبك لم يكن عنده نصرة ولا برهان الصادقين ولذلك قال علي
كرم الله وجهه الكذاب كالسراب ومنها ما يظهر من دنية الكذب بين
ويتهم عليه من ذكر المتهمين لان هذه امور لا يمكن الانسان دفعها
عن نفسه لما في الطبع من اثارتها ولذلك قالت الحكما العينان
انم من اللسان وقال بعض البلغاء الوجوه مرايا تريك اسرار البرايا
وقال بعض الشعرا • تريك اعينهم ما في صدورهم • ان القلوب يودي سرها النظر •
فاذا وسم بالكذب ونسب اليه شوارد الكذب المجهولة واضيفت
الى كاذيبه زيادات مفعولة حتى يصير الكاذب مكذوبا عليه فيجمع
بين معرة الكذب منه ومضرة الكذب وقال الشاعر

• حسب الكذوب من البليه ؛ بعض ما يحكى عليه •
• ما ان سمعت بكذبة ؛ من غيره نسبت اليه •

ثم ان تحرى الصدق اتهم وان جانب الكذب حتى لا يعتقد لحديث
بصدق ولا كذب مستنكر قال الشاعر

• اذا عرف الكذاب بالكذب لم يكن ؛ يصدق في شي وان كان صادقا •
• ومن افة الكذاب نسيان كذبه ؛ وتلقاه ذا حفظ اذا كان حاذقا •

وقد وردت السنة في ارخاص الكذب اذا كان لاصلاح ذات البين
على وجه التورية والتاويل دون التصريح به فان السنة لا يجوز ان
ترد باباحة الكذب لما فيه من التنفير وانما ذلك على طريق التورية و
التعريض كما سئل النبي صلى الله عليه وسلم وقد تطرف بدرا وانفرد
عن اصحابه فقال له رجل ممن انت فقال انا من ماء فورى عن الاخبار

بنسبه بامر محتمل وظن السائل انه عنى القبيلة للتسوية الى ذلك
وانما اراد رسول الله صلى الله عليه وسلم انه من الماء الذي خلق منه
الانسان فبلغ ما احب من اخفاء نفسه وصدق في خبره وكالذي
حكي عن ابي بكر الصديق رضي الله عنه انه كان يسير خلف رسول
الله صلى الله عليه وسلم حتى هاجر معه فلقاه العرب وهم يعرفون
ابا بكر ولا يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون يا ابا بكر من
هذا فيقول ليهديني السبيل فيظنون انه يعني هداية الطريق وهو
انما يريد سبيل الخير فيصدق في قوله ويوري عن مراده وقد روي
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال في اي المعاريض المندوحة
عن الكذب وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المعاريض ما يكتفي
ان يعرض الرجل عن الكذب وقال بعض اهل التاويل في قوله تعالى لا
تواخذني بما نسيت انه لم ينس ولكنها معاريض وقال ابن سيرين
الكلام اوسع من ان يصرح فيه بالكذب واعلم ان من الصدق ما
يقوم مقام الكذب في القبح والمعرة ويزيد عليه في الاذى والمضرة وهو
الغيبة والنميمة والسعاية فانها خيانة وهتك ستر يحدثان عن حسد
وعذر وقال الله تعالى ولا يغتب بعضكم بعضا ايحب احدكم ان ياكل لحم
اخيه ميتا يعني انه كما لا يحل لحم اخيه ميتا لا تحل غيبته حيا وروي ان
امراتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعلتا تغتابان الناس
فاخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال صامتا عما احل الله لهما وافطرتا
على ما حرم الله عليهما وروت اسما بنت زيد قالت قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم من ذب عن لحم اخيه بظاهر الغيب كان حقا على الله ان يحرم
لحمه على النار وقال عدي بن حاتم الغيبة رعي اللئام وكان الحسن البصري
يقول الغيبة فاكهة الغسال وقال رجل لابن سيرين اني اغتبتك فاجعلني

ما تفضي على تحوية اعلان الحق من الصدق تقوم مقام الكذب الخ

في حل فقال كما احب ان احل لك ما حرم الله عليك وقال الشاعر
لا تلتمس من مساوي الناس ما ستروا ۞ فيهتك الله سترا من مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم اذا ذكروا ۞ ولا تعب احدا منهم بما فيكا
وربما عذر المغتاب نفسه بان يقول حقا وبجلى فسقا ويستشهد بما
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ثلاثة ليست غيبتهم بغيبة الامام
الجائر وشارب الخمر والمعلن بفسقه فيبعد عن الصواب ويجانب
الادب لانه وان كان بالغيبة صادقا فقد هتك سترا كان بصونه اولى
وجاهر من اسر واخفى وربما عاد بالمعتاد ذلك الى اظهار ما يستره و
المجاهرة بما كان يضمره فلم يؤيد ذلك الا فسادا واخلاقا من غير ان يكون
فيه صلاح لغيره وقد قيل لانوشروان ما الذي لا خير فيه
قال ما ضرني ولم ينفع غيري او ضر غيري ولم ينفعني لا اعلم فيه خيرا وقيل
في منثور الحكم لا تبد من العيوب ما ستره علام الغيوب وقد روى العلاء بن
عبد الرحمن عن ابيه عن ابي هريرة قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن
الغيبة قال هو ان تقول لاخيك ما فيه فان كنت صادقا فقد اغتبته وان
كنت كاذبا فقد بهته وقد قال عبد الرحمن بن زيد في قوله تعالى يا ايها
الذين امنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم ولا نساء من
نساء عسى ان يكن خيرا منهن انه استهزا المسلم بمن اعلن بفسقه وقد
دخلت امراة على النبي صلى الله عليه وسلم تستفتيه فلما خرجت قالت عائشة
يا رسول الله ما اقصرها قال مهلا اياك والغيبة قالت يا رسول الله انما
قلت ما فيها قال اجل ولولا ذلك لكان بهتانا وسئل بعض الادبا عن صفة
اللئيم فقال اللئيم اذا غاب عاب واذا حضر اغتاب واما الخبر فمحمول على الانكار لا فعال
هولاء ولا يكون الانكار غيبة لانه نهي عنه منكر وفرق بين انكار المجاهر
وغيبة المساتر فاما النميمة فهي تجمع الى مذمة الغيبة رداءة وشرا وتضيم الى

انظر صفة اللئيم

لومها

وحكي ان رجلا جاء الى عبيد الله بن زياد وقال له ان فلانا يسبك فاحضر الرجل وقال له انك سببتني وهذا يسمع فقال المسعي به للساعي وانت امرؤ ائتمنك خانك فخنت

لؤم مهادناة وغدرا ثم تؤول الى تقاطع المتواصلين وتباعد المتقاربين
وتباغض المتحابين وقد روى شهر بن حوشب عن اسما بنت يزيد عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال الا اخبركم بشراركم قالوا بلى يا رسول الله قال
من شراركم المشاؤن بالنميمة المفسدون بين الاحبة الباغون العيوب وروى
محمد بن عمرو عن ابي سلمة عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
ملعون ذو الوجهين ملعون ذو اللسانين ملعون كل فتان ملعون
كل منان الشغار المحرش بين الناس والفتان النمام وقيل النمام هو الذي
يكون مع القوم يتحدثون فينم حديثهم والقتات هو الذي يتسمع عليهم
وهم لا يعلمون فينم حديثهم والمنان هو الذي يصنع الخير ويمن به و
قيل في منثور الحكم النميمة سيف قاتل وقال بعض الادبا لم يمش ماش
اشر من واش واما السعاية فهي شر الثلاثة لانها تجمع الى مذمة الغيبة
ولوم النميمة التغرير بالنفوس والاموال والقدح في المنازل والاحوال
وروى ابن قتيبة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الجنة لا يدخلها
ديوث ولا قلاع فالديوث الذي يجمع بين الرجال والنسا والقلاع هو
الساعي الذي يقع في الناس عند الامرا سمي قلاعا لانه ياتي الرجل
المتمكن عند الامير فلا يزال يقع فيه حتى يقلعه وقال بعض الحكماء
الساعي بين منزلتين قبيحتين اما ان يكون صدق فقد خان الامانة
واما ان يكون قد كذب فقد خالف المروة وقال بعض حكماء الفرس الصدق
يزين كل احد الا السعاة فان الساعي اذم واثم ما يكون اذا صدق وقال بعض
الادبا النميمة دناة والسعاية رداة وهما اساس الشر فتجنب سبلهما و
اجتنب اهلها ووقع الفضل بن سهل على قصة ساع سعى اليه نحن نرى
قبول السعاية شرا منها لان السعاية دلالة والقبول اجازة فانفوا الساعي
فانه ان كان في سعايته صادقا فكان في صدقه اثما اذ لم يحفظ الحرمة ويستر

ذو الوجهين
ملعون كل شغار

انظر قول الاسكندر للساعي الذي سعى اليه

العورة وقال الاسكندر لساع سعى اليه اتحب ان نقبل ما تقول فيه على ان نقبل منه ما يقول فيك قال لا قال فكف عنه الشر يكف عنك الشر وحكي ان الله تعالى اوحى الى موسى ان في بلدك ساعيا ولست انزل مطري عليكم وهو في ارضك قال يا رب دلني عليه حتى اخرجه فقال يا موسى اكره النميمة وانم

الفصل السادس في الحسد والمنافسة

اعلم ان الحسد خلق ذميم مع اضراره بالبدن وافساده للدين حتى امر الله تعالى بالاستعاذة من شره فقال تعالى ومن شر حاسد اذا حسد وناهيك بحاله شرا وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال دب عليكم داء الامم قبلكم البغضاء والحسد هي الحالقة حالقة الدين لا حالقة الشعر والذي نفس محمد بيده لا تومنوا حتى تحابوا الا انبئكم بامر اذا فعلتموه تحاببتم افشوا السلام بينكم فاخبر عليه السلام بداء الحسد وان التحابب ينفيه وان السلام يبعث على التحابب فصار السلام اذا نافيا للحسد وقد جاء في كتاب الله عز وجل ما يوافق هذا القول قال الله تعالى ادفع بالتي هي احسن السيئة فاذا الذي بينك وبينه عداوة كانه ولي حميم وحكي عن مجاهد ان معناه ادفع بالسلام اساءة المسيء وقال الشاعر

قد يلبث الناس حينا ليس بينهم ... ود فيزرعه التسليم واللطف

وقال بعض السلف الحسد اول ذنب عصي الله به في السما يعني حسد ابليس آدم عليه السلام واول ذنب عصي الله به في الارض يعني حسد ابن آدم لاخيه حتى قتله وقال بعض الحكما من رضي بقضاء الله لم يسخطه احد ومن قنع بعطائه لم يدخله حسد وقال بعض البلغاء الناس حاسد ومحسود ولكل نعمة حسود وقال بعض الادبا ما رايت ظالما اشبه بمظلوم من الحسود نفس دائم وهم لازم وقلب هائم فاخذه بعض السلف فقال

ان الحسود الظلوم في كرب ... يخاله من يراه مظلوما

ذا نفس دائم على نفس ... يظهر منه ما كان مكتوما

ولو لم يكن في ذم الحسد الا انه خلق دني يتوجه نحو الاكفاء والاقارب ويختص بالمخالط والمصاحب لكانت النزاهة عنه كرما والسلامة منه مغنما فكيف وهو بالنفس مضر وعلى الهم مصر حتى ربما افضى بصاحبه الى التلف من غير نكاية في عدو ولا اضرار بمحسود وقد قال معاوية ليس في خصال الشر اعدل من الحسد لانه يقتل الحاسد قبل ان يصل الى المحسود وقال بعض الحكما يكفيك من الحسود انه يغتم في وقت سرورك وقيل في منثور الحكم عقوبة الحاسد من نفسه وقال الاصمعي قلت لاعرابي ما اطول عمرك فقال تركت الحسد فبقيت وقال شريح القاضي اني لاحسدك على ما ارى من صبرك على الخصوم ووقوفك على غامض الحكم فقال ما نفعك الله بذلك الا ضرني وقال عبد الله بن المعتز

اصبر على كيد الحسود ... فان صبرك قاتله

فالنار تاكل بعضها ... ان لم تجد ما تاكله

وحقيقة الحسد شدة الاسى على الخيرات تكون للناس الافاضل وهو غير المنافسة وربما غلط قوم فظنوا ان المنافسة في الخير هي الحسد وليس الامر كما ظنوا لان المنافسة طلب التشبه بالافاضل من غير ادخال ضرر عليهم والحسد مصروف الى الضرر لان غايته ان يعدم الفاضل فضله من غير ان يصير الفضل له فهذا هو الفرق بين المنافسة والحسد فالمنافسة اذا فضيلة لانها داعية الى اكتساب الفضائل بالاقتداء بالاخيار الافاضل وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال المومن يغبط والمنافق يحسد وقال الشاعر

ونافس في الخير اهل العلا ... فانما الدنيا احاديث

كل امرئ في شانه كادح ... فوارث منهم وموروث

واعلم ان دواعي الحسد ثلاثة احدها بغض المحسود فيأسى عليه بفضيلة
تظهر او منقبة تشكر فيثير حسدًا قد خامر بغضًا وهذا النوع لا يكون
عامًّا وان كان اضرها لانه ليس يبغض كل الناس والثاني ان يظهر من
المحسود فضل يعجز عنه الحاسد فيكره تقدمه فيه واختصاصه به
فيثير ذلك حسدًا لولاه لكف وهذا اوسطها لانه لا يحسد الاكفاء من دنى
وانما يختص بحسد من علا وقد يمتزج بهذا النوع ضرب من المنافسة
ولكنها مع عجز فلذلك صارت حسدًا والثالث ان يكون في الحاسد شح
بالفضائل وبخل بالنعم وليست اليه فيمنع منها ولا بد فيدفع عنها
لانها مواهب قد منحها الله من شاء فيسخط على الله في قضائه ويحسد على
ما منح من عطائه وان كانت نعم الله تعالى عنده اكثر ومنحه عليه اظهر
وهذا النوع من الحسد اعمها واخبثها اذ ليس لصاحبه راحة ولا لرضاه
غاية فان اقترن بشر وقدرة كان بوارًا وانتقامًا وان صادف عجزًا ومهانة
كان كمدًا او سقمًا وقد قال عبد الحميد الحسود من الهم كساقي السم فاذا سرى
سمه عنه همه واعلم ان بحسب فضل الانسان وظهور النعمة عليه يكون حسد
الناس له فان كثر فضله كثر حساده وان قل قلوا لان ظهور الفضل يثير الحسد
وحدوث النعمة يضاعف الكمد ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم استعينوا
على قضاء الحوائج بالكتمان فان كل ذي نعمة محسود وقال عمر رضي الله عنه
ما كانت لله تعالى نعمة على احد الا وجد لها حاسدًا ولو كان الرجل اقوم من
القدح لما عدم غامزًا وقد قال الشاعر

ان يحسدوني فاني غير لائمهم ... قبلي من الناس اهل الفضل قد حسدوا
فدام لي ولهم ما بي وما بهم ... ومات اكثرنا غيظًا بما يجد

وربما كان الحسد منبهًا على فضل المحسود ونقص الحسود وقال ابو تمام الطائي

واذا اراد الله نشر فضيلة ... طويت اباح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يعرف طيب عرف العود
لولا التخوف في العواقب لم تزل ... للحاسد النعمى على المحسود

فاما ما يستعمله من كان الحسد غالبًا عليه وكان طبعه مائلًا اليه لينتفي
عنه ويكفاه ويسلم من ضرره وعداوته فامور هي له حسم ان صادفها
عزم منها اتباع الدين في اجتنابه والرجوع الى الله تعالى في بدنه وادبه
فيقهر نفسه على مذموم خلقها وينقلها عن لئيم طبعها وان كان نقل
الطباع عسيرًا لكن بالرياضة والتدريج يسهل منه ما استصعب ويحبب
منه ما اتعب وان تقدم قول القائل من ربه خلقه كيف تخلي خلقه
غير انه اذا عانى تهذيب نفسه تظاهر بالتخلق دون الخلق ثم بالعادة
يصير كالخلق وقال ابو تمام الطائي

ولم اجد الاخلاق الا تخلقًا ... ولم اجد الافضال الا تفضلا

ومنها العقل الذي يستقبح به من نتائج الحسد ما لا يرضيه ويستنكف
من هجنة مساويه فيذلل نفسه ويقهرها حمية فيذعن لرشدها و
يجيب الى صلاحها وهذا انما يصح لذي النفس الابية والهمة العلية واذا
كان ذو همة يجل عن دناءة الحسد وقال الشاعر

ابت له نفسان نفس زكية ... ونفس اذا ما خافت الظلم تشمس

ومنها ان يستدفع ضرره ويتوقى اثره ويعلم ان مكانته في نفسه ابلغ
من الحسود ابعد فيستعمل الحزم في دفع ما كره والكمد ليكون اطيب نفسًا
واهنا عيشًا وقد قيل العجب لغفلة الحساد عن سلامة الاجساد وقال
الشاعر

بصير باعقاب الامور كانما ... يرى بصواب الراي ما الله صانع

ومنها ما يرى من نفور الناس عنه وبعدهم منه فيخافهم اما على نفسه
من عداوة او على عرضه من ملامة فيتألفهم بمعالجة نفسه ويراهم ان
اصلحوا اجرى نفعًا واخلص ودًّا وقال ابن العمد

داوي جوى بجوى وليس بحازم ... من يستكف النار بالحلفاء

وقال المؤمل بن امين

لا تحسبوني غنيا عن مودتكم ... اني اليكم وان ايسرت مفتقر

ومنها ان يساعد القضا ويستسلم للقدر فلا يرى ان يغالب قضاء الله تعالى فيرجع مغلوبا ولا ان يعارضه في امره فيرتد مسلوبا ومحروبا وقد قال ازدشير بن بابك اذا لم يساعدنا القضا ساعدناه وقد قال محمود الوراق

قدر الله كائن حين يقضى وروده ... قد مضى فيك علمه وانتهى ما يريده

واخو الحزم حزمه ليس مما يزيده ... فاردما يكون اذا لم يكن ما تريده

فان اظفرته السعادة باحد هذه الاسباب وهدته المراشد الى استعمال الصواب سلم من سقامه وخلص من غرامه واستبدل بالنقص فضلا واعتاض من الذم حمدا ولمن استنزل نفسه عن مذمة وصرفها عن لايمة اظهر حزما واقوى عزما ممن كفته النفس جهادها واعطته قيادها ولذلك قال علي رضي الله عنه خياركم كل مفتن تواب وان صدته الشقوة عن مراشده واضلته الحرمان عن مقاصده فانقاد للطبع اللئيم وغلب عليه الخلق الذميم حتى ظهر حسده واشتد كمده فقد باء باربع مذام احدهن حسرات الحسد وسقام الجسد ثم لا يجد لحسرته انتهاء ولا يامل لسقامه شفا وقال ابن المعتز الحسد داء الجسد والثانية انخفاض المنزلة وانحطاط الرتبة لانحراف الناس عنه ونفورهم منه وقد قيل في منثور الحكم الحسود لا يسود والثالثة مقت الناس له حتى لا يجد فيهم محبا وعداوتهم له حتى لا يرى فيهم وليا فيصير بالعداوة مثبورا وبالمقت مزجورا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم شر الناس من يبغض الناس ويبغضونه والرابعة اسخاط الله تعالى في معارضته واحتساب الاوزار في مخالفته اذ ليس يرى قضاء الله عدلا والنعمة من الناس اهلا

ولذلك

١٢٠

ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الحسد ياكل الحسنات كما تاكل النار الحطب وقال عبد الله بن المعتز الحاسد مغتاض على من لا ذنب له بخيل بما لا يملكه طالب لما لا يجده واذا بلي الانسان بمن هذا حاله من حساد النعم واعداء الفضل استعاذ بالله من شره وتوقى مصارع كيده وتحرز من غوايل حسده وبعد عن ملابسته وادنائه لفضل دآئه واعواز دوآئه فقد قيل حاسد النعمة لا يرضيه الا زوالها وقال بعض الحكما من ضر بطبعه فلا يستانس بقربه فان قلب الاعيان صعب المرام وقال عبد الحميد اسد تقاربه خير من حسود تراقبه وقال محمود الوراق

وفي نسخة اسد يقاربه خير من حسود يراقب

اعطيت كل الناس من نفسي الرضا ... الا الحسود فانه اعياني

ما ان لي ذنبا اليه علمته ... الا تظاهر نعمة الرحمن

وابى فما يرضيه الا ذلتي ... وذهاب اموالي وقطع لساني

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ثلاث لا يسلم احد منهن الطيرة وسوء الظن والحسد فاذا تطيرت فلا ترجع واذا ظننت فلا تحقق واذا حسدت فلا تبغ

فصل

واما اداب المواضعة والاصطلاح فضربان احدهما ما تكون المواضعة في فروعه والعقل موجب لاصوله والثاني ما تكون المواضعة في فروعه والعقل في اصوله وذلك يتضح في الفصول التي نذكرها اذا سبرت وهي ثمانية

الفصل الاول في الكلام والصمت

اعلم ان الكلام ترجمان يعبر عن مستودعات الضماير ويخبر بمكنونات السراير لا يمكن استرجاع بوادره ولا يقدر على رد شوارده فحق على العاقل ان يحترز عن زلله بالامساك عنه وبالاقلال منه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال رحم الله من قال خيرا فغنم او سكت فسلم وقال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ يا معاذ انت سالم ما سكت فاذا تكلمت فعليك او لك وقال علي كرم الله وجهه اللسان معيار اطاشه الجهل

اوارجحه العقل وقد قال بعض الحكما الزم الصمت تعد حكيما جاهلا
كنت اوعليما وقال بعض الادبا سعد من لسانه صموت وكلامه قوت وقال
بعض العلما من اعود ما يتكلم به العاقل ان لا يتكلم الا لحاجته او بحجته و
يفكر الا في عاقبته واخرته وقال بعض البلغا الزم الصمت فانه
يكسبك صفو المحبة ويومنك سوء المغبة ويلبسك ثوب الوقار
ويكفيك مؤونة الاعتذار وقال بعض الفصحا اعقل لسانك الا عن حق
توضحه او باطل تدحضه او حكمة تنشرها او نعمة تشكرها وقال الشاعر

رايت العز في ادب وعقل ... وفي الجهل المذلة والهوان
وما حسن الرجال لهم بحسن ... اذا لم يسعد الحسن البيان
كفى بالمرء عيبا ان تراه ... له وجه وليس له لسان

واعلم ان للكلام شروطا لا يسلم المتكلم من الزلل الا بها ولا يعرى
من النقص الا ان يستوعبها وهي اربعة فالشرط الاول منها ان يكون الكلام
لداع يدعو اليه اما في اجتلاب نفع او دفع ضرر والشرط الثاني ان ياتي
به في موضعه ويتوخى به اصابة فرصة والشرط الثالث ان يقتصر منه
على قدر حاجته والشرط الرابع ان يتخير اللفظ الذي يتكلم به فهذه اربعة
شروط متى اخل المتكلم بشرط منها فقد اوهى فضيلة باقيها وسنذكر
تعليل كل شرط منها ما ينبي عن لزومه فاما الشرط الاول فهو الداعي الى
الكلام فان ما لا داعي اليه هذيان وما لا سبب له هجنة ومن سامح نفسه
في الكلام اذا عن ولم يراع صحة دواعيه واصابة معانيه لم يحصل منفعة
نوادر ضره كان قوله مرذولا ورايه معلولا كالذي حكي عن عائشة
رضي الله عنها ان شابا كان يجالس الاحنف ويطيل الصمت فاعجب ذلك الاحنف
فخلت الحلقة يوما فقال له الاحنف تكلم يا ابن اخي فقال يا عم ارايت لو
ان رجلا سقط من شرفة هذا اكان يضره شي فقال يا ابن اخي ليتنا تركناك
مستورا ثم تمثل الاحنف

فكان قبل الكلام

يقول

بقول الاعور الشني حيث يقول

وكم من ترا من صامت لك معجب ... زيادته او نقصه في التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فواده ... فلم يبق الا صورة اللحم والدم

وكالذي حكي عن ابي يوسف الفقيه ان رجلا كان يجلس اليه ويطيل
الصمت فقال له ابو يوسف الا تسال فقال بلى متى يفطر الصايم فقال
اذا غربت الشمس فقال فان لم تغرب الى نصف الليل فتبسم ابو يوسف
ببيت الحطفي جد جرير

عجبت لازراء الغبي بنفسه ... وصمت الذي قد كان بالعلم اعلما
وفي الصمت ستر للغبي وانما ... صحيفة لب المرء ان يتكلما

قال القاضي ابو الحسن رحمه الله تعالى ومما اطرفك به عني انني كنت
يوما في مجلسي بالبصرة وانا مقبل على تدريس اصحابي اذ دخل شيخ
مسن قد ناهز الثمانين او جاوزها فقال لي قد قصدتك في مسلة
اخترتك لها فقلت سل عافاك الله وظننته يسال عن حادث نزل
به فقال اخبرني عن نجم ابليس ونجم ادم ما هو فان هذين لعظم
شانهما لا يسال عنهما الا علماء الدين فعجبت وعجب من في مجلسي من سواله
وبدر اليه منهم بالانكار والاستخفاف فكففتهم وقلت هذا لا يقنع مع
ما يظهره من حاله الا بجواب مثله فاقبلت عليه وقلت يا هذا ان
المنجمين يزعمون ان نجوم الناس لا تعرف الا بمعرفة مواليدهم فان ظفرت
بمن يعرفك ذلك فاساله فقال لي جزاك الله خيرا ثم انصرف مسرورا
فلما كان بعد ايام عاد وقال لي ما وجدت الى وقتي هذا من يعرف مولد
هذين فانظر الى هولاء كيف ابان الكلام عن جهلهم واعرب السوال
عن نقصهم اذ لم يكن لهم داع اليه ولا رغبة فيما تكلموا به ولو صدر عن رويه
ودعي اليه داع لسلموا من سبه وتنزهوا من عيبه ولذلك قال النبي صلى

جهلهم

الله عليه وسلم لسان العاقل من وراء قلبه فاذا اراد الكلام يرجع الى قلبه
فان كان له تكلم وان كان عليه امسك وقلب الجاهل من وراء
لسانه يتكلم بكل ما عرض له وقال عمر بن عبد العزيز من لم يعد كلامه
من عمله كثرت خطاياه وقال بعض الحكما المرء مخبو تحت لسانه وقال
بعض البلغا احبس لسانك قبل ان يطيل حبسك او يتلف نفسك
فلا شيء اولى بحبس من لسان يقصر عن الصواب ويسرع الى الجواب

وقال ابو تمام الطائي

ومما كانت الحكما قالت ∴ لسان المرء من تبع الفواد

وكان بعض البلغا يحسم الرخصة في الكلام ويقول اذا ما جالست الجهال
فانصت لهم فان انصاتك فان انصاتك للعلماء زيادة في العلم واما
الشرط الثاني وهو ان ياتي بالكلام في موضعه فلان الكلام في غير حينه
لا يقع موقع الانتفاع وما لا ينفع من الكلام فقد تقدم القول فيه
بانه هذيان وهجر فان قدم ما يقتضي التاخير كان عجلة وخرقا وان اخر
ما يقتضي التقديم كان توانيا وعجزا لان لكل مقام قولا وفي كل زمان
عملا وقد قال الشاعر • تضع الحديث على مواضعه • وكلامها من بعده نزر
واما الشرط الثالث وهو ان يقتصر منه على قدر حاجته ويتقدر
بالكفاية لم يكن لحده غاية ولا لقدره نهاية وما لم يكن من الكلام محظورا
اما حظرا ان قصر او هذرا ان كثر روي ان اعرابيا تكلم عند رسول الله
صلى الله عليه وسلم وطول فقال النبي صلى الله عليه وسلم كم دون لسانك من
حجاب فقال شفتاي واسناني قال فان الله تعالى يكره الابتغا في الكل فنضر
الله وجه امرء اوجز في كلامه واقتصر على حاجته وحكي عن بعض الحكما
انه راى رجلا يكثر الكلام ويقل السكوت فقال ان الله تعالى خلق لك اذنين
ولسانا واحدا ليكون ما تسمعه ضعف ما تتكلم به وقال بعض الحكما من

كثر كلامه كثرت اثامه وقال ابن مسعود انذركم فضول المنطق وقال بعض
البلغاء كلام المرء بيان فضله وترجمان عقله فاقصره على الجميل واقتصر منه
على القليل واياك وما يسخط سلطانك ويوحش اخوانك فمن اسخط
سلطانه تعرض للمنية ومن اوحش اخوانه تبرا من الحرية وقال بعض الشعرا

• وزن الكلام اذا نطقت فانما ∴ يبدي عيوب ذوي العقول المنطق

ولمخالفة قدر الحاجة من الكلام حالتان تقصير يكون حصرا وتكثير يكون هذرا
وكلاهما شين والهذر اشنع وربما كان اخوف وقال النبي صلى الله عليه وسلم
وهل يكب الناس في النار على مناخرهم الا حصائد السنتهم وقال بعض
الحكما مقتل الرجل بين فكيه قال بعض البلغا الحصر خير من الهذر لان الحصر
يضعف الحجة والهذر يتلف المهجة شعر

رايت اللسان على اهله ∴ اذا ساسه الجهل ليثا عقورا

وقال اخر

• يا رب السنة كالسيوف ∴ تقطع اعناق اصحابها •
• وما ينقص من سباب الرجال ∴ يزد في نهاها والبابها •

وقد ذهب بعضهم الى ان الكلام اذا كثر عن قدر الحاجة وزاد على قدر الكفاية
وكان صوابا لا يشوبه خلل وسليما لا يعتوره زلل فهو البيان والسحر الحلال
وقال سليمان بن عبد الملك وقد ذم الكلام في مجلسه ان كل من تكلم فاحسن
قدر على ان يحسن ليسكت فيحسن وليس كل من سكت فاحسن قدر على ان يتكلم
فيحسن ووصف بعضهم الكاتب فقال من اخذ شبرا وان وجد طومارا ملاه

وانشد بعضهم في خطبا اياد

• يرمون بالخطب الطوال وتارة • وحي الملاحظ خيفة الرقباء •

وقال الهيثم بن صالح لابنه يا بني اذا اقللت من الكلام اكثرت من الصواب قال يا
ابت فان انا اكثرت يعني من الكلام صوابا قال يا بني ما رايت موعوضا احق

بان يكون واعظا منك وانشد لابي الفتح البستي

تكلم وسدد ما استطعت وانما ۞ كلامك حي والسكوت جماد

فان لم تجد قولا سديدا تقوله ۞ فصمتك من غير السداد سداد

وقيل لاياس بن معاوية ما فيك عيب الا كثرة الكلام قال فتسمعون
صوابا ام خطا قالوا صوابا قال فالزيادة من الخير خير وقال ابو عثمان الجاحظ
للكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية وما فضل عن مقدار الاحتمال ودعا
الى الاستثقال والملال فذلك الفاضل هو الهذر قال القاضي ابو الحسين صدق
ابو عثمان لان الاكثار رهنه وان كان صوابا وبكل الخاطر فهو صادر عن اعجابه
لولاه قصر عنه ومن اعجب بكلامه استرسل فيه والمسترسل في كلامه كثير الزلل
دائم العثار قال بعض الحكما من اعجب بقوله اعجب بفعله وليس للمكثر الهذر
رجاء يقابل خوفه ولا نفع يوازي ضرره لانه يخاف من نفسه الزلل ومن
سامعه السآمة والملل وليس في مقابلة هذين حاجز داعية ولا نفع
مرجو وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ابغضكم الي المتفيهقون
المكثارون والملح المهذار وسئل رجل حكيما فقال له متى اتكلم قال اذا اشتهيت
الصمت قال فمتى اصمت قال اذا اشتهيت الكلام وقال جعفر بن يحيى اذا
كان الايجاز كافيا كان الاكثار عيا واذا كان الاكثار واجبا كان التقصير عجزا
وقيل في منثور الحكم اذا تم العقل نقص الكلام وقال بعض الادبا من طال صمته
اجتلب من الهيبة ما ينفعه ومن الوحشة ما لا يضره وقال بعض البلغاء عي
تسلم به خير من نطق تندم عليه فاقتصر من الكلام على ما يقيم حجتك ويبلغ
حاجتك واياك وفضوله فانها تزل القدم وتورث الندم وقال بعض الفصحا
فم العاقل ملجم اذا هم بالكلام احجم وفم الجاهل مطلق كلما شاء اطلق وقال بعض
الشعراء ان الكلام يسر القوم حلوته ۞ حتى يلج به عي واكثار ۞ واما
الشرط الرابع وهو اختيار اللفظ الذي يتكلم به فلان اللسان عنوان الانسان

يترجم عن مجهوله ويبرهن عن محصوله فلزمه ان يكون بتهذيب الالفاظ
حريا وبتقويم لسانه مليا روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لعمه
العباس يعجبني جمالك قال وما جمال الرجل يا رسول الله قال لسانه وقال خالد
ابن صفوان ما الانسان لولا اللسان الا بهيمة مهملة او صورة ممثلة
وقال بعض الحكما اللسان وزير الانسان وقال بعض الادبا كلام المرء وافد ادبه
وقال بعض البلغا يستدل على عقل الرجل بقوله وعلى اصله بفعله وقال بعض
الشعراء وان لسان المرء ما لم يكن له ۞ حصاة على عوراته لدليل ۞ وليس
يصح اختيار الكلام الا لمن اخذ نفسه بالبلاغة وكلفها لزوم الفصاحة حتى
يصير متدربا بها معتادا لها فلا ياتي بكلام مستكره اللفظ ولا مختل المعنى
لان البلاغة ليست معان مفردة ولا الفاظ عارية وانما البلاغة ان تكون المعاني
الصحيحة مستودعة في الفاظ فصيحة فتكون فصاحة الالفاظ مع صحة المعاني
هي البلاغة وقد قيل لليوناني ما البلاغة فقال اختيار الكلام وتصحيح الاقسام
وقيل للرومي حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الاطالة وقيل
للهندي فقال معرفة الفصل من الوصل وقيل للعربي فقال ما حسن ايجازه
وقل مجازه وقيل للبدوي فقال ما دون السحر وفوق الشعر يفت الخردل ويحط
الجندل وقيل للحضري فقال ما كثر اعجازه وتناسب صدوره واعجازه
وقال ابن المقفع البلاغة قلة الحصر والجراة على البشر وسال الحجاج بن القرية
عن الايجاز فقال ان تقول ولا تبطي وان تصيب فلا تخطي ثم قال اقلني
قد فعلت قال هو ان لا تبطي وان لا تخطي وقال الشاعر

خير الكلام قليل ۞ على كثير قليل ۞ والعي معنى قصير ۞ يحويه لفظ طويل ۞
وفي الكلام فصول ۞ وفيه قال وقيل ۞

فاما صحة المعاني فيكون من ثلاثة
اوجه احدها ايضاح تفسيرها حتى لا تكون مشكلة ولا مجملة منها والثاني

استيفاء تقسيمها حتى لا يدخل فيها ما ليس منها ولا يخرج عنها ما هو
فيها والثالث صحة مقابلاتها والمقابلة تكون من وجهين احدهما مقا
المعنى بما يوافقه وحقيقة هذه المقاربة لا المعاني تصير متشاكلة
والثاني مقابلته بما يضاده وهو حقيقة المقابلة وليس المقابلة
الا احد هذين الوجهين الموافقة في الايتلاف والمضادة مع الاختلاف
فاما فصاحة الالفاظ فتكون بثلاثة اوجه احدها مجانبة الغريب
الوحشي حتى لا يمجه سمع ولا ينفر منه طبع والثاني تنكب اللفظ
المستبذل والعدول عن الكلام المسترذل حتى لا يستسقطه خاصي
ولا ينبو عن فهمه عامي كما قال الجاحظ في كتاب البيان اما انا فلم ار
قوما امثل طريقة في البلاغة من الكتاب وذلك انهم قد التمسوا من
الالفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا عاميا والثالث ان
يكون بين الفاظه ومعانيها مناسبة ومطابقة اما المطابقة فهو
ان تكون الالفاظ كالقوالب لمعانيها فلا تزيد عليها ولا تنقص عنها
وقال بشر بن المعتمر في وصيته في البلاغة اذا لم تجد الالفاظ واقعة
موقعها ولا صائرة الى مستقرها ولا حالة في مركزها بل وجدتها
قلقة في مكانها نافرة في موضعها فلا تكرهها على القرار في غير موضعها
فانك اذا لم تتعاط قريض الشعر الموزون ولم تتكلف اختيار الكلام
المنثور لم يعبك بترك ذلك احد واذا انت تكلفتها ولم تكن حاذقا
فيها عابك من انت اقل عيبا منه وازرى بك من انت فوقه واما
المناسبة فهو ان يكون المعنى صحيحا يليق ببعض الالفاظ اما العرف مستعمل
او لاتفاق مستحسن حتى اذا ذكرت تلك المعاني بغير تلك الالفاظ كانت
نافرة عنها وان كانت افصح واوضح لاعتياد ما سواها وقد قال بعض البلغا

لا يكون

لا يكون البليغ بليغا حتى يكون معنى كلامه اسبق الى فهمه من لفظه
الى سمعك فاما معاطاة الاعراب وتجنب اللحن فانما هو من صفات
الصواب والبلاغة اعلا منه رتبة واشرف منزلة وليس لمن لحن في
كلامه مدخل في الادب فضلا عن ان يكون في عدد البلغاء والفصحاء
واعلم ان للكلام آدابا ان اغفلها المتكلم اذهب رونق كلامه وطمس
بهجة بيانه ولهى الناس عن محاسن فضله بمساوي ادبه وعدلوا عن نشر
مناقبه بذكر مثالبه فمن ادابه ان لا يتجوز في مدح ولا يسرف في ذم وان
كانت النزاهة عن الذم كرما والتجوز في المدح ملقا يصدر عن مهانة
والسرف في الذم انتقام يصدر عن شر وكلاهما شين وان سلم من الكذب
وروي انه لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد تميم سأل رسول
الله صلى الله عليه وسلم ابن الاهتم عن قيس بن عاصم فمدحه فتكلم قيس بما غض
منه ابن الاهتم فذمه فقال قيس والله يا رسول الله لقد علم اني خير مما
وصف ولكنه حسدني فذمه عمرو وقال يا رسول الله لقد صدقت في
الاولى وما كذبت في الاخرة اني رضيت في الاولى فقلت احسن ما علمت
وسخطت في الاخرى فقلت اقبح ما علمت فقال النبي صلى الله عليه وسلم ان
من البيان لسحرا على ان السلامة من الكذب في المدح والذم متعذرة لا سيما اذا
مدح تقربا وذم حنقا وحكي عن الاحنف بن قيس انه قال سهرت
ليلتي افكر في كلمة ارضي بها سلطاني ولا اسخط بها ربي فما وجدتها
وقال عبد الله بن مسعود ان الرجل ليدخل على السلطان ومعه دينه
فيخرج وما معه دينه قيل وكيف ذلك قال يرضيه بما يسخط الله تعالى
وسمع ابن الرومي رجلا يصف رجلا ويبالغ في مدحه فانشأ يقول

اذا ما وصفت امرءا لامرئ ... فلا تغل في وصفه واقصد
فانك ان تغل تغل الظنون ... فيه الى الامد الابعد

فيصول من حيث فخمته :. لفضل المعيب على المشهد :.
ومن ادابه ان لا تبعثه الرغبة والرهبة على الاسترسال في وعد او عيد
يعجز عنهما ولا يقدر على الوفا بهما فان من اطلق بهما لسانه وارسل فيهما
عنانه ولم يستثقل من القول ما يستثقله من العمل صار وعده نكثا و
وعيده عجزا وقد حكي ان سليمان بن داود عليهما السلام مر بعصفور
يدور حول عصفورة فقال لاصحابه هل تدرون ما يقول لها قالوا لا يا
نبي الله قال انه يخطبها الى نفسه ويقول زوجيني نفسك اسكنك غرف
دمشق شيت قال سليمان كذب العصفور غرف دمشق مبنية بالصخر لا يقدر
ان يسكنها هناك ولكن كل خاطب كاذب ومن ادابه انه اذا قال قولا حققه
بفعله واذا تكلم بكلام صدقه بعمله فان ارسال القول به اختبار والعمل
به اضطرار ولان يفعل ما لم يقل اجمل من ان يقول ما لم يفعل وقد
قال بعض الحكما احسن الكلام ما لا يحتاج فيه الى الكلام اي يكتفي بالفعل
من القول وقال ——— محمود الوراق
ه القول ما صدقه الفعل :. والفعل ما اكده العقل ه
ه ولا يثبت الفرع اذا لم يكن :. يقله من تحته اصل ه
ومن ادابه انه لا يراعي مخارج كلامه بحسب مقاصده واغراضه فان
كان ترغيبا قرنه باللين واللطف وان كان ترهيبا خلطه بالخشونة
والعنف فان لين اللفظ في الترهيب وخشونته في الترغيب خروج عن
موضعهما وتعطيل للمقصود بهما فيصير الكلام لغوا والغرض المقصود لهوا
وقد قال ابو الاسود الدؤلي لابنه يا بني اذا كنت في بلاء فلا تتكلم بكلام من
هو فوقك فيمقتوك ولا بكلام من هو دونك فيزدلوك ومن ادابه ان
لا يرفع بكلامه صوتا مستكرها ولا ينزعج له انزعاجا مستهجنا وليكف
من حركة تكون طيشا وعن اشارة تكون عيا فان نقص الطيش اكثر من فضل

الفعل

البلاغة وقد حكي ان الحجاج قال لاعرابي اخطيب انا قال نعم لولا
انك تكثر الرد وتشير باليد وتقول اما بعد ومن ادابه ان يتجافى
هجر القول ومستقبح الكلام وليعدل الى الكناية عما يستقبح صريحه و
يستهجن فصيحه ليبلغ الغرض ولسانه نزه وادبه مصون وقد قال
محمد بن علي في تاويل قوله تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما قال كانوا اذا
ذكروا الفروج كنوا عنها وكما انه يصون لسانه عن ذلك فهكذا يصون سمعه
فلا يسمع خنا ولا يصغي الى فحش فان سماع الفحش داع الى اظهاره وذريعة
الى اكثاره واذا وجد عن الفحش معرضا كف قائله وكان اعراضه احد
النكيرين كما ان السماع احد الباغيين فقال انشد ابو الحسن بن ابي الحارث الهاشمي
ه وسمعك صن عن سماع القبيح :. كصون اللسان عن النطق به ه
ه فانك عند سماع القبيح :. شريك لقائله فانتبه ه
ومما يجري مجرى فحش القول ويجري في وجوب اجتنابه ولزوم تنكبه
ما كان شنيعا لبديهة مستنكر الظاهر وان كان مع التامل سليما او
بعد الكشف الروية مستقيما كالذي رواه الازدي عن الصولي لبعض
المتكلمين من الشعراء انني شيخ كبير :. كافر بالله سيري :.
ه انت ربي والهي ه رازق الطفل الصغير ه يريد بقوله كافر اي لابس
لان الكفر التغطية ولذلك سمي الكافر بالله كافرا لانه غطى نعمة الله
بمعصيته وقوله بالله سيري اقسم بالله ان سيري وقوله انت ربي يعني ربي من
ولدك من التربية والهي رازق الطفل الصغير كما انه رازق الخلد الكبير
فانظر الى هذا التكلف القبيح والتعمق الشنيع ما اعتاض من حيث
البديهة اذا سلم بعد الفكر والروية الا لوما ان احسن فيه الظن او
ذما ان قوي فيه الارتياب فاقل ما يكون ذلك الامن خليع بطر او مرتاب
اشر فاما الحديث المروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا تصلوا على النبي

بعد للروية

خارج عن هذا النوع من التلبيس في تاويله وجهان احدهما انه اراد النهي عن
الصلاة في المكان المرتفع المحدودب من النبوة والثاني انه اراد الطريق و
منه سمي رسل الله انبيا لانهم الطريق اليه وانما زال عنه التلبيس اذ قاله
النبي صلى الله عليه وسلم وان كان من قول غيره تلبيسًا شنيعًا لان موضع خطابه
وشواهد احواله تصرفان كلامه عن التجوز والاسترسال في امر او نهي ما يجوز
ان يرد به الشرع ومنهي عنه وليس يمتنع ذلك في غيره ولذلك ما افترق وجوه
منه ومن غيره ومن ادابه ان يجتنب امثال العامة الغوغا ويختص بامثال
العلماء والادبا فان لكل صنف من الناس امثالا تشاكلهم فلا تجد لساقط
الامثال ساقطا وتشبيها مستقبحا وقال الصنوبري

وللساقط امثال فمنها ... تمثلهم لذي الشي المريب
اذا ما كنت ذا قول صحيح ... الا فاضرب به وجه الخطيب

ولذلك علتان احدهما ان الامثال من هواجس الهمم وخطرات النفوس فلم
يكن لذي الهمة الساقطة الا مثلا مرذولا وتشبيها معلولا والثانية
ان الامثال مستخرجة من احوال المتمثلين بها فبحسب ما هم عليه تكون امثالهم
فلهاتين العلتين ما وقع الفرق بين امثال الخاصة والعامة وربما الف
المتخصص مثلا عاميا وتشبيها ركيكا لكثرة ما يطرق سمعه من مخالطة الاراذل
فيسترسل في ضربه مثلا فيصير به في الناس مثلا كالذي حكي عن الاصمعي
ان الرشيد ساله يوما عن انساب بعض العرب فقال على الخبير سقطت يا امير
المومنين فقال له الفضل بن الربيع اسقط الله حسبك اتخاطب امير المومنين
بمثل هذا الخطاب وكان الفضل بن الربيع مع قلة علمه اعرف بما يستعمل من الكلام
في محاورة الخلفاء من الاصمعي الذي هو واحد عصره وفريد دهره وللامثال
في الكلام مواقع في الاسماع وتاثير في القلوب لا يكاد الكلام المرسل يبلغ
مبلغها ولا يوثر تاثيرها لان المعاني بها لايحة والشواهد بها واضحة والنفوس

لها

لها رامقة والقلوب بها واثقة والعقول لها موافقة ولذلك ضرب الله
الامثال في كتبه وجعلها من دلايل رسله واوضح بها الحجة على خلقه
لانها في العقول معقولة وفي القلوب مقبولة ولها اربعة شروط احدها
صحة التشبيه واصابة التمثيل والثاني ان يكون العلم به سابقا والكل
عليه موافقا والثالث ان يسرع وصولها الى الفهم ويتعجل تصورها في
الوهم من غير ارتياد في استخراجها ولا كد فكر في استنباطها والرابع
ان يناسب حال السامع ليكون ابلغ تاثيرا واحسن موقعا فاذا جمعت
الامثال المضروبة في هذه الشروط الاربعة كانت زينة الكلام وحلي المعاني
وتدبر الافهام

الفصل الثاني في الصبر والجزع

اعلم ان من حسن التوفيق وامارات السعادات الصبر في الملمات والرفق عند
النوازل فلذلك نزل الكتاب وجاءت السنة قال الله تعالى يا ايها الذين
امنوا اصبروا وصابروا ورابطوا لعلكم تفلحون يعني اصبروا على ما افترض عليكم
وصابروا عدوكم ورابطوا فيه تاويلان احدهما رابطوا على الجهاد والثاني رابطوا
على انتظار الصلوات وروى ابو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
الا ادلكم على ما يحبط الله به الخطايا ويرفع به الدرجات قالوا بلى يا رسول
الله قال اسباغ الوضوء عند المكاره وكثرة الخطا الى المساجد وانتظار
الصلوة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط فنزل الكتاب بتاكيد
الصبر فيما امر به وندب اليه وجعله من عزايم التقوى فيما افترضه وحث
عليه وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الصبر ستر من الكروب
وعون على الخطوب وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه الصبر مطية لا تكبو
والقناعة سيف لا ينبو وقال عبد الحميد لما سمع اعجب من قول عمر بن الخطاب
رضي الله عنه لو ان الصبر والشكر بعيران ما باليت ايهما ركبت وقال عبد الله
ابن العباس افضل العدة الصبر على الشدة وقال بعض البلغاء من خير خلالك

واتقوا الله صح

الصبر على اختلالك وقيل في منثور الحكم من احب البقا فليعد للمصائب قلبا صبورا وقال بعض الحكما بالصبر على مواقع الكره تدرك الحظوه

وقال عبيد بن الابرص شعرا

صبّر النفس عند كل ملمّ … ان في الصبر حيلة المحتال
لا تضيقن في الامور فقد … يكشف غماؤها بغير احتيال
ربما تجزع النفس من الامر … ولها فرجة كحل العقال

وقال ابن المقفع في كتاب اليتيمة الصبر صبران فاللئام اصبر اجساما والكرام اصبر نفوسا وليس الصبر الممدوح صاحبه ان يكون الرجل قوي الجسد على الكد والعمل لان هذا من صفات الحمير ولكن ان يكون للنفس علوما وللامور محتملا وللجاشه عند الجفا مرتبطا واعلم ان الصبر على ستة اقسام وهو في كل قسم منها محمود فاول اقسامه الصبر على امتثال ما امر الله به والانتهى عما نهى الله عنه لان به تخلص العباده والطاعه وبخلوص الطاعه يصح الدين وتؤدى الفروض ويستحق الثواب كما قال في محكم الكتاب انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم الصبر من الايمان بمنزلة الراس من الجسد وليس لمن قل صبره على طاعة الله تعالى حظ من بر ولا نصيب من صلاح ولم ير لنفسه صبرا يكسبها ثوابا ويدفع عنها عقابا كان مع سوء الاختيار بعيدا من الرشاد حقيقا بالضلال وقد قال الحسن البصري يا من يطلب من الدنيا ما لا يلحقه اترجوان تلحق من الاخرة ما لا تطلبه

وقال ابو العتاهية

اراك امرءا ترجو من الله عفوه … وانت على ما لا يحب مقيم
تدل على التقوى وانت مقصر … فيا من يداوي الناس وهو سقيم

وهذا النوع من الصبر انما يكون بفرط الجزع وشدة الخوف فان من خاف

١٢٧

الله صبر على طاعته ومن جزع من عقابه وقف عند اوامره والقسم الثاني الصبر على ما انقضت اوقاته من رزية قد اجهده الحزن عليها او حادثة قد استكده الكمد والهم بها فان الصبر عليها تعقبه الراحة منها وتكسبه المثوبة عنها فان صبر طايعا والا احتمل هما لازما وصبر كارها اثما وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يقول الله تعالى من لم يرض بقضائي ولم يصبر على بلائي فليتخذ ربا سوائي وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه للاشعث بن قيس انك ان صبرت جرى عليك القلم وانت ماجور وان جزعت جرى عليك القلم وانت مازور فلذلك ذكر ابو تمام في شعره فقال

وقال علي في التعازي لاشعث … وخاف عليه بعض تلك الماثم
اتصبر للبلوى عزا وحسبة … فتوجر او تسلوا سلو البهايم

وقال شبيب بن شيبة للمهدي ان احق ما صبرت عليه ما لا تجد سبيلا الى دفعه وانشد يقول

واذا تصبك مصيبة فاصبر لها … عظمت مصيبة مبتلا لا يصبر

والقسم الثالث الصبر على ما فات ادراكه من رغبة مرجوة واعوز نيله من مسرة ماموله فان الصبر عنها يعقب السلو منها والاسف بعد الياس خرق روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من اعطى فشكر ومنع فصبر وظلم فغفر وظلم فاستغفر اولئك لهم الامن وهم مهتدون وقال بعض الحكما اجعل ما طلبته من الدنيا فلم تنله مثل ما لم يخطر ببالك ولم تنله قال بعض الشعرا

اذا ملك القضا عليك امرا … فليس يحله غير القضاء
فما لك والمقام بدار ذل … ودار العز واسعة الفضاء

وقال بعض الحكما ان كنت تجزع على ما فات من يدك فاجزع على ما لم يصل اليك اخذه بعض الشعراء فقال

لا تطل الحزن على فائت … فقل ما يجدي عليك الحزن

ابن المقفع بالفا ... مضبوطا على هذه النسخ

الله

سيان محزون على فائتٍ ومضمر حزناً لما لم يكن

والقسم الرابع الصبر فيما تخشى حدوثه من رهبة تخافها او تحذر حلوله من نكبة تخشاها فلا تتعجل هم ما لم يأت فان اكثر الهموم كاذبة والاغلب في الخوف مدفوع وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال بالصبر يتوقع الفرج ومن يدمن قرع الابواب يلج وقال الحسن البصري رضي الله عنه لا تحملن على يومك هم غدك فحسب كل يوم همه وقال بعض الشعراء

اذا الهم امسى وهو داء فامضه ولست بممضيه وانت تعادله
ولا تنزلن امر الشديدة بامرئ اذا هم امر عوقته عواذله
وقل للفواد ان نزا بك نزوة من الهم افرخ اكثر الهم باطله

والقسم الخامس الصبر فيما يتوقعه من رغبة يرجوها وينتظره من نعمة يأملها فانه ان ادهشه التوقع لها واذهله التطلع اليها انسدت عليه سبل المطالب واستفزه تسويل المطامع وكان ابعد الرجا به واعظم لبلائه واذا كان مع الرغبة وقوراً وعند الطلب صبوراً انجلت عنه عماية الدهش وانجابت عنه حيرة الوله فابصر رشده وعرف قصده وقد روى ابو مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الصبر ضياء يعني والله اعلم انه يكشف ظلم الحيرة ويوضح حقايق الامور وقال ابن المقفع كان في قصر اردشير مكتوباً الصبر مفتاح الدرك وقال بعض الحكماء بحسن التاني تسهل المطالب وقال بعض البلغاء من صبر نال المنا ومن شكر حصن النعما وقال محمد بن بشير

ان الامور اذا اشتدت مطالبها فالصبر يفتق منها كل ما ارتتجا
لا تياسن وان طالت مطالبه اذا استعنت بصبر ان ترى فرجا
اخلق بذي الصبر ان يحظى بحاجته ومدمن القرع للابواب ان يلجا

والقسم السادس الصبر على ما نزل من مكروه او حل من امر مخوف وبالصبر في

ابن المقفع بالفارسية مضبوطاً [illegible]

وقال اكثم بن صيفي من صبر ظفر صح

هذا تنفتح وجوه الاراء وتندفع مكايد الاعدا فان من قل صبره عزب رايه واشتد جزعه فصار صريع همومه وفريسة غمومه وقد قال الله تعالى واصبر على ما اصابك ان ذلك من عزم الامور وروي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان استطعت ان تعمل لله تعالى بالرضى في اليقين فافعل فان لم تستطع فاصبر فان في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً واعلم ان النصر مع الصبر والفرج مع الكرب واليسر مع العسر وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه الصبر مناضل الحدثان والجزع من اعوان الزمان وقال بعض الحكماء بمفتاح عزيمة الصبر تعالج مغاليق الامور وقال بعض البلغاء عند اشتداد الفرج تبدو مطالع الفرج وروي عن ابن عباس ان سليمان بن داود عليهما السلام لما استكره شياطينه في البناء شكوا ذلك الى ابليس فقال الستم تذهبون فرغاً وترجعون مشاغيل قالوا بلى قال ففي هذا لكم راحة نصف دهركم فبلغ ذلك سليمان فشغلهم ذاهبين وراجعين فشكوا ذلك الى ابليس فقال الستم تستريحون بالليل قالوا بلى قال ففي هذا لكم راحة نصف دهركم فبلغ ذلك سليمن فشغلهم بالليل والنهار فشكوا ذلك الى ابليس فقال الان جاءكم الفرج فلما لبثوا ان اصيب سليمان ميتاً على عصاه فاذا كان هذا في نبي من انبياء الله تعالى يعمل بامره ويقف على حده فكيف بما اجرته الاقدار من ابد عادية وساقه القضا من حوادث نازلة هل تكون مع التناهي الا منفرجة وعند بلوغ الغاية الا منحسرة وانشد بعض الادبا لعثمان بن سفيان

خليلي لا والله ما من ملمة تدوم على حال واذ هي جلت
فان نزلت يوماً فلا تخضعن لها ولا تكثر الشكوى اذا النعل زلت
فكم كريم قد بلي بنوائب فصابرها حتى مضت واضمحلت
وكم غمرة هاجت بامواج غمرة تلقيتها بالصبر حتى تجلت

وكانت على الايام نفسي عزيزة ... فلما رات صبري على الذل ذلت

ولتسهيل المصايب وتخفيف النوايب اسباب اذا قارنت حزما او صادفت عزما هان وقعها وقلت تاثيرها وضررها فمنها اشعار النفس بما تعلمه من حلول الفنا وتقضي المسار وان لها اجالا منصرمة ومددا منقضية اذ ليس للدنيا حال يدوم ولا لمخلوق فيها بقا وروى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال انما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب مال الى ظل شجرة في يوم صايف ثم راح وتركها وسئل علي بن ابي طالب كرم الله وجهه عن الدنيا فقال تغر وتضر وتمر وسئل بعض خلفاء بني العباس جليسا له عن الدنيا فقال اذا اقبلت ادبرت وقال عمر بن عبيد الدنيا امد والاخرة ابد وقال انوشروان ان احببت ان لا تغتم فلا تقتن

اخذه بعض الشعرا فقال

الم تر ان الدهر من سوء فعله ... يكدر ما اعطى ويسلب ما اسدى

فمن سره ان لا يرى ما يسوءه ... فلا يتخذ شيا يخاف له فقدا

وانشد بعض الحكما

لحكيمنا بقراط خير قضية ... ووصية تنفي الهموم الركدا

قال الهموم تكون من طمع الورى ... في لبث ما في ظرفه ان ينفدا

فاذا اقتنيت من الزجاجة قابلا ... للكسر فانكسرت فلا تك مكمدا

وانشد بعض اهل العلم لسعيد بن مسلم

انما الدنيا هبات وعوار مسترده ... شدة بعد رخاء ورخاء بعد شده

ولما قتل بزرجمهر وجد في جيب قميصه رقعة فيها مكتوب اذا لم يكن جد ففيم الكد واذا لم يكن للامر دوام ففيم السرور وقال ابن الرومي

رايت حياة المرء رهنا لموته ... وصحته رهنا كذلك بالسقم

اذا طاب لي عيش تنغص طيبه ... بصدق يقيني ان سيذهب بالحلم

وما كان في عيش يراعي زواله ... فذلك في بؤس وان كان في نعم

ومنها ان يتصور انجلا الشدايد وانكشاف الهموم فانها تتقدر باوقات لا تنصرم قبلها ولا تستديم بعدها ولا تقصر بجزع ولا تطول بصبر وان كان كل يوم يمر بها فهو يذهب منها بشطر وياخذ منها بنصيب حتى تنجلي وهو غافل حكي ان الرشيد حبس رجلا ثم سال عنه بعد زمان فقال للموكل به قل له كل يوم يمضي من نعيمك يمضي من بوسي مثله والامر قريب والحكم لله واخذ المعنى بعض فقال

لو ان ما فيكم يدوم لكم ... ظننت ما انا فيه دايم ابدا

لكنني عالم اني وانكم ... خلاف الحالتين غدا

وانشد بعض الشعرا

عواقب مكروه الامور خيار ... وايام شر لا تدوم قصار

وليس بباق بوسها ونعيمها ... اذا كر ليل ثم كر نهار

وانشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين حضرته الوفا

الم تر ان ربك ليس تحصى ... اياديه الحديثة والقديمه

تسل عن الهموم فليس شي ... يدوم ولا همومك بالمقيمه

ومنها ان يعلم ان فيما وقي من الرزايا وكفي من الحوادث ما هو اعظم من رزيته واشد من حادثته ليعلم انه ممنوع بحسن الدفاع ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ان لله تعالى في اثنا كل محنة منحة وقيل للشعبي في نايبة كيف اصبحت قال بين نعمتين خير منشور وشر مستور

وقال بعض الشعرا

لا تكره المكروه عند حلوله ... ان العواقب لم تزل متباينه

كم نعمة لا تستقل بشكرها ... لله في طي المكاره كامنه

وكانت على الايام نفسي عزيزة ... فلما رات صبري على الذل ذلت

ولتسهيل المصايب وتخفيف النوآيب اسباب اذا قارنت حزما اوصادفت عزما هان وقعها وقلّ تاثيرها وضررها فمنها اشعار النفس ما تعلمه من حلول الفنا وتقضي المسار وان لها آجالا منصرمة ومددا منقضية اذ ليس للدنيا حال يدوم ولا لمخلوق فيها بقا وروى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال انما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب مال الى ظل شجرة في يوم صايف ثم راح وتركها وسئل علي بن ابي طالب كرم الله وجهه عن الدنيا فقال تغر وتضر وتمر وسئل بعض خلفاء بني العباس جليسا له عن الدنيا فقال اذا اقبلت ادبرت وقال عمر بن عبيد الدنيا امد والاخرة ابد وقال انوشروان ان احببت ان لا تغتم فلا تقتن

اخذه بعض الشعرا فقال

الم تر ان الدهر من سوء فعله ... يكدر ما اعطى ويسلب ما اسدى

فمن سره ان لا يرى ما يسوءه ... فلا يتخذ شيئا يخاف له فقدا

وانشد بعض الحكما

لحكيمنا بقراط خير قضية ... ووصية تنفي الهموم الركدا

قال الهموم تكون من طبع الورى ... في لبث ما في ظرفه ان ينفدا

فاذا اقتنيت من الزجاجة قابلا ... للكسر فانكسرت فلا تك مكمدا

وانشد بعض اهل العلم لسعيد بن مسلم

انما الدنيا هبات وعوار مسترده ... شدة بعد رخاء ورخاء بعد شده

ولما قتل بزرجمهر وجد في جيب قميصه رقعة فيها مكتوب اذا لم يكن جد ففيم الكد واذا لم يكن للامر دوام ففيم السرور وقال ابن الرومي

رايت حياة المرء رهنا لموته ... وصحته رهنا كذلك بالسقم

اذا طاب لي عيش تنغص طيبه ... بصدق يقيني ان سيذهب بالحلم

وما كان في عيش يراعي زواله ... فذلك في بوس وان كان في نعم

ومنها ان يتصور انجلا الشدايد وانكشاف الهموم فانها تتقدر باوقات لا تنصرم قبلها ولا تستديم بعدها ولا تنقصر بجزع ولا تطول بصبر وان كان كل يوم يمر بها فهو يذهب منها بشطر وياخذ منها بنصيب حتى يتجلي وهو غافل حكي ان الرشيد حبس رجلا ثم سال عنه بعد زمان فقال للموكل به قل له كل يوم يمضي من نعيمك يمضي من بوسي مثله والامر قريب والحكم الله واخذ المعنى بعض فقال

لو ان ما انتم فيه يدوم لكم ... ظننت ما انا فيه دايما ابدا

لكنني عالم اني وانكم ... خلاف الحالتين غدا

وانشد بعض الشعرا

عواقب مكروه الامور خيار ... وايام شر لا تدوم قصار

وليس بباق بوسها ونعيمها ... اذا كر ليل ثم كر نهار

وانشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين حضرته الوفاة

الم تر ان ربك ليس يحصى ... ايادية الحديثة والقديمة

تسل عن الهموم فليس شيء ... يدوم ولا همومك بالمقيمة

ومنها ان يعلم ان فيما وقي من الرزايا وكفي من الحوادث ما هو اعظم من رزيته واشد من حادثته ليعلم انه ممنوع بحسن الدفاع ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ان لله تعالى في اثناء كل محنة منحة وقيل للشعبي في نايبة كيف اصبحت قال بين نعمتين خير منشور وشر مستور

وقال بعض الشعرا

لا تكره المكروه عند حلوله ... ان العواقب لم تزل متباينه

كم نعمة لا تستقل بشكرها ... لله في طي المكاره كامنه

ومنها ان يتاسى بذوي الغير ويتسلى باولي العبر ويعلم انهم الاكثرون عددا والاسرعون بددا فيجد من سلوة الاسى وحسن العزا ما يخفف شجوه ويقل هلعه وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه الصقوا بذوي العبر تتسع قلوبكم وعلى مثل ذلك كان مرا في الشعر احنى

قال البحتري

فلا عجب للاسد ان ظفرت بها … كلاب الاعادي من فصيح واعجم

فحربة وحشي سقت حمزة الردى … وموت علي من حسام ابن ملجم

وقال ابو فراس

المرء بين مصائب لا تنقضي … حتى يواري شخصه رمسه

فموجل يلقى الردى في اهله … ومعجل يلقى الردى في نفسه

ومنها ان يعلم ان النعم دائرة وانها لا محالة زايلة وان السرور بها اذا اقبلت مشوب بالحذر من فراقها اذا ادبرت واذا اقبلت لا تمرح باقبالها فرحا حتى يعقب بفراقها ترحا وعلى قدر السرور يكون الحزن وقد قيل في منثور الحكم المفروح به هو المحزون عليه وقيل من بلغ غاية ما يحب فليتوقع غاية ما يكره وقال الحكما من علم ان كل نائبة الى انقضا حسن عزاؤه عند نزول البلا وقيل للحسن البصري كيف ترى الدنيا فقال شغلني توقع بلايها عن الفرح برجايها فاخذه ابو العتاهية فقال

تزيده الايام ان اقبلت … شدة خوف من تصاريفها

كانها في حال اسعافها … تسمعه وقع تخويفها

ومنها ان يعلم ان سروره مقرون بمساءة غيره وكذلك حزنه مقرون بسرور غيره واذا كانت الدنيا تنتقل من صاحب الى صاحب وتصل صاحبا بفراق صاحب فتكون سرورا لمن وصلته وحزنا لمن فارقته ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ما قرعت عصا على عصا الا فرح قوم وحزن اخرون وقال البحتري

متى

متى ارت الدنيا نباهة خامل … فلا ترتقب الا خمول نبيه

وقال المتنبي

بذا قضت الايام ما بين اهلها … مصائب قوم عند قوم فوائد

وانشد بعض اهل الادب

الا انما الدنيا غضارة ايكة … اذا اخضر منها جانب جف جانب

وما هذه الايام الا فجائع … وما العيش واللذات الا مصائب

فلا تكتحل عيناك منها بعبرة … على ذاهب منها فانك ذاهب

ومنها ان يعلم ان طوارق الانسان من دلائل فضله ومحنه من شواهد نبله ولذلك احدى علتين اما لان الكمال معوز والنقص طالع فاذا توفر المفضل عليه صار النقص فيما سواه وقد قيل من زاد في عقله نقص من رزقه وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما انتقصت جارحة في الانسان الا كانت ذكاة في عقله وقال ابو العتاهية

اذا اجتمعت بين امرين صناعة … واحببت ان تدري الذي هو احذق

فلا تتفقد منهما غير ما جرت … به لهما الارزاق حين تفرق

فحيث يكون النقص فالرزق واسع … وحيث يكون الفضل فالرزق ضيق

واما لان ذو الفضل محسود وبالاذى مقصود فهو لا يسلم من مبرة معاد واستطالة مناد وقد قال الصنوبري

محن الفتى يخبرن عن فضل الفتى … كالنار مخبرة بفضل العنبر

وقل ما يكون محنة فاضل الا من جهة ناقص وبلوى عالم الا على يد جاهل لاستحكام العداوة بينهما بالمباينة وحدوث الانتقام لاجل التقدم

وقد قال الشاعر

فلا غرو ان يمنى حليم بجاهل … فما حكم … منكسف الشمس

ومنها ما يعتاضه من الارتياض بنوايب عصره ويستفيده من الحنكة بلاواء

ملحا في المرء مرائط فذ طرف لاغوفر النقصان من طرف وانشد في بعض الادبا لابراهيم بن المهلب الكاتب صح

دهره فيصلب عوده ويستقيم عموده وتكمل شدته ورخائه ويتعظ بما التي
عفوه وبلايه حكي عن ثعلب قال دخلت على عبيد الله بن سليمان بن وهب
وعليه خلع الرضا بعد النكبة فلما مثلت بين يديه قال يا ابا العباس

نوائب الدهر ادبتني * وانما يوعظ الاديب
قد ذقت حلوا وذقت مرا * كذا عيش الفتى ضروب
لم يمض بؤس ولا نعيم * الا ولي فيهما نصيب
كذاك من صاحب الليالي * تعروه في درها الخطوب

قلت لمن هذه الابيات قال لي ومنها ان يخبر امور زمانه
ويتنبه على صلاح شانه فلا يغتر برجا ولا يطمع في استوى ولا يامل
ان تبقى الدنيا على حاله او تخلو من تقلب واستحالة فان من عرف الدنيا وخبر
احوالها هان عليه بؤسها ونعيمها وانشد بعض الادباء

اني رايت عواقب الدنيا * فتركت ما اهوى لما اخشى
فكرت في الدنيا وعالمها * فاذا جميع امورها تفنى
وبلوت اكثرها فاذا * كل امرئ في شانه يسعى
اسنامنالها وارفعها * في العز اقربها من المهوى
تعفو مساويها محاسنها * لاشي البغي والبشرى
ولقد مررت على القبور فما * ميزت بين العبد والمولى
اتراك تذكر كم رايت من * الاحيا ثم رايتهم مولى

فاذا ظفر المصاب باحد هذه الاشياء تخففت عنه احزانه وتسهلت عليه
اشجانه فصار وشيك السلوة قليل الجزع حسن العزا قال بعض الحكما من حاذر
لم يهلع ومن راقب لم يجزع ومن كان متوقعا لم يلف مترحا وقال بعض الشعرا

ما يكون الامر سهلا كله * انما الدهر سهول وحزون
هون الامر تعش في راحة * قلما هونت الا سيهون

فان اغفل نفسه من دواعي السلوة ومنعها من اسباب الصبر تضاعف عليه من شدة
الاسى وهم الجزع ما لا يطيق صبرا عليه ولا يجد سلوة عنه وقال ابن الرومي

ان البلا يطاق غير مضاق * فاذا ما تضاعف صار غير مطاق

فان ساعد جزعه بالاسباب الباعثة عليه وامد هلعه بالذرايع الداعية
اليه فقد سعى في حتفه واعان على تلفه فمن اسباب ذلك تذكر المصاب حتى
لا يتناساه وتصوره حتى لا يعزب عنه ولا يجد مع التذكار سلوة ولا يخلط
مع التصور تعزية وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يستغزر الدموع
ويبعث الاحزان مثل التذكار قال الشاعر

ولا يبعث الاحزان مثل التذكر *

ومنها الاسف وشدة الحسرة فلا يرى
من مصابه خلفا ولا يجد من مفقوده بدلا فيزداد بالاسف ولها وبالحسرة
هلعا وقال بعض الشعراء

اذا ابتليت فثق بالله وارض به * ان الذي يكشف البلوى هو الله
اذا قضى الله فاستسلم لقدرته * ما لامرئ حيلة فيما قضى الله
اليأس يقطع احيانا بصاحبه * لا تأيسن فان الصانع الله

ومنها كثرة الشكوى وبث الجزع فقد قيل في قوله تعالى فاصبر صبرا جميلا
انه الصبر الذي لا شكوى فيه ولا بث وروى انس بن مالك ان النبي صلى
الله عليه وسلم قال ما صبر من بث وحكي ان اعرابية دخلت في البادية
فسمعت صوارخ في دار فقالت ما هذا فقيل لها مات انسان فقالت
ما اراهم الا من ربهم يستغيثون وبقضائه يتبرمون وعن ربهم يرغبون
وقيل في منثور الحكم من ضاق قلبه اتسع لسانه وانشد بعض اهل الادب

لا تكثر الشكوى الى الصديق * وارجع الى الخالق لا المخلوق
لا تخرج الغريق بالغريق

وقال بعض الشعراء

لا تشك دهرك ما صححت به * ان الغنى هو صحة الجسم

هيك الحليفة كنت مسعفا ... بنضارة الدنيا مع السقيم

ومنها الياس من خير مصابه ودرك طلابه فيقترن بحزن الحادثة قنوط الياس فلا يبقى معهما صبر ولا يتسع لهما صدر ولذلك قيل المصيبة بالصبر اعظم المصيبتين وقال ابن الرومي

اصبري ايها النفس فان الصبر احجى ربما خاب الرجا واتى ما ليس يرجى

وانشد بعض اهل الادب

اتحسب البوس للحر دائم ... ولو دام شيء عدّه الناس في العجب

لقد عرفتك الحادثات نفوسها ... وقد ادبتك ان كان ينفع الادب

ولو طلب الانسان من صرف دهره ... دوام الذي يخشى اعياه ما طلب

ومنها ان يرى بملاحظة من حبطت سلامته وحرست نعمته حتى التحف بالامن والدعة واستمتع بالثروة والسعة ويرى انه قد خص من بينهم بالرزية بعد ان كان مساويا وافرد بالحادثة بعد ان كان مكافيا فلا يستطيع صبرا على بلوى ولا يلتزم شكرا على نعمة ولو قابل بهذه النظر ملاحظة من ساواه في الحادثة لتكافى الامران فهان عليه الصبر وحان منه الفرج

وانشدت لامراة من العرب

يراع الفتى للخطب تبدو صدوره ... فياسى وفي عقباه ياتي سروره

الم تران الليل لما تراكمت ... دجاه بدا وجه الصباح ونوره

فلا تصحبن الناس ان كنت عالما ... لبيبا فان الدهر شتى اموره

واعلم انه قل من صبر على حادثة وتماسك في نكبة الا كان انكشافها وشيكا وكان الفرج منه قريبا اخبرني بعض اهل الادب ان ابا ايوب الكاتب حبس في السجن خمسة عشر سنة حتى ضاقت حيلته وقل صبره فكتب الى بعض اخوانه يشكو طول حبسه وقلة صبره فرد عليه جواب رقعته شعر

صبرا ابا ايوب صبر مبرح ... فاذا عجزت عن الخطوب فمن لها

ان الذي عقد الذي انعقدت له ... عقد المكاره فيك يملك حلها

صبرا فان الصبر يعقب راحة ... ولعلها ان تنجلي ولعلها

فاجابه ابو ايوب

صبرتني ووعظتني وانا لها ... وستنجلي بل لا اقول لعلها

ويحلها من كان صاحب عقدها ... كرما به اذ كان يملك حلها

قال فلم يلبث بعد ذلك في السجن الا اياما ثم انطلق مكرما وانشدني ابن زيد عن ابي حاتم

اذا اشتملت على الياس القلوب ... وضاق لما به الصدر الرحيب

واوطنت المكاره واطمانت ... وارست في مكامنها الخطوب

ولم تر لانكشاف الضر وجها ... ولا اغنى بحيلته الاديب

اتاك على قنوط منه غوث ... يمن به اللطيف المستجيب

وكل الحادثات وان تناهت ... فموصول بها الفرج القريب

الفصل الثالث في المشورة

اعلم ان من الحزم لكل ذي لب ان لا يبرم امرا ولا يمضي عزما الا بمشورة ذي الراي الناصح ومطالعة ذي العقل الراجح فان الله تعالى امر بالمشورة لنبيه صلى الله عليه وسلم مع ما تكفل به من ارشاده ووعد به من تاييده فقال وشاورهم في الامر قال قتادة امره بمشاورتهم تالفا لهم وتطييبا لانفسهم وقال الضحاك امره بمشاورتهم لما علم فيها من الفضل وقال الحسن البصري امره بمشاورتهم ليستن بها المسلمون ويتبعه فيها المومنون وان كان عن مشورتهم غنيا وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال المشاورة حصن من الندامة وامان من الملامة وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه نعم الموازرة المشاورة وبيس الاستعداد الاستبداد وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه الرجال ثلاثة رجل ترد عليه الامور فيصدرها برايه ورجل يشاور فيما يشكل عليه وينزل

حيث يامره اهل الراي ورجل حائر بائر لا يأتمر رشدا ولا يطيع مرشدا وقال عمر بن عبد العزيز ان المشاورة والمناظرة بابا رحمة ومفتاح بركة لا يضل معهما راي ولا يفقد منهما حزم وقال يوسف بن دريد من اعجب برائه لم يشاور ومن استبد برأيه كان للصواب بعيدا وقال عبد الحميد المشاور في رائه ناظر من ورائه وقال في منثور الحكم المشورة راحة لك وتعب على غيرك وقال بعض الحكما الاستشارة عين الهداية وقد خاطر من استغنى برايه وقال بعض الادبا ما خاب من استخار ولا ندم من استشار وقال بعض البلغا من حق العاقل ان يضيف الى رايه اراء العلما ويجمع الى عقله عقول الحكما فالراي الفذ ربما زل والعقل الفرد ربما ضل

وقال بشار بن برد

اذا بلغ الامر المشورة فاستعن ... بحزم نصيح او نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فريش الخوافي تابع للقوادم

فاذا عزم على المشاورة ارتاد لها من اهلها من قد استكملت فيه خمس خصال احداهن عقل كامل مع تجربة سالفة فان بكثرة التجارب تصح الروية وقد روى ابو الزناد عن الاعرج عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا وقال عبد الله بن الحسن لابنه محمد احذر مشورة الجاهل وان كان ناصحا كما تحذر عداوة العاقل اذا كان عدوا فانه يوشك ان يورطك بمشورته فيسبق اليك مكر العاقل وتوريط الجاهل قيل لرجل من عبس ما اكثر صوابكم قال نحن الف رجل وفينا رجل حازم ونحن نطيعه فكانا الف حازم وكان يقال اياك ومشاورة رجلين شاب معجب بنفسه قليل التجارب في غيره او كبير قد اخذ الدهر من عقله كما اخذ من جسمه وقيل في منثور الحكم كل شي يحتاج اليه العقل والعقل يحتاج الى التجارب ولذلك قيل الايام

تهتك

تهتك لك عن الاسرار الكامنة وقال بعض الحكما التجارب ليست لها غاية والعاقل منها في زيادة وقال بعض البلغا من استعان بذوي العقول فاز بدرك المامول وقال

ابو الاسود الدؤلي

وما كل ذي لب بموتيك نصحه ... وما كل موت نصحه بلبيب
ولكن اذا ما استجمعا عند صاحب ... فحق له من طاعة بنصيب

والخصلة الثانية ان يكون ذا دين وتقى فان ذلك عماد كل صلاح وباب كل نجاح ومن غلب عليه الدين فهو مامون السريرة موفق العزيمة وروى عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من اراد امرا فشاور فيه امرءا مسلما وفقه الله تعالى لارشد اموره والخصلة الثالثة ان يكون ناصحا ودودا فان النصح والمودة يصدقان الفكر ويمحضان الراي وقال بعض الحكما لا تشاور الا الحازم غير الحسود واللبيب غير الحقود واياك ومشاورة النسا فان رايهن الى الافن وعزمهن الى الوهن وقال بعض الادبا مشورة المشفق الحازم ظفر ومشورة غير الحازم خطر وقال بعض الشعراء

صرف ضميرك من تعاشره ... واسكن الى ناصح تشاوره
وارض من المرء في مودته ... بما يودي اليك ظاهره
من يكشف الناس لا يجد احدا ... تصح منه له سرايره
اوشك ان لا يدوم وصل اخ ... في كل زلاته تنافره

والخصلة الرابعة ان يكون سليم الفكر من هم قاطع وغم شاغل فان من عارضت فكره شوائب الهموم لم يسلم له راي ولم يستقم له خاطر وقيل في منثور الحكم بترداد الفكر ينجاب لك العبر وكان كسرى اذا دهمه امر بعث الى مرازبته فاستشارهم فان قصروا في الراي ضرب قهارمته وقال ابطاتم بارزاقهم فاخطوا في ارايهم وقال صالح بن القدوس

ولا مشير كذا نصح ومقداره ... في مشكل الامر فاختر فيه منتصحا

والخصلة الخامسة ان لا يكون له في الامر المستشار فيه غرض يتابعه ولا هوى يساعده فان الاغراض جاذبة والهوى صاد والراي اذا عارضه الهوى وجاذبته الاغراض فسد وقد قال الفضل بن العباس بن عتبة بن ابي لهب

لقد تحكم الايام من كان جاهلا ... ويردي الهوى ذا الراي وهو لبيب
ويحمد في الامر الفتى وهو مخطي ... ويعذل في الاحسان وهو مصيب

فاذا استكملت هذه الخصال الخمس في رجل كان اهلا للمشورة ومعدنا للراي فلا تعدل عن استشارته اعتمادا على ما توهمه من فضل رايك وثقة بما تستشعره من صحة رويتك فان راي غير ذي الحاجة اسلم وهو من الصواب اقرب بخلوص الفكر وخلو الخاطر مع عدم الهوى وارتفاع الشهوة وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال راس العقل بعد الايمان بالله تعالى التودد الى الناس وما استغنى مستبد برايه وما هلك احد عن مشورة فاذا اراد الله عز وجل بعبد هلكة كان اول ما يهلكه رايه وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه الاستشارة عين الهداية وقد خاطر من استغنى برايه وقال لقمن لابنه شاور من جرب الامور فانه يعطيك من رايه ما قام عليه بالغلا وانت تاخذه بالمجان وقال بعض الحكما نصف رايك مع اخيك فشاوره ليكمل الراي وقال بعض الادبا من استغنى برايه ضل ومن اكتفى بعقله زل وقال بعض البلغا الخطا مع الاسترشاد احمد من الصواب مع الاستبداد وقال الشاعر

خليلي ليس الراي في صدر واحد ... اشيرا علي اليوم ما تريان

ولا ينبغي ان يتصور في نفسه انه ان شاور ظهر للناس ضعف رايه وفساد رويته حتى افتقر الى راي غيره فانه هذه معاذير النوكى وليس يراد الراي للمباهاة وانما يراد للانتفاع بنتائجه والتحرز من الخطا عند زلله

اجد انجح

وكيف

وكيف يكون عارا ما ادى الى صواب وصد عن خطا وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لقحوا عقولكم بالمذاكرة واستعينوا على اموركم بالمشاورة وقال بعض الحكما من كمال عقلك استظهارك على عقلك وقال بعض البلغا اذا اشكلت عليك الامور وتغير لك الجمهور فارجع الى راي العقلا وافزع الى استشارة العلما ولا تانف من الاسترشاد ولا تستنكف من الاستمداد فلان تسال وتسلم خير لك من ان تستبد وتندم وينبغي ان تكثر من استشارة ذوي الالباب لا سيما في الامر الجليل فقل ما يضل عن الجماعة راي او يذهب عنهم صواب لارسال الخواطر الثاقبة واجالة الافكار الصائبة فلا يعزب عنها ممكن ولا يخفى عليها جايز وقيل في منثور الحكم من اكثر المشورة لم يعدم عند الصواب مادحا وعند الخطا عاذرا وان كان الخطا من الجماعة بعيدا فاذا استشار الجماعة فقد اختلف اهل الراي في اجتماعهم عليه وانفراد كل واحد منهم به فذهب الفرس الى ان الاولى اجتماعهم على ارتياد محض الراي واجالة الفكر ليذكر كل واحد من الجماعة ما قدحه خاطره ونتجه فكره حتى ان كان فيه قدح عورض وان توجه عليه رد نوقض بالجدال الذي يجوز فيه المناظرة وتقع فيه المنازعة والمشاجرة فانه لا يبقى فيه مع اجتماع القرائح عليه خلل الا ظهر ولا زلل الا بان وذهب غيرهم من اصناف الامم الى ان الاولى افراد كل واحد منهم بالمشورة ليجيل كل واحد منهم فكره في الراي طمعا في الحظوة بالصواب فان القرائح اذا انفردت استكدها الفكر واستفرغها الاجتهاد واذا اجتمعت ترددت وكان الاول من بدايتها متبوعا ولكل واحد من المذهبين وجه ووجه الثاني اظهر والذي اراه في الاولى غير هذين المذهبين على الاطلاق ولكن ينظر في الشورى فان كانت في حال واحدة هل هي خطا ام صواب كان اجتماعهم عليها اولى لان ما تردد بين امرين والمراد منه الاعتراض على فساده او ظهور الحجة في صلاحه وهذا مع الاجتماع ابلغ وعند المناظرة

ووقعت

وقد قال بعض الحكما كلما كثرت خزائن الاسرار ازدادت ضياعًا وقال بعض الشعرا

وسرك ماكان عند امرئ ... وسر الثلاثة غير الخفى وقال اخر

فلا تنطق بسرك كل سر ... اذا ما جاوز الاثنين فاشى ثم لو يسلم

اذاعتهم لما سلم من ادلالهم واستطالتهم فان لم يظفر بسر من فرط الادلال وكثرت الاستطالة ما ان يحجزه عنه عقل ولم يكفه فضل كان اشد من ذل الرق وخضوع التعبد ولذلك قال بعض الحكما من افشى سره كثر عليه المتامرون فاذا اختاروا رجوا ان يوفق للاختيار واضطر الى استبداع سره وليته كفى الاضطرار وجب المستودع له اداء الامانة بالتحفظ والتاسي حتى لا يخطر له ببال ولا يدوره له فى خلد ثم يرى ذلك حرمة يرعاها ولا يذل اذلال اللئام حكى ان رجلا اسر الى صديق له حديثا ثم قال افهمت قال بل جهلت قال حفظت قال بل نسيت وقيل لرجل كيف كتمانك للسر قال اجحد المخبر واحلف للمستخبر وقال بعض الشعراء

ولو قدرت على نسيان ما اشتملت ... منى الضلوع من الاسرار والخبر

لكنت اول من ينسى سرايره ... اذ كنت من نشرها يومًا على خطر

وحكى ان عبد الله بن طاهر تذاكر الناس فى مجلسه حفظ السر فقال عبيد الله بن طاهر

ومستودع سر اتضمنت سره ... فاودعته من مستقر الحشا قبرا

قال ابنه عبد الله

وما السر من قلبى كثاو بحفرة ... لانى ارى المدفون ينتظر الحشرا

ولكننى اخفيه حتى كاننى ... من الدهر يومًا ما احطت به خبرا

الفصل الخامس فى المزح والضحك

اعلم ان للمزاح ازاحة عن الحقوق ومخرجا الى القطيعة والعقوق يصم المزاح ويوذى الممازح فوصمة المازح انه يذهب عنه الهيبة والبهاء ويجرى عليه الغوغاء والسفها واما اذية الممازح فلانه معقوف بقول كذب وفعل ممض ان امسك عنه

على

انظر قول عبد الله بن طاهر وقول ابنه فى حفظ السر

كتاف

قوله يصم المزاح من الوصم وهو العيب بمعنى يعيبه

احزن قلبه وان قابل عليه خاف بتاذيه فحق على العاقل ان يتقيه ويتنزه نفسه عن وصمة مساويه فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال المزاح استدراج من الشيطان واختداع من الهوى وقال عمر بن عبد العزيز رحمه اتقوا المزاح فانه حمقة تورث ضغينة وقال ان المزاح سباب الا ان صاحبه يضحك وقيل انما المزاح سباب الا ان صاحبه يضحك وقيل انما سمى المزاح مزاحا لانه يزيح عن الحق وقال ابرهيم النخعى المزاح من سخف وبطر وقيل فى منثور الحكم المزاح ياكل الهيبة كما تاكل النار الحطب وقال بعض الادبا من كثر مزاحه زالت هيبته ومن كثر خلافه طابت غيبته وقال بعض البلغاء من قل عقله كثر هزله وذكر خالد بن صفوان فقال يضحك احدهم صاحبه باشد من الجندل ويسقيه امر من الخردل ويفرغ عليه احر من المرجل ثم يقول انما كنت امازحك وقال بعض الحكما خير المزاح لا ينال وشره لا يقال فنظمه النيسابورى فى قصيدته الجامعة للادب فقال

شعر

شر مزاح المرء لا يقال ... وخيره يا صاح لا ينال ~~وقد يقال~~

وقد يقال كثرة المزاح ... من الفتى تدعو الى التلاحى

وقلة المزاح تدعو الى الفلاح ... ان المزاح بدوه حلاوه

لكنما آخره عداوه ... يحقد منه الرجل الشريف

ويجترى بسخفه السخيف

وقال ابو نواس

خل جنبيك لرام ... وامض عنه بسلام

مت بداء الصمت خير ... لك من داء الكلام

انما السالم من ... الجم فاه بلجام

ربما استفتح بالمزح ... مغاليق الحمام

والمنايا آكلات ... شاربات للانام

واعلم انه قلما يعرى من المزاح من كان سهل الخلق فالعاقل يتوخى بمزحه احدى حالتين لا ثالثة لهما احداهما ايناس المصاحبين والتودد الى المخالطين وهذا يكون بما انس من جميل القول وبسط من مستحسن الفعل

الفعل كما قال سعيد بن العاص لابنه اقتصد في مزاحك فان الافراط فيه
يذهب البهاء ويجري السفهاء وان التقصير فيه يقبض عنك المؤانسين
ويوحش منك المصاحبين والحالة الثانية ان ينفي بالمزاح ما طرا عليه
من سام او حدث به من هم فقد قيل لابد للمصدور ان ينفث وانشد
لابي الفتح السبتي

افد طبعك المكدود بالجد راحة ۞ يجم وعلله بشي من المزح
ولكن اذا اعطيته المزح فليكن ۞ بمقدار ما تعطي الطعام من الملح

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يمزح على الوجه وروي عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم انه قال اني لامزح ولا اقول الا حقا فمن مزاحه عليه الصلاة
والسلام ما روي ان عجوزا من الانصار اتته فقالت يا رسول الله ادع لي
بالمغفرة فقال لها اما علمت ان الجنة لا تدخلها العجايز فصرخت فتبسم رسول
الله صلى الله عليه وسلم وقال لها اما قرات قول الله عز وجل انا انشاناهن
انشاء فجعلناهن ابكارا عربا اترابا واتته اخرى في حاجة لزوجها فقال
ومن زوجك فقالت فلان فقال لها الذي في عينيه بياض فقالت لا فقال
بلى فانصرفت عجلا الى زوجها وجعلت تتامل عينيه فقال لها ما شانك
فقالت اخبرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ان في عينيك بياضا فقال اما
تري بياض عيني اكثر من سوادها واتى رجل علي بن ابي طالب كرم الله وجهه
فقال احتلمت على امي فقال اقيموه في الشمس واضربوا ظله الحد وسيل
الشعبي عن اكل لحم الشيطان فقال نحن نرضى منه بالكفاف وقيل له ما
اسم امراة ابليس فقال ذاك نكاح ما شهدناه وقال رجل لغلام بكم تعمل
معي قال بطعامي فقال له احسن قليلا قال فاصوم يوم الاثنين والخميس
وحكي عن صالح بن حسان وكان محدثا انه قال يوما لاصحابه مازحا
في قوله
افقه الناس وصاح النمير
اذا قلت هاتي ناوليني تبرمت ۞ وقالت معاذ الله من فعل ما حرم

فما ناولت حتى تضرعت عندها ۞ وانباتها ما رخص الله في اللمم
فاما الخروج الى حد الخلاعة فهجنة ومذمة كالذي حكي عن ابي
معاوية الضرير وكان محدثا انه خرج يوما الى اصحابه وهو يقول

فاذا العدة جاشت ۞ فارمها بالمنجنيق
بثلاث من نبيذ ۞ ليس بالحلو الرقيق

اما ترى كيف يخلع عنه التهمة على نفسه بهذا المزاح فيما لعله بري
منه وبعيد عنه وكان ابو هريرة رضي الله تعالى عنه مسترسلا في مزاحه
فحكى ابن قتيبة في المعارف ان مروان ربما كان يستخلفه على المدينة
فركب حمارا قد شد عليه بردعة فيسير فيلقى الرجل فيقول الطريق قد
جاء الامير وربما اتى الصبيان وهم يلعبون لعبة الاعراب ولا يشعرون
حتى يلقي نفسه بينهم ويضرب برجله فيفزع الصبيان فيتفرقون
وهذا خروج للقدر المستسمح به ويوشك ان يكون لهذا الفعل منه
تاويل شايع وقد كان صهيب بن سنان رمدا فقال له النبي صلى الله
عليه وسلم واله وسلم اتاكل التمر وبك رمد فقال يا رسول الله صلى الله انما
امضغ على الناحية الاخرى وانما اختار صهيب ان يعرض لرسول الله
صلى الله عليه وسلم بالمزاح في جوابه لان استخباره قد كان يتضمن المزح
فاجابه عن استخباره بما وافقه من المزح مساعدة لعرضه وتقربا
من قلبه والا فليس لاحد ان يجعل جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم
المبين عن الله عز وجل احكامه المؤدي الى خلقه اوامره هزلا ومزحا
فقد عصى الله تعالى ورسوله وصهيب كان اطوع لله ورسوله من ان يكون
بهذه المنزلة وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انا سبق العرب وصهيب
سابق الروم وسلمان سابق فارس وبلال سابق الحبش ومن مستحسن
ومستسمح الدعابة ما حكي الزهري بن بكار عن الكثيري ان القسري

ووقف عليه شيخ من الاعراب فقال يا اعرابي ممن انت فقال من بني عقيل قال
من اي عقيل قال من بني خفاجة قال القشيري رايت شيخا من بني خفاجة
فقال الاعرابي ما شانه فقال ان لي اذا جن الظلام حاجة فقال الاعرابي ما
فقال كحاجة الديك الى الدجاجة فاستعبر الاعرابي وقال قاتلك الله ما اعرفك
بسرائر القوم فانظر كيف بلغ هذا المزاح غايته ولسانه وعرضه مصون
وهذا غاية ما يتمازح به الفضلاء من الخلاعة وان كان مستكرها في الفحوى والنزاهة
عن مثله اولى وليحذر ان يسترسل في ممازحة عدو فيجعل له طريقا الى اظهار
المساوي وهو يجد ويفتح له في التشفي مزحا وقد قال بعض الحكماء اذا
مازحت عدوك اظهرت عيوبك فاما الضحك فان اعتياده شاغل عن النظر
وفي الامور المهمة فذهل عن الفكر في النوائب الملمة وليس لمن اكثر منه هيبة
ووقار ولا لمن وسم به خطر ومقدار وروى ابو ادريس عن ابي ذر الغفاري قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اياك وكثرة الضحك فانه يميت القلب ويذهب
بنور الوجه وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ما لهذا الكتاب لا
يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها ان الصغيرة الضحك وقال عمر بن الخطاب رضي
الله عنه من كثر ضحكه قلت هيبته وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه اذا ضحك العالم
ضحكة مج من علمه مجة وقيل في منثور الحكم ضحك المومن غفلة من قلبه والقول
في الضحك كالقول في المزاح ان تجافاه الانسان نفر عنه واوحش منه وان الفه كان
خالعا وصفيقا فليكن بدل الضحك عند الايناس تبسما وبشرا وقد قال عمر بن
الخطاب التبسم دعابة وهذا ابلغ في الايناس من الضحك الذي قد يكون استهزاء
وتعجبا وليس يكره منه المرة الواحدة لخاطر استعمل لتنفيس عن رفعه هذا رسول الله
صلى الله عليه وسلم وهو املك الخلق لنفسه وقد تبسم حتى بدت نواجذه وانما
كان ذلك منه على وجه الخلق كما ذكرناه

الفصل السادس في الطيرة والفال

اعلم انه ليس شيء اضر بالراي ولا افسد للتدبير من اعتقاد الطيرة ومن

ان

بلغ مقابلة

ان خوار بقرة او نعيب غراب يرد قضاء او يدفع مقدورا فقد جهل وقد روي
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا عدوى ولا هامة ولا طيرة ولا صفر فالعدوى
ما يظنه الناس من تعدي الامراض والعلل فاخبر انه لا تعدي فقيل يا رسول
الله انا نرى النقبة من الجرب في مشفر البعير فتتعدى الى جميعه فقال صلى الله عليه
وسلم فمن اعدى الاول واما الهامة فهو ما كانت العرب في الجاهلية تعتقده
من ان القتيل اذا طل دمه فلم يدرك بثاره صاحت هامته في القبر اسقوني
وقال الزبرقان بن بدر: يا عمرو ان لم تدع شتمي ومنقصتي ... اضربك حتى تقول الهامة اسقوني

وقال ابرهيم بن هرمة

وكيف وقد صاروا عظاما واقبرا ... يصيح صداها بالعشي وهامها
تفانوا ولم يبقوا وكل قبيلة ... سريع الى ورد الفناء كرامها

واما الصفر فهو كالحية يكون في الجوف يصيب الماشية والناس وهو اعدى عند
من الجرب وفيه يقول الشاعر: لا يمسك الساق من اين ولا وصب ... ولا يعض على شرسوفه الصفر
وروى ابو هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال اذا ظننتم فلا تحققوا واذا حسدتم فلا تبغوا واذا تطيرتم
فامضوا وعلى الله فتوكلوا

وقال الشاعر

طيرة الناس لا ترد قضاء ... فاعذر الدهر لا تشبه بلوم
اي يوم تخصه بسعود ... والمنايا ينزلن في كل يوم
ليس يوم الا وفيه سعود ... ونحوس تجري لقوم وقوم

وقد كانت الفرس اكثر الناس طيرة وكانت العرب اذا ارادت سفرا نفرت اول
طائر تلقاه فان طار يمنة سارت وان طار يسرة رجعت وتشاءمت فنهى النبي
صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال اقروا الطير على وكناتها وحكي عن عكرمة
قال كنا جلوسا عند ابن عباس رضي الله عنهما فمر طائر يصيح فقال رجل من القوم
خير فقال ابن عباس لا خير ولا شر وقال لبيد

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى ۰ ولا زاجرات الطير ما الله صانع

واعلم انه اقل ما يخلو من الطيرة احد لا سيما من عارضته المقادير في ارادته وصده القضا عن طلبته فهو يرجو والياس عليه اغلب ويامل والخوف اليه اقرب فاذا عاقه القضا وخانه الرجا جعل الطيرة اعذر جنته وغفل عن قضاء الله تعالى ومشيئته فهو اذا تطير من بعد احجم عن الاقدام وييئس من الظفر وظن ان القياس فيه مطرد وان العبرة فيه مستمرة ثم يصير ذلك له عادة فلا ينجح له سعي ولا يتم له قصد واما من ساعدته المقادير ووافقه القضا فهو قليل الطيرة لاقدامه ثقة باقباله وتعويلا على مساعدته فلا يصده خوف ولا يكفه حزن فلا يؤوب الا ظافرا ولا يعود الا منجحا لان الغنم بالاقدام والخيبة مع الاحجام فصارت الطيرة من سمات الادبار واطراحها من امارات الاقبال فينبغي لمن مني بها وملي ان يصرف عن نفسه وساوس النوكى ودواعي الخيبة وذرائع الحرمان ولا يجعل للشيطان سلطانا في بعض عزايمه ومعارضة خالقه ويعلم ان قضاء الله غالب وان رزق العبد له طالب وان الحركة سبب البركة فلا يثنيه عنها ما لا يضر مخلوقا ولا يدفع مقدورا وليمض في عزايمه واثقا بالله تعالى ان اعطى وراضيا به ان منع فقد روى ابو هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان في الانسان ثلاثة الطيرة والظن والحسد فمخرجه من الطيرة ان لا يرجع ومخرجه من الظن ان لا يحقق ومخرجه من الحسد ان لا يبغي وروي عنه صلى الله عليه وسلم انه قال كفارة الطيرة التوكل على الله تعالى وقيل في منثور الحكم الخيرة في ترك الطيرة وليقل ان عارضه في الطيرة ريب او خامره فيها وهم ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من تطير فليقل اللهم لا ياتي بالحسنات الا انت ولا يرفع السيئات الا انت ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ۰ وقد روي ان رجلا جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله انا نزلنا دارا فكثر فيها عددنا وكثر فيها اموالنا ثم تحولنا منها الى اخرى فقلت فيها

اموالنا وقل فيها عددنا فقال صلى الله عليه وسلم فذروها ذميمة وليس هذا منه صلى الله عليه وسلم على وجه الطيرة ولكن على طريق التبرك بما فاتك وترك ما استوحش منه الى ما انس به فاما الفال ففيه تقوية للعزم وباعث على الجد ومعونة على الظفر فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزواته وحروبه وروى ابو هريرة رضي الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع كلمة فاعجبته فقال اخذنا فالك من فيك فينبغي لمن تفال الفال ان يتاوله باحسن تاويلاته ولا يجعل لسوء الظن سبيلا على نفسه فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان البلاء موكل بالنطق حكي ان يوسف عليه السلام شكى الى الله طول الحبس فاوحى الله تعالى اليه يا يوسف انت حبست نفسك حيث قلت رب السجن احب الي مما يدعونني اليه ولو قلت رب العافية احب الي لعوفيت وحكي ان المؤمل ابن اميل الشاعر لما قال شعرا ۰ شف المؤمل يوم الحيرة النظر ۰ ليت المؤمل لم يخلق له بصر ۰ عمي فاتاه آت في منامه وقال له هذا ما طلبت وحكي ان الوليد بن الوليد بن عبد الملك تفال يوما في المصحف فخرج عليه قوله تعالى واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد فمزق المصحف وانشد يقول

ابوعد كل جبار عنيد ۰ فها انا ذاك جبار عنيد ۰
اذا ما جئت ربك يوم حشر ۰ فقل يا رب مزقني الوليد ۰

فلم يلبث اياما حتى قتل شر قتلة وصلب راسه على قصره ثم على سور بلده ونعوذ بالله تعالى من البغي ومصارعه والشيطان ومكايده وهو حسبنا وعليه توكلنا

الفصل السابع في المروة

اعلم ان من شواهد الفضل ودلايل الكرم المروة التي هي حلية النفوس وزينة الهمم والمروة مراعاة الاحوال ان تكون على افضلها حتى لا يظهر منها قبيح عن قصد ولا يتوجه اليها ذم باستحقاق وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن

كملت مروته وظهرت عدالته ووجبت محبته وقال بعض البلغا من شرائط المروة
ان يتعفف عن الحرام ويتنظف عن الاثام وينصف في الحكم ويكف عن الظلم ولا
يطمع فيما لا يستحق ولا يستطيل على من لا يسترق ولا يعين قويا على ضعيف ولا
يؤثر دنيا على شريف ولا يسر بما يعقب الوزر والاثم ولا يفعل ما يقبح الذكر والاسم
وسيل بعض الحكما عن الفرق بين العقل والمروة فقال العقل يامرك بالانفع
والمروة تامرك بالاجمل ولا تجد الاخلاق على ما وصفناه من حد المروة
منطبعة ولا عن المراعاة مستغنية وانما المراعات هي المروة لا ما انطبعت
عليه النفوس من فضائل الاخلاق لان غرور الهوى ونازع الشهوة يصرفان
النفس عن الافضل من خلايقها والاجمل من طرايقها وان سلمت منهما وبعيد
ان تسلم لما استكملت شرف الاخلاق تطبعا ولا استغنت عن تهذيبها
تكلفا وتصنعا قال الشاعر

من لك بالمحض وليس محض ∴ يخبث بعض ويطيب بعض

ثم لو استكملت الفضل طبعا وفي المعوز ان يكون مستكملا لكان في المستحسن
من عادات دهره والموضوع من اصطلاح عصره من حقوق المروة وشروطها
ما لا يتوصل اليه الا بالمعاناة ولا يوقف عليه الا بالتفقد والمراعاة فثبت
ان مراعاة النفس على افضل احوالها هي المروة واذا كانت كذلك فليس ينقاد
لها مع ثقل كلفها الا من تسهلت عليه المشاق رغبة في الحمد وهانت عليه
الملاذ حذرا من الذم ولذلك قيل سيد القوم اشقاهم وقال ابو تمام

والحمد شهد لا يرى مشتاره ∴ يجنيه الا من نقيع الحنظل
غل لحامله ويحسبه الذي ∴ لم يوه عاتقه خفيف المحمل

غيره

لولا المشقة ساد الناس كلهم ∴ الجود يفقر والاقدام قتال

وقد لخص هذا المتنبي في قوله

واذا كانت النفوس كبارا ∴ تعبت في مرادها الاجسام

والداعي الى استسهال ذلك شيآن هما علو الهمة وشرف النفس اما علو الهمة
فلانه باعث على التقدم وداع الى التخصيص انفة من خمول الضعة و
استكبارا لمهانة النقص ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الله يحب
معالي الامور واشرافها ويكره سفسافها وروى عمر بن الخطاب رضي
الله عنه انه قال لا تصغرن هممكم فاني لم ار من اقعد عن المكرمات الا من صغر
الهمم وقال بعض العلما اذا طلب رجلان امرا ظفر به اعلاهما مروة وقال
بعض الادبا من ترك التماس المعالي بسوء الرجا لم ينل جسيما واما شرف
النفس فان به يكون قبول التاديب واستقرار التقويم والتهذيب لان
النفس ربما جمحت عن الافضل وهي به عارفة ونفرت من التاديب وهي له
مستحسنة لانها عليه غير مطبوعة وله غير ملايمة فتصير منه انفر ولضده
الملايم آثر ولذلك قيل ما اكثر من يعرف الحق ولا يطيعه فاذا شرفت
النفس كانت للاداب طالبة وفي الفضايل راغبة فاذا مازجها صادف
طبعا ملايما فنمى واستقر فاما من مني بعلو الهمة وسلب شرف النفس فقد
صار عرضه لامر اعوزته آلته وافسدته جهالته فصار كضرير يروم
الكتابة واخرس يروم الخطابة فلا يزيده الاجتهاد الا عجزا والطلب الا
عوزا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ما هلك امرؤ عرف قدره وقيل
لبعض الحكما من اسوأ الناس حالا قال من بعدت همته واتسعت امنيته
وقصرت آلته وقلت مقدرته وقد قيل

ولا خير فيما يكذب المرء نفسه ∴ وتقواله للشيء يا ليت ذا ليا
لعمرك ما يدري امرؤ كيف يتقي ∴ اذا هو لم يجعل له الله واقيا

وقال بعض الحكما تجنبوا المنى فانها تذهب ببهجة ما خولتم وتستصغرون بها
نعمة الله عندكم وقيل في منثور الحكم المنى من بضائع النوكى وان صادف
بهمته حظا نال به املا كان فيما نال كالمغتصب وفيما وصل اليه كالمتغلب

وقال بعض البلغا علو الهمم بذر النعم صح

اذ ليس في الحظوظ تقدير بحق ولا تمييز تستحق وانما هي كالسحاب الذي قد يمسك
عن منابت الاشجار وينزل حيث صادف من خبيث وطيب فانه صادف
ارضا طيبة نفع وان صادف ارضا صلبة ضر وكان نفعها طيبة وحكي
ان موسى بن عمران دعا على قوم بالعذاب فاوحى الله سبحانه وتعالى اليه قد ملكت
سفلتها على عليتها فقال يا رب كنت احب لهم عذابا عاجلا فاوحى الله تعالى اليه
اوليس هذا كل العذاب العاجل الاليم فاما شرف النفس اذا تجرد على علو الهمة فان
الفضل به عاطل والقدر به خامل وهو كالقوة في الجلد الكسل والجبان الفشل
وقد قيل في منثور الحكم من دام كسله خاب امله وقال بعض الحكماء نكح
العجز التواني فخرج بينهما الندامة ونكح الشؤم الكسل فخرج بينهما الحرمان

وقال بعض الشعراء

اذا انت لم تعرف لنفسك حقها ... هوانا بها كانت على الناس اهونا
فنفسك اكرمها وان ضاق مسكن ... عليها لها فاطلب لنفسك مسكنا
واياك والسكنى بدار مذلة ... يعد مسيئا فيه من كان محسنا

وشرف النفس مع صغر الهمة اولى من علو الهمة مع دناءة النفس لان من علت
عليه همته مع دناءة نفسه كان متعديا الى طلب ما لا يستحقه ومتخطيا
الى التماس ما لا يستوجبه ومن شرفت نفسه مع صغر همته فهو تارك لما
يستحقه ومقصر عما يجب له وفضل ما بين الامرين ظاهر وان كان لكل واحد
منهما من الذم نصيب وقد قيل لبعض الحكماء ما اصعب شيء على الانسان قال ان
يعرف نفسه ويكتم الاسرار فاذا اجتمع الامران واقترن بشرف النفس علو
الهمة كان الفضل بينهما ظاهرا والادب بهما وافرا ومشاق الحمد بينهما
مستسهلة وشروط المروة منهما متباينة وقد قال الحصين بن المنذر الرقاشي
ان المروة ليس يدركها امرؤ ورث المكارم عن اب فاضاعها فاذا اصاب من المكارم
حالة واعلم ان حقوق المروة اكثر من ان تحصى واخفى من ان تظهر لان منها

امرته النفس بالدناءة ونهته عن سبل والحياء فعلى فاطاعها صح

ما تقوم

ما تقوم في الوهم حسنا ومنها ما يقتضيه شاهد الحال حدسا ومنها ما يظهر
ويخفى بالتغافل فلذلك اعوز استيفاء شروطها الا بملاحظة الفاضل عليها
بفطنته ويستدل العاقل عليها بفطرته وان كان جميع ما تضمنه كتابنا هذا
من حقوق المروة وشروطها وانما يذكر في هذا الفصل الاشهر من قواعدها
واصولها والاظهر من شروطها وحقوقها محصورا في تقسيم جامع وهي
تنقسم قسمين احدها شروط المروة في نفسه والثاني شروطها في غيره فاما
شروطها في نفسه بعد التزام ما اوجبه الشرع من احكامه فيكون بثلاثة امور
وهي العفة والنزاهة والصيانة فاما العفة والنزاهة والصيانة فنوعان
احدهما العفة عن المحارم والثاني العفة عن المآثم فاما العفة عن المحارم
فنوعان احدهما ضبط الفرج عن المحارم والثاني كف اللسان عن الاعراض
فاما ضبط الفرج فلانه مع وعيد الشرع وزواجر العقل معرة فاضحة وهتكة
واضحة ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم من وقي شر ذبذبه ولقلقه
وقبقبه فقد وقي يريد بذبذبه الفرج ولقلقه اللسان وبقبقبه
البطن وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال احب العفاف الى الله
عفاف البطن والفرج وحكي ان معاوية سال عمرا عن المروة فقال
تقوى الله وصلة الرحم وسال المغيرة فقال هي العفة عما حرم الله عز وجل
والحرفة فيما احل الله عز وجل وسئل يزيد فقال هي الصبر على البلوى و
الشكر على النعم والعفو عند القدرة فقال انت مني حقا وقال انوشروان
لابنه هرمز الكامل المروة من حصن دينه ووصل رحمه واكرم اخوانه
وقال بعض الحكماء من احب المكارم اجتنب المحارم وقيل في عار الفضيحة
تكدر لذاتها وانشد بعض اهل الادب للحسن بن علي عليهما السلام

الموت خير من ركوب العار ... والعار خير من دخول النار

والداعي الى ذلك شيئان احدهما ارسال الطرف والثاني اتباع الشهوة وقد
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لعلي يا علي لا تتبع النظرة وفيه

تاويلان احدهما لا تتبع نظر عينك بنظر قلبك والثاني لا تتبع النظرة
الاولى التي وقعت سهوا بالنظرة الثانية التي توقعها وقال عيسى بن مريم
عليه السلام اياكم والنظرة بعد النظرة فانها تزرع في القلب الشهوة وكفى
بها لصاحبها فتنة وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه العيون مصايد
الشيطان وقال بعض الحكما من ارسل طرفه استدعى حتفه وقال بعض الشعرا

وانت متى ارسلت طرفك رائدا ... لقلبك يوما اتعبتك المناظر
رايت الذي لا كله انت قادر ... عليه ولا عن بعضه انت صابر

واما الشهوة فهي خادعة العقول وغادرة الالباب ومحسنة القبائح وليس
عطب الا وهي له سبب وعليه الب ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم
اربع من كن فيه وجبت له الجنة وحفظ من الشياطين من ملك نفسه
حين ترغب وحين ترهب وحين تشتهي وحين تغضب وقهرها عن هذه
الحال يكون بثلاثة امور احدها غض الطرف عن اثارتها وكفه عن مساعدتها
فانه الرائد المحرك والقائد المملك وروى سعيد بن سنان عن انس بن مالك
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال تقبلوا الي بست اتقبل لكم الجنة قالوا
وما هي يا رسول الله اذا حدث احدكم فلا يكذب واذا وعد فلا يخلفه واذا
ائتمن فلا يخن وغضوا فروجكم وكفوا ايديكم والثاني ترغيبها في الحلال
عوضا واقناعها بالمباح بدلا فان الله تعالى ما حرم شيئا الا واغنى عنه بمباح
من جنسه لما علمه من نوازع الشهوة وتركيب الفطرة ليكون ذلك عونا على
طاعته وحاجزا عن مخالفته وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما امر الله
بشيء الا اغنى عنه والثالث اشعار النفس تقوى الله تعالى في اوامره واتقاؤه
في زواجره والزامها من طاعته وتحذيرها ما حذر من معصيته واعلامها
انه لا يخفى عليه ضمير ولا يعزب عنه نظير وانه يجازي المحسن ويكافي المسيء
بذلك نزلت كتبه وبلغت رسله روى ابن عباس رضي الله عنهما ان اخر ما
نزل من القران واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت

وهم لا يظلمون واخر ما نزل من التورية اذا لم تستح فاصنع ما شئت واخر
ما نزل من الزبور من يزرع خيرا يحصد غبطة فاذا استشعرها ما وصفت لكم
انقادت الى الكف واذعنت بالانقياد فسلم دينه وظهرت مروته فهذا شرط
واما كف اللسان عن الاعراض فلانه ملاذ السفها وانتقام الغوغا وهو
مستسهل الكف ان لم يقهر نفسه برادع كاف وزاجر صاد يلتبط بمعاره
وتخبط بمضاره وظن انه لتخافي الناس عنه حمى يرتقى ورتبة ترتقى فهلك
واهلك ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم الا ان دماءكم واموالكم واعراضكم
حرام عليكم فجمع بين الدم والعرض لما فيه من ايغار الصدور وابداء الشرور
واظهار البذا واكتساب الاعدا ولا يبقى مع هذه الامور لمرموق المروة
الملحوظ ثم هو بها موتور وموزور لاجلها مهجور ومزجور وقد روي
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال شر الناس من اكرمه الناس اتقاء لسانه وقال
بعض الحكما انما يهلك الاعراض من الكلام وفضول المال وما قدح في الاعراض من الكلام نوعان احدهما ما قدح في عرض صاحبه
ولم يتجاوزه الى غيره وذلك شيئان الكذب وفحش القول والثاني ما تجاوزه الى
غيره وذلك اربعة اشيا الغيبة والنميمة والسعاية والسب بقذف او شتم وربما
كان السب اذكاها للقلوب وابلغها اثرا في النفوس ولذلك زجر الله عنه
بالحد تغليظا وبالتعزير تشديدا او تصعيبا وقد يكون ذلك لاحد شيئين اما
انتقام يصدر عن سفه او بذاء يحدث عن لوم وقد روى ابو سلمة عن ابي هريرة
رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال المومن غر كريم والفاسق خب لئيم
وقال ابن المقفع الاستطالة لسان الجهالة وكف النفس عن هذه الحالة بما يصدها عن
اسلم وهو بذي المروة اجمل وهذا شرط واما العفة عن المآثم فنوعان
احدهما الكف عن المجاهرة بالظلم والثاني زجر النفس عن الاستسرار بخيانة فاما
المجاهرة بالظلم والثاني زجر النفس عن الاستسرار بخيانة فعتو مهلك وطغيان
متلف وهو يئول ان استمر الى فتنة او جلا اما الفتنة في الاغلب فتخبط بصاحبها

وتنعكس على البادي بها فلا ينكشف الا وهو بها مصروع كما قال الله تعالى ولا
يحيق المكر السيء الا باهله وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الفتنة
نائمة فمن ايقظها صار طعاما لها وقال جعفر بن محمد رضي الله عنه الفتنة
حصاد الظالمين وقال بعض الحكما صاحب الفتنة اقرب شي اجلا واسوء
شي عملا وقال بعض الشعرا

وكنت كعنز السو قامت لحتفها	الى مدية تحت الترا بستثيرها

واما الجلا فقد يكون مع قوة الظالم وتطاول مدته فيصير ظلمه في المكنة جلا
او فنا كالنار اذا وقعت في يابس الشجر فلا تبقي منه مع تمكنها شيا حتى اذا
افنت ما خمدت كذلك تكون حال الظلم مهلك ثم هالك والباعث على ذلك
شيئان الجراة والفسوق ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم اطلبوا الفضل
والمعروف عند الرحما من امتي تعيشوا في اكنافهم والصاد عن ذلك ان تراثر
الله عز وجل في الظالمين فان له فيهم عبرا ويتصور عواقب ظلمهم فان فيها
مزدجر وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال من اصبح ولم ينو ظلم
احد غفر له ما اجترم وروي جعفر بن محمد عن ابيه عن جده قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم يا علي اتق دعوة المظلوم فانما يسال الله حقه ان الله عز وجل لا
يمنع ذا حق حقه وقيل في منثور الحكم ويل للظالم من يوم المظالم وقال
بعض البلغاء من جار حكمه اهلكه وقال بعض الشعرا

وما من يد الا يد الله فوقها	ولا ظالم الا سيبلى بظالم

واما الاستسرار بالخيانة فيعطف وصفه لانه بذل الخيانة مهين ولقلة الثقة
به مسكين وقد قيل في منثور الحكم من يخن يهن وقال خالد الربعي قرات
في بعض الكتب السالفة ان مما يعجل عقوبته ولا يوخر الامانة تخان والاحسان
يكفر والرحم يقطع والبغي على الناس ولو لم يكن ذم الخيانة الا ما يجده الخاين
في نفسه من المذلة لكفاه زاجرا ولو تصور عقبى امانته وجدوى نفسه

لعلم ان ذلك من ارخ بضايع جاهه واقوى شفيعا لقدمه مع ما يجده في
نفسه من العز ويقابل عليه من الاعظام فقد روي عن النبي صلى الله عليه
وسلم انه قال اد الامانة الى من ايتمنك ولا تخن من خانك وروي سعيد
ابن جبير قال لما نزلت ومن اهل الكتاب من ان تامنه بقنطار يوده اليك
ومنهم من ان تامنه بدينار لا يوده اليك الا ما دمت عليه قايما ذلك بانهم
قالوا ليس علينا في الاميين سبيل يعنون ان اموال الاعراب حلال لهم لانهم من غير
اهل الكتاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذب اعداء الله ما من شي كان في
الجاهلية الا وهو تحت قدمي الا الامانة فانها موداة الى البر ولا تجعل ما
يتظاهر من الامانة زورا ولا ما يبديه من العفة غرورا فينهتك الزور وينكشف
الغرور فيكون مع هتكه التدليس اقبح وبمعرة الريا افضح وقد روي عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال لا تزال امتي بخير ما لم تر الامانة مغنما والصدقة مغرما
وقال بعض الحكما من التمس اربعا باربع التمس ما لا يكون من التمس الجزا بالريا التمس
ما لا يكون ومن التمس مودة الناس بالغلظة التمس ما لا يكون ومن التمس العلم
براحة الجسد التمس ما لا يكون ومن التمس الاخوان بغير وفا التمس ما لا يكون
والداعي الى الخيانة شيئان المطمع وقلة الامانة فاذا حسمهما عن نفسه بما وصفت
ظهرت مروته فهذا شرط قد استوفينا فيه اقسام العفة واما النزاهة
فنوعان احدهما النزاهة عن المطامع الدنية والثاني النزاهة عن مواقف
الريبة فاما المطامع فلان الطمع ذل والدناة لوم وهما ارفع شي لمروة وقد
كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعاية اللهم اني اعوذ بك من طمع يهدي
الى طبع وقال بعض الشعرا

لا تخضعن لمخلوق على طمع	فان ذلك وهن منك في الدين
واسترزق الله مما في خزائنه	فانما الرزق بين الكاف والنون

والباعث على ذلك شيئان الشره وقلة الانفه فلا يقتنع بما اوتي وان كان كثيرا

١٤٧

المطمع صح

مروته

١٩

لاجل شرهه ولا يستنكف مما منع وان كان حقير القلة انفته وهذه حالة من
لا يرى لنفسه قدرا ويرى المال اعظم خطرا فيرى بذل اهون الامرين لاجلها
غنما وليس فيمن كان المال عنده اجل ونفسه اقل اصغا لتانيب ولا قبول
لتاديب وروى ان رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم اوصني قال عليك
باليأس مما في ايدي الناس واياك والطمع فانه فقر حاضر فاذا صليت صلاة
فصل صلاة مودع واياك وما تعتذر منه وقال بعض الحكماء عز النزاهة اشرف
من سرور الفائدة وقال بعض الشعراء

ومن كانت الدنيا مناه وهمه ... سبته المنى واستعبدته المطامع

وحسم هذه المطامع شيئان اليأس والقناعة وقد روي عن عبد الله
ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال روح القدس نفث في روعي
ان نفسا لا تموت حتى تستوفي رزقها فاتقوا الله واجملوا في الطلب ولا
يحملنكم بطاء الرزق على ان تطلبوه بمعاصي الله تعالى فان الله لا يدرك ما
عنده الا بطاعته فهذا شرط واما مواقف الريبة فهي التردد بين منزلتي حمد
وذم والوقوف بين حالتي السلامة وسقم فيتوجه اليه لائمة المتوهمين
وتناله ذلة المريبين وكفى بصاحبها موقفا ان صح افتضح وان سلم
وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم دع ما يريبك الى ما لا يريبك وسئل
محمد بن علي عن المروءة فقال ان لا تعمل في السر عملا تستحي منه في العلانية وقال
حسان بن ابي سنان ما وجدت شيئا هو اهون من الورع قيل وكيف قال
اذا ارتبت بشيء تركته والداعي الى هذه الحالة الاسترسال وحسن الظن والمانع
منه شيئان الحياء والحذر وربما انتفت الريبة بحسن الثقة وارتفعت
التهمة بطول الخبرة كالذي حكي عن عيسى بن مريم عليه السلام انه راه بعض
الحواريين وقد خرج من منزل ذات فجور فقال له يا روح الله ما تصنع ههنا
فقال الطبيب انما يداوي المرضى لكن لا ينبغي ان يجعل ذلك طريقا الى الاسترسال

١٤٥

وليكن الحذر عليه اغلب والخوف من تصديق التهم اقرب فما كل ريبة ينفيها
حسن الثقة هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابعد خلق الله من الريب
واصونهم من التهم وقف مع زوجته صفية ذات ليلة على باب مسجد يحادثها
وكان معتكفا فمر به رجلان من الانصار فلما رأياه اسرعا فقال لهما على
رسلكما انها صفية بنت حيي فقالا سبحان الله وهل يتخالجنا فيك شك
يا رسول الله فقال مه ان الشيطان يجري من احدكم مجرى لحمه ودمه فخشيت
ان يقذف في قلوبكما سوءا وكيف بمن تخالجت فيه الشكوك وتقابلت فيه الظنون
فهل يعرى من مواقف الريب من قادح محقق ولائم مصدق فقد روي
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا لم يشق المرء الا بما عمل فقد سعد
واذا استعمل الحزم وغلب الحذر وترك مواقف الريب اعتذارا ولا عذر
لمختار ولا يختلج في نزاهته شك ولم يقدح في عرضه افك وقد قال الشاعر

اصونك ادل عليك ظنا ... فان الظن مفتاح اليقين

وقال سهل بن مروان مؤونة التوقف ايسر من تكلف التعسف وقال بعض الحكماء
من حسن ظنه بمن لا يخاف الله فهو مخدوع وانشد بعض اهل الادب لابي بكر رضي الله عنه

احسنت ظني باهل دهري ... فخس ظني بهم دهاني
لا امن الناس بعد هذا ... ما الخوف الا من الاماني

فهذا شرط قد استوفينا فيه نوعي النزاهة واما الصيانة وهي الثالث من شروطها
شروط المروءة فنوعان احدهما صيانة النفس بالتماس كفايتها والثاني صيانتها
عن تحمل المنن والاسترسال في الاستعانة فاما التماس الكفاية وتقدير المادة
فلان المحتاج الى الناس مهتضم وذليل مستثقل وهو لما فطر عليه محتاج
الى ما يستمده ليقيم اود نفسه ويدفع ضرورة وقته ولذلك قالت العرب في
امثالها كلب جوال خير من اسد رابض وما يستمده نوعان لازم ونادب فاما
اللازم فما قام بالكفاية وافضى الى سد الخلة وعليه في طلبه ثلاثة شروط احدها

نظم حسن لبعض الحكماء
انظر قول من حسن ظنه بمن لا يخاف الله فهو مخدوع

استطابته من الوجوه المباحة وتوقى الوجوه المحظورة فان المواد المحرمة
مستخبثة الاصول ممحوقة الفروع ان صرفها في بر لم يوجر وان صرفها في
مذموم لم يشكر ثم هو لاوزارها محتقب وعليها معاقب قال النبي صلى الله عليه
وسلم لا يعجبك رجل اكتسب مالا من غير حله فانه ان انفقه لم يقبل منه وان
امسكه فهو زاده الى النار وقال بعض الحكما شر الامور ما لزمك اثم
مكتسبه وحرمت اجر انفاقه ونظر بعض الخوارج الى رجل من اصحاب
السلطان يتصدق على مسكين فقال انظر اليهم حسناتهم من سيئاتهم

سر من عاش ماله فاذا ... حاسبه الله سره الاعدام

والثاني طلبه من احسن جهاته التي لا يلحقه فيها غض ولا يتدنس له بها عرض فان المال
طلبه برا ولصيانة الاعراض لا لابتذالها ولعز النفوس لا لاذلالها وقد قال
عبد الرحمن بن عوف يا حبذا المال اصون به عرضي وارضي به ربي وقال ابو بشر الضرير

كفى حزنا اني اروح واغتدي ... وما لي من مال اصون به عرضي
ولكنني القى صديقي بمرحبا ... وذلك لا يكفي صديقي ولا يرضي

وسئل ابن عائشة عن قول النبي صلى الله عليه وسلم اطلبوا الحوائج من حسان
الوجوه فقال معناه انه من احسن الوجوه التي تحل والثالث ان يتأنى
في تقدير مادته وتدبير كفايته بما لا يلحقه خلل ولا يناله زلل فان يسير المال مع
حسن التقدير واصابة التدبير وفساد التقدير كالبذر في الارض اذا روعي
زكا وان اهمل كثيره اضمحل وقال محمد بن علي الكمال في ثلث العفة في الدين والصبر
على النوائب وحسن التقدير في المعيشة وقيل لبعض الحكما فلان غني فقال
لا اعرف ذلك ما لم اعرف تدبيره في ماله فاذا استكمل هذه الشروط فيما يمده من
قدر كفايته فقد ادى حق المروة في نفسه وسئل الاحنف بن قيس عن المروة
فقال العفة والحرفة وقد قال لابنه لا تكن على احد كلا فانك تزداد ذلا
واضرب في الارض عودا وبدا ولا تاسفن بما لكان فذهب ولا تعجز لعله يجيبن

الحديث الذي ذكره الشيخ في الجامع الصغير اطلبوا الخير عند حسان الوجوه قال الشارح المناوي زاد في رواية المعروف وقال العلقمي بعد قوله حسان الوجوه الطلقة المستبشرة وجوههم فان الوجه الجميل مظنة الفعل الجميل وبين الخلق والخلق تناسب قريب غالبا ثم لابن عائشة هنا فليراجع

انظر فوق بعض الحكما شر الامور الى اخره

لاوزارها

الطلب لو طلب ولا نصب فهذا حال الازهد وقد كان ذوو الهمم العالية والنفوس
الابية يرون ما وصل الى الانسان كسبا افضل مما وصل اليه ارثا لانه في
الارث في جدوى غيره وبالكسب مجد على غيره وفضل ما بينهما في الفضل
ظاهر وقال كشاجم

لا استلذ العيش ولا ادب له ... طلبا وسعيا في الهواجر والغلس
واراه حراما اذ يوالبني الغنا ... حتى يحاول بالغنى ويلتمس

فاما الندب فهو ما فضل عن الكفاية وزاد على قدر الحاجة فان الامر فيه
معتبر بحال طالبه فان كان ممن تقاعد عن مراتب الرؤسا وتقاصر عن مطاولة
النظراء وانقبض عن منافسة الاكفا فحسبه ما كفاه فليس في الزيادة الا
شره ولا في الفضول الا نهم وكلاهما مذموم ولذلك قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم خير الذكر الخفي وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه الدنيا كل على العاقل
وقال عبد الله بن مسعود المستغني بالدنيا عن الدنيا كالمطفي النار بالتبن
وقال بعض الحكما ستر ما وجهك بالقناعة وسل عن الدنيا بتجافيها عن الكرام
وان كان ممن قد مني بعلو الهمة وتحركت فيه اريحية الكرم واثر ان يكون
رأسا او مقدما وان يرى في النفوس مفخما معظما فالكفاية لا تقله حتى يكون
ماله فاضلا ونائله فائضا قيل لبعض العرب ما المروة فيكم قال طعام ونائل
مبذول وبشر مقبول وقال الاحنف بن قيس

فلو مد سروى بمال كثير ... لجدت وكنت له باذلا
فان المروة لا تستطاع ... اذا لم يكن مالها فاضلا

وقال احمد بن الحلاج

رزقت مالا ولم ارزق مروته ... وما المروة الا كثرة المال
اذا اردت مساماة تقاعد لي ... عما ينوه رقة الحال

وقال صيانتها عن تحمل المنن والاسترسال في الاستعانة فلان المقتضي

استرقاق الاحرار تحدث ذلة في النفوس وسقوطا في الهمات فيبدو الاسترسال
في الاستعانة تثقيل ومن ثقل على الناس هان ولا قدر عندهم لمهان
وقال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه خدمك بنوك قال اغناني
الله عنهم وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه لابنه الحسن في وصيته ان
استطعت ان لا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل ولا تكن عبد غيرك وقد
جعلك الله حرا فان اليسير من الله اكرم واعظم من الكثير من غيره وان كان كله منه
وقال زياد لبعض الدهاقين ما المروة فيكم قال اجتناب الريب فانه لا ينبل
مريب واصلاح الرجل ماله فانه من مروته وقيامه بحوايجه وحوايج اهله
الى غيره وانشد تغلب

من عف خف على الصديق لقاؤه ... واخو الحوايج وجهه مملول

واخوك ان وفرت ما في كيسه ... فاذا عبثت به فانت ثقيل

وان كان الناس لحمة لا يستغنون عن التعاون ولا يستقلون عن المساعدة
والتظاهر فانما ذلك تعاون ايتلاف يتكافون فيه ولا يتفاضلون وربما كان
المستغني فيه متفضلا والمعين مستفضلا كاستعانة السلطان بجنده والزارع
باكرته فليس من هذا ابدا ولا ياخذ عنه غنا واما الذي يتصون عنه الكرام
تعاون التفضل فيتقبضون عن ان يستعينوا لئلا يكون عليهم يد ويبادرون
الى ان يعينوا ليكون لهم يد ومن اقدم من غير اضطرار على الاستعانة بجاه او
مال فقد ادهن مروته واستبدل صيانته ومن اداه الاضطرار لنايبة
وحادث هجم الى الاستعانة بمن تنفس به عن خناق كربه وتخلص به من
وثاق نوايبه فلا لوم على مضطر فان اغناه الاستعانة بالجاه عن الاستعانة
بالمال فلا عذر له في التعرض للمال ويعدل الى ولاة الامور فان الحوايج عندهم
انجح وهي عليهم اسهل وهم لذلك مندوبون فانهم لا يجدون لهم مستعانا ولنصبر على
ابطايهم فان تراكم الامور عليهم يشغلهم الا عن الملح الصبور ولذلك قيل

قدم

قدم لحاجتك بعض لجاجتك وقد تقدم قول الحكما ريح السلطان على
قوم نسيم وعلى قوم سموم وقال عبد الله بن المعتز من صحب السلطان
فليصبر على قسوته كصبر الغواص على ملوحة بحره وقال ابن سارة سحيم بن الاعرف

تعد قرابة وتعد صهرا ... ويبعد بالقرابة من رعاها

وما زرناك عن عدم ولكن ... بهش الى الامارة من رجاها

واياما فعلت فان نفسي ... تعد صلاح نفسك من غناها

فان تعذر عليه صلاح حاله الا بمال يستعين به على نوايبه كان له مع
الضرورة فسحة فيه لكن ان وجد قرضا لم يرد ودا لم ياخذ صلة وجودا
فان القرض مستسمح به في المروات هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع
ما اعلاه الله تعالى من قدره وفضله على خلقه قد اقترض ثم قضى فاحسن
وقال صلى الله عليه وسلم المستدين تاجر الله في ارضه وقال ابو العتاهية

ان لم يكن كثر فقل عطية ... يبغى بها بالغ الرضا بعض الرضا

او لا يكن هبة فقرض يسرت ... اسبابه وكواهب من اقرضا

ولئن كان الدين رقا فهو اسهل من رق الافضال وقد روي عن النبي صلى الله
عليه وسلم انه قال من اراد البقا ولا بقا فليباكر الغدا وليخفف الردا قيل
فما خفة الردا من البقا قال قلة الدين فان اعوزه ذلك الا استسماحا فهو
الرزق المذل ولذلك قيل لا مروة لمقل وقال بعض الحكما من قبل صلتك
فقد باعك مروته واذل لقدرك عزه وجلالته والذي يتماسك به الباقي في
مروة الراغبين واليسير التافه من صيانة السايلين وان لم يبق لذي رغبة
مروة ولا لمسايل تصون اربعة امور هي جهد المضطر احدها ان يتجافى صرع
السايلين وابهة المستقلين فيذل بالصرع ويحرم بالابهة وليكن من التجمل
على ما يقتضيه حال مثله من ذوي الحاجات وقد قيل لبعض الحكما متى
يفحش زوال النعم قال اذا زال معها التجمل وانشد بعض اهل الادب لعلي بن الجهم

هي النفس ما حملتها تتحمل ... وللدهر ايام تجور وتعدل
وعاقبة الصبر الجميل جميلة ... واحسن حالات الرجال التفضل
ولا عار ان زالت على الحر نعمة ... ولكن عارا ان يزول التجمل

والثاني يقتضي بالسؤال على ما دعته الضرورة وقادته اليه الحاجة ولا يجعل ذلك ذريعة الى الاغتنام فيحرم باغتنامه فلا يعذر في ضرورته وقال بعض الحكما من الف المسئلة الفه المنع والثالث بعذر في المنع ويشكر على الاجابة فانه ان منع فعما لا يملك وان اجيب فالى ما لا يستحق قال النمر بن تولب

لا تغضبن على امرئ في ماله ... وعلى كرائم صلب مالك فاغضب

والرابع ان يعتمد على سؤال من كان للمسالة اهلا وكان النجح عنده مامولا فان ذوي المكنة كثير والمعين منهم قليل ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم الخير كثير وقليل فاعله والمرجو للاجابة من تكاملت فيه خصالها وهي ثلاث احداهن كرم الطبع فان الكريم مساعد واللئيم معاند وقد قيل المحروم من كانت له الى اللئام حاجة والثانية سلامة الصدر فان العدو الب على نكبتك وحرب على محنتك وقد قيل من اوغرت صدره استدعيت شره فان رق لك بكرم طبعه ورحمه بحسن ظفره فاعظم بها محنة ان يصير عدوك راحما لك

وقد قال الشاعر

وحسبك من حادث بامرئ ... ترى حاسديه له راحمينا

والثالثة ظهور المكنة فان من سال ما لا يمكن فقد احال وكان كمستنهض المسجون ومستسعف المديون وكان بالرد خليقا وبالحرمان حقيقا وقد قال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه من لا يعرف حتى يقال له لا فهو احمق واوصى عبد الله بن الاهيم ابنه فقال يا بني لا تطلب الحوايج الى غير اهلها ولا تطلبها في غير حينها ولا تطلب ما لست مستحقا فانك ان فعلت ذلك كنت حقيقا بالحرمان قال الشاعر

ولا تسالن امرأ حاجة ... يحاول من ربها مثلها
فيترك ما كنت حملته ... ويبدا بحاجته قبلها

فهذا ما يختص بشروط المروة في نفسه فاما شروط المروة في غيره فثلاثة الموازرة والمياسرة والافضال فاما الموازرة فنوعان احدهما الاسعاد بالجاه والثاني الاسعاف في النوايب فاما الاسعاد بالجاه فقد يكون من الاعلى قدرا والانفذ امرا وهو ارخص المكارم ثمنا والطف الصنايع موقعا وربما كان اعظم من المال نفعا وهو الظل الذي يلجا اليه المضطر والحمى الذي ياوي اليه الخايفون فان وطاه اتسع بكثرة الانصار والمشيع وان قبضه انقطع بنفور الغاشية والتبع فهو بالبذل ينمي ويزيد وبالكف ينقص ويبيد فلا عذر لمن منح جاها ان يبخل به فيكون اسوا حالا من البخيل بماله لان البخيل بماله قد يبعثه لنوايبه ويستبقيه للذاته ويستكثره لرتبته ويضد ذلك من بخل بجاهه لانه اضاع بالشح وبدده بالبخل وحرم نفسه غنيمة مكنته وفرصة قدرته فلم يعقبه الا ندما على ما فات واسفا على ضايع ومقتا يستحكم في النفوس وذما قد ينتشر في الناس وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الخلق كلهم عيال الله عز وجل فاحب خلق الله احسنهم صنعا الى عياله وقد قال بعض الحكما اصنع الخير عند امكانه يبق لك حمدا عند زواله اياما واحسن والدولة لك يحسن اليك والدولة عليك واجعل زمان رخائك عدة لزمان بلائك وقال بعض البلغا من علامة الاقبال اصطناع الرجال وقال بعض الادبا بذل الجاه احد الحياتين وقال ابن الاعرابي العرب تقول من امل امرا هابه ومن جهل شيا عابه وبذل الجاه قد يكون من كرم النفس وشكر النعمة وصدق ضده وليس بذل الجاه التماس الحيا بذلا مشكورا وانما هو تابع جاهه ومعارض على نعم الله تعالى والايه فكان بالذم احق وانشد

بعض أهل الادب لعلي بن العباس الرومي

لا يبذل العرف حين يبذله ∴ كمشتري الحمد وكمعتاضه

بل يفعل العرف حين يفعله ∴ لجوهر العرف لا لإعراضه

وعلى من اسعد بجاهه ثلاثة حقوق ليستكثر بها الشكر ويستمد بها المزيد احدها ان يستسهل المعونة مسرورا بها ولا يستثقلها كارها فيكون بنعم الله تعالى متبرما ولاحسانه متسخطا وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من عظمت نعم الله عنده عظمت مؤنة الناس عليه فمن لم يحتمل تلك المؤنة عرض تلك النعمة للزوال الثاني مجانبة الاستطالة وترك الامتنان فانهما من لوم المطبع وضيق الصدر وفيهما هدم الصنيع واحباط الشكر وقد قيل للحكيم اليونان من اضيق الناس طريقا واقلهم صديقا قال من عاشر الناس بعبوس وجهه واستطال عليهم بنفسه والثالث ان لا يقرن بمشكور سعيه تقريعا بذنب ولا توبيخا على هفوة فلا يفي مضض التوبيخ بادراك النجح ويصير الشكر وزرا والحمد عتبا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم اقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم وقال النابغة الجعدي

الم تعلما ان الملامة نفعها ∴ قليل اذا ما الشيء ولى وادبرا

واما الاسعاف في النوايب فلان الايام غادرة والنوازل عاثرة والحوادث عارضة والنوايب راكضة فلا يعدم فيها الاعليم ويستنقذ منها الا سليم

وقال عدي بن زيد

كفى زاجرا للمرء ايام دهره ∴ تروح له بالواعظات وتغتدي

فاذا وجد الكريم مصابا بحوادث وجنة الكرم وشكر النعم على الاسعاف فيها بما استطاع سبيلا اليه ووجد قدرة عليه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خير من الخير معطيه وشر من الشر فاعله وقيل لبعض الحكما هل شي خير من الذهب والفضة قال معطيهما والاسعاف في النوايب نوعان واجب وتبرع فاما الواجب فما اختص بثلاثة اصناف وهم الاهل والاخوان والجيران اما الاهل

فلمماسة الرحم وتعاطف النسب وقد قيل لم يسد من احتاج اهله الى غيره

وقال حسان بن ثابت

واي امرء نال المنى ثم لم ينل ∴ قريبا ولا ذا حاجة لزهيد

وان امرء عاد الرجال على الغنا ∴ ولم يسال الله الغنا لحسود

واما الاخوان فلمستحكم الود ومتاكد العهد سيل الاحنف بن قيس عن المروة فقال الصدق اللسان ومواساة الاخوان وذكر الله في كل مكان وقال بعض الحكما من الفرس صفة الصديق ان يبذل لك ماله عند الحاجة ونفسه عند النكبة ويحفظك عند المغيب وراى بعض الحكما رجلين يصطحبان ولا يفترقان فقال فسال عنهما فقال هما صديقان فقال ما بال احدهما غنيا والاخر فقيرا واما الجار فلدنو داره واتصال مزاره وقد قال علي كرم الله وجهه ليس حسن الجوار كف الاذى ولكنه الصبر على الاذى وقال بعض الحكما من اكرم جاره اعانه الله واجاره وقال بعض الحكما من اكرم جاره اعانه اسوا جاره وقال بعض البلغا من احسن الى جاره دل على حسن نجاره قال بعض الشعرا

وللجار حق فاجتنب من اذاته ∴ وما خير جار لا يزال مداريا

فيجب في حقوق المروة وشروط الكرم في هولاء الثلاثة افعالهم واسعافهم في نوايبهم ولا فسحة لذي مروة مع ظهور المكنة ان يكلهم الى غيره او يلجئهم الى سواله وليكن سايل نفسه عنهم فانهم عيال كلهم واضيافه الى الطلب والرغب فهكذا من عاله كرمه واضاف مرونه وقد قال بعض الشعرا

حق على السيد المرجو نائله ∴ والمستجار به في العرب والعجم

ان لا ينيل الاقاصي صوب راحته ∴ حتى يخص به الادنى من الخدم

ان الغراب اذا جاست عواريه ∴ يروي السواحل ثم امتد في الامم

واما التبرع فما عدا هولاء الثلاثة من البعد الذين لا يدلون بنسب ولا يتعلقون بسبب فان تبرع بفضل الكرم وفائض المروة فنهض في حوادثهم

فلمما

ونكثر ثوابهم فقد زاد على شروط المروة وتجاوزها الى شروط الرياسة
وقيل لبعض الحكما اي شي من افعال الناس يشبه افعال الاله جل وعلا
قال الاحسان الى الناس وان كف تشاغل بمن لزم فلا يوثم ما لم يجاهر به مضطرا
اذ القيام بالكل معوز والتكفل بالجميع معتذر فهذا حكم المواردة واما
المياسرة فنوعان احدهما العفو عن الهفوات والثاني المسامحة في الحقوق
فاما العفو عن الهفوات فانه لا مبرأ من سهو وزلل ولا سليم من نقص و
خلل ومن رام سليما من هفوة والتمس بريا من نبوة فقد تعدى على الدهر
بشططه وخادع نفسه بغلطه وكان من وجود بغيته بعيدا وصار باقتراحه
فردا وحيدا وقد قالت الحكما لا صديق لمن اراد صديقا لا عيب فيه وقد
قيل لانوشروان هل من احد لا عيب فيه قال من لا موت له واذا كان
الدهر لا يوجد ما طلب ولا ينيله ما احب وكان الوحيد في الناس مرفوضا
مكانا قصيا والمنقطع عنهم بهيما وحشيا الزمه مساعدة زمانه في القضاء وما
سره اخوانه في الصفح والاغضا روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله
امرني بمداراة الناس كما امرني باقامة الفرايض وقال بعض الادبا ثلاث
خصال لا تجتمع الا في كريم حسن المنظر واحتمال الذل وقلة الملال وقال ابن الرومي

• فعذرك مبسوط لذنب مقدم • وودك مقبول باهل ومرحب •
• ولو بلغتني عنك ادنى افمتها • لدي مقام الكاشح المتكذب •
• فلست بتقليب اللسان مصارما • خليلا اذا ما القلب لم يتقلب •

واذا كان الاغضا حتما والصفح لازما ترتبت الهفوة وتنزل بقدر الذنب والهفو
نوعان صغاير وكباير فالصغاير مغفورة والنفوس بها معذورة لان الناس
مع اطوارهم المختلفة واخلاقهم المتفاضلة لا يسلمون منها وكان الوجد فيها
مطرحا والعتب فيها مستقبحا وقد قال بعض الحكما من هجر اخاه بغير ذنب كان
كمن زرع زرعا حصده فبدا وانه وقال ابو العتاهية

• وشر الاخلاء من لم يزل • يعاتب طورا وطورا يذم •
• يريك النصيحة عند اللقا • ويبريك في السر بري القلم •

واما الكبار فنوعان احدهما ان يهفو بها خاطيا ويزل بها ساهيا فالحرج
فيها مرفوع والعتب عنها موضوع لان هفوة الخاطي هدرة ولومه هدر و
قال بعض الحكما لا تقطع اخاك الا بعد عجز الحيلة عن اصطلاحه وقال
الاحنف بن قيس حق الصديق ان يحتمل له ثلاثا ظلم الغضب وظلم الدالة وظلم
الهفوة وحكي ابن ابي عون ان غلاما هاشميا عربد على قوم فاراد عمه ان
يسي اليه فقال يا عم اني اسات وليس معي عقلي فلا تسي ومعك عقلك

وقال ابو فراس

• لم اواخذك اذا جنيت فانني • واثق منك بالاخاء الصحيح •
• فجميل العدو غير جميل • وقبيح الصديق غير قبيح •

ان تشبه خطاؤه بالعمد وسهوه بالقصد تثبت ولم يلم بالتوهم يكون
ملوما ولا يذم بالظن فيصير مذموما فلذلك قيل التثبت نصف العفو
وقال بعض الحكما لا يفسدنك الظن على صديق قد اصلحك اليقين وقال
بعض شعرا هذيل

• فبعض الامر يصلحه ببعض • فان الغيث يحمد السمين •
• ولا تعجل بظنك قبل خبر • فعند الخبر تنقطع الظنون •
• ترى بين الرجال العمي فضلا • وفيها الضمر والفضل المبين •
• كلون الما مشتبها وليست • تخبر عن مذاقته العيون •

والثاني ان يعتمد ما اجترم من كبايره ويقصد
ما اجترح من سياته فلا يخلو حاله فيما اتاه من احوال اربعة فالحالة الاولى
ان يكون موتورا قد قابل على بوادره وكافا على مساته فاللايمة على من وتره
عايدة والى البادي بها راجعة لان المكافي اعذر وان كان الصفح اجمل ولذلك

قال النبي صلى الله عليه وسلم اياكم والمشاورة فانها تميت العزة وتحيي الغرة ولذلك قال بعض الحكما من فعل ما شا لقي ما لم يشا وقال بعض الادبا من نالته اساتك همته مساتك وقال بعض البلغاء من بلغ بقبح المعاملة اوجع بقبح المقاتله وقال صالح بن عبد القدوس

اذا وترت امرا فاحذر عداوته ٭ من يزرع الشوك لم يحصد به عنبا
ان العدو وان ابدا مسالمة ٭ اذا راى منك يوما فرصة وثبا

والاغضا عن هذا الذنب اوجب وان لم تكن المكافاة ذنبا الا انه راى عقبا اساته فان واصل الشر فاصلته المكافاه وقد قيل باعتزالك الشر يعتزلك وبحسن النصفه يكثر الواصفون وقد قال بعض الحكما من كنت سببا لبلائه وجب عليك التلطف له في علاجه من دائه ببيت

اذا انت لم تعرض عن الجهل والخنا ٭ اصبت حليما او اصابك جاهل

والحالة الثانيه ان يكون عدوا قد استحكمت شحناؤه واستوعرت شراوه واستخشنت ضراؤه فهو يتربص بدوابر السو انتهاز فرصة ويتجرع غصص العجز مرار غصصه فاذا ظفر بنايبة ساعدها وان شاهد نعمة عاندها فالبعد منه حذرا اسلم والكف منه متاركة اغنم فانه لا سلم من عواقب شره ولا يفلت من غوايل مكره وقد قالت الحكما لا تعرض لعدوك في دولته فاذا زالت كفيت شره وقال لقمان لابنه يا بني كذب من قال ان الشر بالشر يطفى فان كان صادقا فليوقد نارين ولينظر هل تطفي احداهما الاخرى وانما يطفي الخير الشر كما يطفي الما النار وقيل جعفر بن محمد رضي الله عنهما كفاك من الله نصرا ان ترى عدوك يعصي الله تعالى وقال بعض الادبا بالسيرة العادلة يقهر المعادي

فاقسم لا اجزيك بالشر مثله ٭ وكفى بالذي جاريتني لك جاريا

والحالة الثالثه ان يكون لئيم الطبع خبيث الاصل قد اغرا لوم الطبع على

سوء الاعتقاد وبعثه خبث الاصل على ايثار الفساد فهو لا يستقبح الشر ولا يكف عن المكروه فهذه الحاله اطم لان الاضطرار بها اعم ولا سلامة من مثله الا بالبعد والانقباض ولا خلاص الا بالصفح والاعراض فانه كالسبع الضاري في سوارح النعم كالنار المتاججه في يابس الحطب لا يقربها الا تالف ولا يدنو منها الا هالك روى مكحول عن ابي امامة عن النبي صلى الله عليه وسلم الناس كشجرة ذات جني ويوشك ان يعودوا كشجرة ذات شوك فان ناقدتهم ناقدوك وان هربت منهم طلبوك وان تركتهم لم يتركوك قيل يا رسول الله كيف المخرج قال اقرضهم من عرضك ليوم فاقتك وقال عبد الله بن عباس العاقل الكريم صديق كل احد الا من ضره والجاهل اللئيم عدو كل احد الا من نفعه وقال بعض الحكما شر ما في الكريم ان يمنعك خيره وخير ما في اللئيم ان يكف عنك شره وقال بعض البلغاء اعداؤك وفي البعد منهم شفاؤك وقال بعض الادبا شرف الكريم تغافله عن اللئيم واوصى بعض الحكما ابنه فقال يا بني اذا اسلم الناس منك فلا عليك ان لا تسلم منهم فانه قلما اجتمعت هاتان النعمتان

والخير والشر مقرونان في قرن فالخير متبع والشر محذور والحالة الرابعه ان يكون صديقا قد استحدثت نبوه وتغيرا واخا قد استجد جفوة وتنكرا فابدى صفحه عفو فه واطرح لازم حقوقه وعدل عن بر الاخاء الى جفوة الاعدا فهذا يعرض في المودات المستقيمة كما تعرض الامراض في الاجسام السليمه فان عولجت اقلعت وان اهملت اسقمت ثم اتلفت ولذلك قالت الحكما دوا المودة بكثرة التعاهد

اقل ذي الود عثرته وقفه ٭ على سنن الطريق المستقيم
ولا تسرع بمعتبة اليه ٭ فقد يهفو ونيته سليمه

ومن الناس من يرى ان متاركة الاخوان اذا تغيروا اصلح واطراحهم اذا

اولى كاعضاء الجسد اذا فسدت كان قطعها سلم فان شح بها سرت الى
نفسه وكالثوب اذا خلق كان اطراحه بالجديد اجمل من لبسه وقد قال
بعض الحكماء رغبتك فيمن يزهد فيك ذل نفسك وزهدك فيمن يرغب فيك
صغر همة وقال بزرجمهر من تغير عليك في مودته فقد غدر حيث كان قبل معرفته

قال الحراري

صل من دنا وتناس من بعدا ⁂ لا تكرهن على الهوى احدا
قد اكثرت حوى اذ ولدت ⁂ فاذا جفا ولد فخذ ولدا

وهذا مذهب من قلت وفاؤه وضعف اخاؤه وساءت طرايقه وضاقت
خلايقه ولم يكن فيه فضل الاحتمال ولا صبر على الادلال وقابل على العفو
بالعقوق لا بالفضل اخذ ولا الى العفو اخلد وقد علم ان نفسه قد تطغى
عليه فيرديه وان جسمه قد يسقم عليه فيولمه ويوذيه وهما اخص به واجنى عليه
من صديق قد تميز بذاته وانفصل بذواته فيريد من غيره لنفسه ما لا يجد من
نفسه هذا عين المحال ومحض الجهل مع ان من لم يحتمل يبقى فردا او تنقلب
الصديق فيصير عدوا وعداوة من كان صديقا اعظم من عداوة من لم يزل
عدوا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم احبب حبيبك هونا ما وقال
اوصاني ربي بسبع الاخلاص في السر والعلانية وان اعفو عمن ظلمني
واعطي من حرمني واصل من قطعني وان يكون صمتي فكرا ونظري
عبرا ونطقي ذكرا قال لقمن لابنه يا بني لا تترك صديقك الاول فلا
يطمئن اليك الثاني يا بني اتخذ الف صديق والف قليل ولا تتخذ
عدوا واحدا فالواحد كثير وقيل للمهلب بن ابي صفرة ما تقول في العفو
والعقوبة قال هما بمنزلة الجود والبخل فتمسك بايهما شيت وانشد ثعلب

اذا انت لم تستقبل الامر لم تجد ⁂ بكفيك في ادباره متعلقا
اذا انت لم تترك اخاك وزلة ⁂ اذن لها اوشكتما ان تفرقا

فاذا كان الامر على ما وصفت فمن حقوق الصفح الكشف عن سبب الهفوة لتعرف
الداء فتعالجه فان لم تعرف الداء لم تقف على الدوا وكان كما قال المتنبي

فان الجرح ينفر بعد حين ⁂ اذا كان البنا على الفساد

واذا كان كذلك فلا يخلو حال ذلك السبب من ان يكون لملل وزلل
فوات الملوك ظل الغمام وحلم المنام وقد قيل في منثور الحكم لا
تامنن ملولا وان تحلى بالصلة وعلاجه ان يترك على ملله فسيملّ
الجفا كما مل الاخا وان كان لزلل لو خطت اسبابه فان كان لها مدخل
في التاويل وشبهة تاول الى الجميل حمله على اجمل تاويله وصرفه الى احسن
جهته كالذي حكي عن خالد بن صفوان انه مر به صديقان له فعرج
عليه احدهما وطواه الاخر فقيل له في ذلك فقال نعم عرج علينا هذا
بفضله وطوانا هذا النفقة. وانشد بعض الادبا لمحمد بن داود الاصبهاني

وتزعم للواشين اني فاسد ⁂ عليك واني لست فيما عهدتني
وما فسدت لي يعلم الله نية ⁂ عليك ولكن خنتني فاتهمتني
غدرت بعهدي عامدا فاخنتني ⁂ فخنت ولو انصفتني لامنتني

وان لم يكن لزلله في التاويل مدخل نظر حاله بعد زلله فان ظهر ندمه وبان
خجله فالندم توبة والخجل انابه ولا ذنب لتايب ولا لوم على منيب ولا
يكلف عما سلف فيلجأ الى ذل التعنيف وخجل التعنيف ولذلك قال النبي صلى
الله عليه وسلم اياكم والمعاذر فان اكثرها مفاخر وقال علي بن ابي طالب كرم
الله وجهه كفى بما يتعذر منه تهمة وقال مسلم بن قتيبة لرجل اعتذر اليه
لا يدعونك امر قد تخلصت الى الدخول في امر لعلك لا تتخلص منه وقال بعض
الحكما شفيع المذنب اقراره وتوبته اعتذاره وقال بعض البلغا من لم يقبل
التوبة عظمت خطيئته ومن لم يحسن الى التايب قبحت اساته وقال بعض الادبا

الكريم اوسع ما يكون مغفرة اذا ضاقت بالمذنب المعذرة وقال الشاعر

العذر يلحقه التحريف والكذب ... وليس في غير ما يرضيك لي ارب

وقد اسات فبالنعما التي سلفت ... الا مننت بعفو ما له سبب

وان عجل العذر قبل توبته وقدم التفضل قبل انابته فالعذر توبة والتفضل انابة فلا يكشف عن باطن عذره ولا يعنف بظاهر عذره فيكون لئيم الظفر سيئ المكافاة وقد قيل من علامة الحمق فلا تغتر بمودته وقال بعض الحكما شافع المذنب خضوعه الى عذره وقال الشاعر

اقبل معاذير من ياتيك معتذرا ... ان بر عندك فيما قال او فجرا

فقد اطاعك من يرضيك ظاهره ... وقد اجلك من يعصيك مستترا

وان تارك نفسه في زلله ولم يتدارك بعذره وتنصله ولا محاه بتوبته واعنت حاله في المنازل فلسجيته لا ينفك فيها من امور ثلاثة اما ان يكون قد كف عن سيئ عمله واقلع عن سالف زلله فالكف احد التوبتين والاقلاع احدى المعذرتين فكن انت المتعذر عنه بصفحك والمتفضل له بتفضلك فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه المحسن على المسيء امير والثاني ان يكون قد وقف على ما سلف من زلله ولا متجاوز فوق المرض اخذ البرين وكفه عن الزيادة احدى الحسنيين وقد استبقى بالوقوف على التجاوز احدى شطريه فعول به على الشطر الاخير واياك والرجاء فان الارجا يفسد شطر صلاحه والتلافي يصلح شطر فساده فان من سقم ولم يعالجه سرى السقم الى صحته وان عالجه سرت الصحة الى سقمه والثالث ان يتجاوز مع الاوقات ويزيد فيه على مرور الايام فهذا هو الداء العضال فان امكن استدراكه وتاتى استصلاحه باستنزاله عن اتى علاوته ان دنا ويعتابه ان ساوى والا فاخر الدآء الحياء الكي ومن بلغت به الاعذار

الى

الى غايتها فلا ... عليه والمقيم على شقاقه باغ مصروع وقد قيل من سل سيف البغي اغمده في راسه فهذا شرط واما المسامحة في الحقوق فلان الاستيفا موحش والاستقصا منفر ومن اراد كل حقه من النفوس المستصعبة بشح وطمع لم يصل اليه الا بالمنافرة والمشاقة ولم يقدر عليه الا بالمحاسبة والمشاحة وقد استقر في الطبايع مقت من شاقها اونافرها وبغض من شاحها ونازعها كما استقر فيها حب من سامحها وياسرها وكان اليق الامور بالمروة استعطاف النفوس بالمسامحة والمباسطة وتالفها بالمقاربة والمساهلة وقال بعض الحكما من عاشر اخوانه بالمسامحة دامت لهم مودتهم وقال بعض الادبا ان اخذت عفو القلوب ربحك وان استقصيت اكديت والمسامحة نوعان في عقود وحقوق فاما العقود فهو ان يكون فيها سهل المناجزة قليل المحاجزة مامون الغيبة بعيدا من المكر والخديعة وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اجملوا في طلب الدنيا فان كلا ميسر لما كتب له فيها وقال صلى الله عليه وسلم الا ادلكم على شيء يحبه الله قالوا بلى يا رسول الله قال التغابن للضعيف وحكي عن عمرو بن عبيد ان عبدا اشترى للحسن البصري ازارا بستة دراهم ونصف فاعطى التاجر سبعة فقال له ثمنه ستة ونصف فقال اني اشتريته لرجل لا يقاسم اخاه درهما ومن الناس من يرى ان المساهلة في العقود عجز وان الاستقصا فيها حزم حتى ليماكس في التافه الحقير وان جاد بالجزل الكثير كالذي حكي عن عبد الله بن جعفر وقد ماكس في درهم وهو يجود به فقيل في ذلك فقال ذلك مالي اجود به وهذا عقلي بخلت به وهذا انما يستساغ من اهل المروة في دفع ما يخدعهم به الادنيا ويعاتبهم به الاشحا وهكذا كانت حالة عبد الله بن جعفر فاما مماكسة الاستنزال والاستسماح فكلا فانه مناف للكرم ومباين للمروة واما الحقوق فيتنوع المسامحة فيها نوعين احدهما في الاحوال والثاني في

الاموال فاما المساحة في الاحوال فهو اطراح المنازعة في الرتب وترك
المنافسة في التقدم فان مساحة النفوس فيها اعظم والعناد عليها
اكثر فان سامح فيها ولم ينافس كان مع اخذه بافضل الاخلاق واستعماله
لاحسن الاداب اوقع في النفوس من افضاله برغايب الاموال ثم هو ازيد في
مرتبته وابلغ في تقدمه وان شاح فيها ونازع كان مع ارتكابه لاحسن
الاخلاق واستعماله لاحسن الاداب انكا في النفوس من حد السيف وحز
السنان ثم هو احفظ للرتبة وامنع من التقدم حكي ان فتا من بني هاشم
تخطى رقاب الناس عند ابن ابي داود فقال له يا بني ان الادب ميراث الاشراف
ولست ارى عندك من اسلافك ارثا واما المساحة في الاموال فتتنوع
ثلاثة انواع مساحة اسقاط لعدم ومساحة تخفيف لعجز ومساحة
انظار لعسرة وهي مع اختلاف اسبابها تفضل ماثور وتالف مشكور واذا
كان الكريم قد يجود بما تحويه يده وينفذ فيه تصرفه كان اولى ان يجود بما
خرج عن يده وطاب نفسا بفراقه وقد تصل المساحة في الحقوق الى من لا
يقبل البر ويابى الصلة فيكون احسن موقعا وازكى محلا وربما كانت المساحة
فيها الام من رد المسائل ومنع المجتدي لان السائل كما اجترى على سوالك
فسيجترى ان رددته على سوال غيرك وليس كل من صار اسير حقك ورهين
دينك يجد بدا من مساحتك ومباشرتك ثم لك مع ذلك حسن الثناء وجزيل
الاجر قال محمود الوراق

المرء بعد الموت احدوثة   يفنى ويبقى منه اثاره
فاحسن الحالات حال امرئ   تطيب بعد الموت اخباره

فهذه حال المباشرة واما الافضال فنوعان افضال اصطناع وافضال
استكفاف ودفاع اما افضال الاصطناع فنوعان احدهما ما اسداه جودا في
شكور والثاني ما يالف به نبوة نفور وكلاهما من شروط المروة لما فيهما

من ظهور الاصطناع وتكاثر الاشياع والاتباع ومن قلت صنايعه
في الشاكرين واعرض عن تالف النافرين كان فردا مهجورا وتابعا
محقورا ولا مروة لمتروك مطرح ولا قدر لمحقور ممتهن وقال عمر بن
عبد العزيز ما طاوعني الناس على شي اردته من الحق حتى بسطت لهم
طرفا من الدنيا وقال بعض الحكماء احق ما يجب للمنعم بحق نعمته ان لا يتوصل
بها الى معصية وانشد لبعض الاعراب من جمع المال ولم يجد له

وجمع المال لعام جدبه   هان على الناس هوان كلبه

وقال اسحق بن ابرهيم الموصلي

يبقى الثنا وتذهب الاموال   ولكل دهر دولة ورجال
ما نال محمدة الرجال وشكرهم   الا الجواد بماله المفضال
لا ترض من قول حلاوة قوله   حتى يصدق ما يقول فعال

فان ضاق به الحال عن الاصطناع بماله فقد عدم من آلة المكارم عمادها
وفقد من شروط الرياسة شاهدها فليواس بنفسه مواساة المساعف
ويسعد بها اسعاد المتالف كما قال المتنبي فليسعد النطق ان لم يسعد الحال
وان كان لا يراها وان جهدها الا تبعا للمفضلين قليلة بين المكثرين فان
الناس لا يساوون بين المانع والمعطي ولا يقنعهم القول دون الفعل ولا
يغنيهم الكلام عن المال ويرونه كالصدى ان رجع صوتا لم يجد نفعا
كما قال الشاعر يجود بالوعد ولكنه   يدهن من قارورة فارغه
فكلما خرج عندهم عن المال كان فارغا وكلما عد الافضال به كان هنيا
وقد قدمنا القول في شروط الافضال ما اقنع واما الافضال
للاستكفاف فلان ذا الفضل لا يعدم حاسد نعمة ومعاند فضيلة يعزيه الجهل
باظهار عناده ويبعثه اللوم على البذا بسفهه فان غفل عن استكفاف
السفهاء واعرض عن استدفاع اهل البذا صار عرضه هدفا للمثالب

وحاله عرضه للنوايب واذا استكف السفيه واستدفع البذي صان عرضه
وحمى نعمته وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما وقي المرء به عرضه
فهو صدقة وقالت عايشة رضي الله عنها ذبّوا باموالكم عن احسابكم
وامتدح رجل الزهري فاعطاه قميصه فقال له رجل انعطي على كلام
الشيطان فقال ان من ابتغاء الخير اتقاء الشر ولذلك قال النبي صلى الله عليه
وسلم من اراد بر الوالدين فلا يعطي الشعراء وهذا صحيح لان الشعر اساير
سيرته ما تضمن من مدح او هجاء ولاجل ذلك قيل لا تواخ شاعرا فانه
يمدح بثمن ويهجو مجانا ولاستكفاف السفهاء بالافضال شرطان ان
يخفيه حتى لا ينتشر فيه مطامع السفهاء فيتوصلون الى اجتذابه بسبه
والى ماله بثلبه والثاني ان يتطلب له في المجاملة وجها يجعله في
الافضال سببا لان يرى انه على السفه قد اعطي ولاجل البذا قد حبي
فيغريه ذلك بزيادة السفه واستدامة البذا واعلم انك ما حييت
ملحوظ المحاسن محفوظ المساوي لم تعدم لك حديث منتشر لا يراقب
صديق ولا يحامي عنك شفيق فكن احسن حديث ينتشر يكن سعيك في
الناس مشكورا واجرك عند الله مذخورا فقد روى زياد بن الجراح
عن عمرو بن ميمون الاودي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اغتنم خمسا
قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك
وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك وهذا ما اقتضاه هذا
الفصل من شروط المروة وان كنا بما هذا من شروطها وما اتصل بحقوقها

الفصل الثامن في اداب منثورة اعلم ان

الاداب مع اختلافها بتنقل الاحوال وتغير العادات لا يمكن استيعابها
ولا يقدر على حصرها وانما يذكر كل انسان ما بلغه الوسع من اداب زمانه
واستحسن بالعرف من عادات دهره ولو امكن ذلك لكان الاول قد اغنى عن

الثاني من تلو المتقدم فهو كفا المتاخر كلفها وانما حظ الاخر ان يعاني حفظ
الشارد وجمع المتفرق ثم يعرض ما تقدم على حكم زمانه وعادات وقته
فيثبت ما كان موافقا وينفي ما كان مخالفا ثم يستمد خاطره في استنباط
زيادة واستخراج فايدة فان اسعف بشيء فاز بدركه وحظي بفضيلته ثم
يعبر عن ذلك كله بما كان مالوفا من كلام الوقت وعرف اهله فان لاهل كل وقت
في الكلام عادة تولف وعبارة تعرف ليكون اوقع في النفوس واسبق الى
الافهام ثم يرتب ذلك على اوايله ومقدماته ويبنيه على اصوله و
قواعده بحسب ما يقتضيه الجنس فان لكل نوع في العلوم طريقة هي اوضح
مسلكا واسهل ماخذا فهذه خمسة شروط وهي حظ الاخير
فيما يعانيه وكذا القول في كل تصنيف مستحدث ولولا ذلك لكان تعاطي
ما تقدم به الاول عناء ضايعا وتكلفا مستهجنا وارجو ان يمدنا الله
بالتوفيق لتاديه هذه الشروط وينهضنا المعونة بتوفيه هذه الحقوق حتى
نسلم من نقص التكلف ونبرا من عيب التقصير وان كان اليسير مغفورا والخاطي
معذورا فقد قيل من صنف كتابا فقد استهدف فان احسن فقد استعطف
وان اسا فقد استقذف وقد مضت ابوابا تضمنت فصولا رايت اتباعها
بما لم احب الاخلال به فمن ذلك حال الانسان في ماكله ومشربه فان الداعي الى
ذلك شيان احدهما حاجة ماسة والثاني شهوة باعثة فاما الحاجة فتدعو الى
ما سد الجوعة وسكن الظما وهذا مندوب اليه عقلا وشرعا لما فيه من حفظ
النفس وحراسة الحواس ولذلك ورد الشرع بالنهي عن الوصال بين صوم
اليومين لانه يضعف الجسد ويميت النفس ويعجز عن العبادة وكل ذلك يمنع
الشرع ويدفع عنه العقل وليس لمن منع نفسه قدر الحاجة حظ من بر ولا
نصيب من زهد لان ما حرمها من فعل الطاعة بالعجز والضعف اكثر
ثوابا واعظم اجرا اذ ليس في ترك المباح ثوابا بل فعل الطاعة واتيان

القرب ومن اخسر نفسه ربحا موفورا وحرمها اجرا مذخورا كان زهده في
الجزاء اقوى من رغبته ولم يبق عليه من هذه التكاليف الا المشقة بريائه وسمعته
واما الشهوة فتتنوع نوعين احدهما شهوة في الاكثار والزيادة
والثاني شهوة في تناول الالوان الملذة فاما النوع الاول وهو شهوة الزيادة
على قدر الحاجة والاكثار على مقدار الكفاية فهو ممنوع منه في العقل والشرع
كما كان قدر الحاجة مندوبا اليه في العقل والشرع لان تناول ما زاد على
الكفاية نهم معرة وشره مضرة وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اياكم
والبطنة فانها مفسدة للدين مورثة للسقم مكسلة عن العبادة وقال علي
كرم الله وجهه اذا كنت بطينا فعدك زمنا وقال بعض العلما اقلل طعاما
فمعه الصحة وقال بعض البلغاء لا يسكن العلم معدة ملئت طعاما وقال بعض
اقلل طعاما تحمد مناما وقال بعض الادبا الرغب شوم والنهم لوم وقال بعض
الحكما اكبر الدوا تقدير الغذا وقال بعض الشعراء

وكم من اكلة منعت اخاها ... بلذة ساعة اكلات دهر
وكم من طالب يسعى لامر ... وفيه هلاكه لو كان يدري

وروى ابو زيد المدني عن عبد الرحمن بن المرقع قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
ان الله لم يخلق وعاء شرا من البطن فان كان لا بد فاعلا فاجعلوا ثلثا للطعام
وثلثا للشراب وثلثا للريح واما النوع الثاني وهو شهوة الاشيا الملذة
ومنازعة النفس الى طلب الانواع الشهية فمذاهب الناس في تمكين النفس منها
مختلفة فمنهم من يرى ان صرف النفس عنها اولى وقهرها عن اتباع شهواتها
احرى ليذل له قيادها ويهون عليه عنادها لان تمكينها وما تهوى بطر
واشر يردى لان شهواتها غير متناهية فاذا اعطاها المراد من شهوة وقتها
تعدتها الى شهوات قد استحدثتها فتصير الانسان اسير شهوات لا تنقضي
وعبد هوى لا ينتهي ومن كان بهذه الحالة لم يرج له صلاح ولم يوجد فيه

خير

فصل وانشدت لابي الفتح البستي

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته ... اتطلب الربح مما فيه خسران
اقبل على النفس واستكمل فضائلها ... فانت بالنفس لا بالجسم انسان

ولبحذر من هذه الحالة كما حكي ان ابا حازم كان يمر على الفاكهة
فيشتهيها فيقول موعدك الجنة وقال اخرون تمكين النفس من لذاتها
اولى واعطاؤها ما اشتهت من المباحات احرى لما فيه من ارتياح النفس
بنيل شهواتها ونشاطها بادراك اراداتها فيتحسر عنها ذلة المقهورة
وبلادة المغمور فلا تقصر عن درك ولا تبطي في نهضة ولا تكل عن
وقال اخرون بل توسط الامرين اولى لان في اعطائها كل شهوتها سلاطة
والنفس السليطة معاندة وفي منعها من جميع شهواتها بلادة والنفس البليدة
عاجزة وفي منعها عن البعض كف لها عن السلاطة وفي تمكينها من البعض حسم
لها عن البلادة وهذا لعمري اشبه المذاهب بالسداد لان التوسط في الامور
احمد واذا انقضى الكلام في المأكول والمشروب فينبغي ان يتبع بذكر
الملبوس اعلم ان الحاجة وان كانت الى المأكول والمشروب ادعى فهي الى
الملبوس ماسة ولها اليه فاقة لما في اللباس من حفظ الجسد ودفع الاذى
وستر العورة وحصول الزينة قال الله تعالى يا بني ادم قد انزلنا عليكم
لباسا يواري سواتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير فمعنى قوله تعالى
قد انزلنا عليكم لباسا اي خلقنا لكم ما تلبسون من الثياب يواري سواتكم
اي يستر عليكم عوراتكم وسميت العورة سوءة لانه يسوء صاحبها انكشافها
من جسده وقوله وريشا فيه اربع تاويلات احدها انه المال وهو قول
مجاهد والثاني انه اللباس والعيش والنعيم وهذا قول ابن عباس والثالث
انه المعاش وهو قول معبد الجهني والرابع انه الجمال وهو قول عبد الرحمن بن زيد
وقوله تعالى ولباس التقوى فيه ست تاويلات احدها ان لباس التقوى هو الايمان

وهذا قول قتادة والسدي والثاني انه العمل الصالح وهذا قول ابن عباس والثالث انه السمت الحسن وهذا قول عثمان بن عفان رضي الله عنه والرابع هو خشية الله وهذا قول عروة بن الزبير والخامس انه هو الحيا وهذا قول معبد الجهني والسادس هو ستر العورة وهذا قول عبد الرحمن بن زيد وقوله تعالى ذلك خير فيه تاويلان احدهما ان ذلك راجع الى ما تقدم من قوله قد انزلنا عليكم لباسا يواري سواتكم وريشا ولباس التقوى ثم قال ذلك الذي ذكرته خير كله والثاني ان ذلك راجع الى لباس التقوى ومعنى الكلام ان لباس التقوى خير من الرياش واللباس وهذا قول قتادة والسدي فلما وصف الله تعالى حال اللباس واخرجه مخرج الامتنان علما بانه معونة منه لشدة الحاجة اليه واذا كان كذلك ففي اللباس ثلاثة اشيا احدها دفع الاذى والثاني ستر العورة والثالث الجمال والزينة فاما دفع الاذية فواجب بالعقل لان العقل يوجب دفع المضار واجتلاب المنافع وقد قال الله تعالى والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال اكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم باسكم فاخبر بحالها ولم يامر بها اكتفاء بما يقتضيه العقل واستغنا بما يبعث عليه الطبع ويعني بالظلال الشجر وبالاكنان جمع كن وهو الموضع الذي يستكن فيه ويعني بقوله سرابيل تقيكم الحر ثياب القطن والكتان والصوف وبقوله سرابيل تقيكم باسكم الدروع التي تقي الباس وهو الحرب فان قيل كيف قال تقيكم الحر ولم يذكر البرد وقال وجعل لكم من الجبال اكنانا ولم يقل السهل فعن ذلك جوابان احدهما ان القوم كانوا اصحاب جبال وخيام فذكر لهم الجبال وكانوا اصحاب حر دون برد فذكر لهم نعمة الله عليهم فيما هو مختص بهم وهذا قول عطا والجواب الثاني انه اكتفى بذكر احدهما عن ذكر الاخر اذ كان معلوما ان السرابيل التي تقي الحر تقي ايضا البرد ومن اتخذ من الجبال اكنانا اتخذ من السهل وهذا قول الجمهور

فذكرهم

واما العورة فقد اختلف الناس فيه هل وجب بالعقل او بالشرع فقالت طايفة وجب سترها بالعقل لما في ظهورها من القبح وما كان قبيحا فالعقل مانع منه الا ترى ان ادم وحوى عليهما السلام لما اكلا من الشجرة التي نهيا عنها بدت لهما سواتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة تنبيها لعقولهما في سترما راياه مستقبحا من سواتهما لانهما لم يكونا قد كلفا سترما لم يبد لهما ولا كلفا بعد ان بدت لهما وقالت طايفة اخرى بل ستر العورة واجب بالشرع لانه بعض الجسد الذي لا يوجب العقل ستر باقيه وانما اختصت العورة بحكم شرعي فوجب ان يكون ما يلزم من سترها حكما شرعيا فقد كانت قريش وكثر العرب مع ما كانوا عليه من وفور العقل وصحة الالباب يطوفون بالبيت عراة ويحرمون على نفوسهم اللحم والودك ويرون ذلك ابلغ في القربة وانما القرب ما استحسنت في العقل حتى انزل الله تعالى يا بني ادم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين يعني بقوله خذوا زينتكم الثياب التي تستر عوراتكم وكلوا واشربوا ما حرمتموه على انفسكم من اللحم والودك وفي قوله ولا تسرفوا تاويلان احدهما لا تسرفوا في التحريم وهذا قول السدي والثاني لا تاكلوا حراما فانه اسراف وهذا قول عبد الرحمن بن زيد فاوجب بهذه الاية ستر العورة بعد ان لم يكن العقل موجبا له فدل ذلك على ان سترها واجب بالشرع دون العقل واما الجمال فهو مستحسن بالعرف والعادة من غير ان يوجبه عقل او شرع وفي هذا النوع قد يقع التجاوز والتقصير والتوسط المطلوب فيه معتبر من وجهين احدهما في صفة الملبوس وكيفيته والثاني في جنسه وقيمته فاما صفته فمعتبرة بالعرف من وجهين احدهما في عرف البلاد فان لاهل المشرق زيا مالوفا ولاهل المغرب زيا مالوفا ولكل اقليم منهما من البلاد عادات في اللباس مختلفة والثاني عرف الاجناس فان

ستره

العورة

به والزينة

الموضع

للاجناد زيًا ما لوفًا وللتجار زيًا مالوفًا وكذا من سواهم من الاجناس المختلفة
عادات عادات في اللباس مختلفة وانما اختلفت عادات الناس في ملابسهم
من هذين الوجهين ليكون اختلافهم فيها سمة يتميزون بها وعلامة لا يجهلو
معها فان عدل احد عن لباسه من عرف اهل بلده وجنسه كان ذلك
خرقا وحمقا ولذلك قيل العري الفادح خير من الزي الفاضح واما
جنس الملبوس وقيمته فمعتبر من وجهين احدهما بالمكنة في اليسار والاعسار
فان للموسر في ذلك قدرا وللمعسر دونه والثاني بالمنزلة والجاه فان
لذي المنزلة الرفيعة في الزي قدرا وللمنخفض عنه دونه ليتفاضلوا
فيه على حسب تفاضل احوالهم فيصيروا به متميزين فان عدل الموسر
الى زي المعسر كان شحا وبخلا وان عدل الرفيع الى زي الدني كان مهانة
وذلا وان عدل المعسر الى زي الموسر كان تبذيرا وسرفا وان عدل الدني الى
زي الرفيع كان جهلا وتخلقا ولزوم العرف المعهود واعتبار الحد
المقصود ادل على العقل وامنع من الذم ولذلك قال عمر بن الخطاب
رضي الله عنه اياكم ولبستين لبسة مشهورة ولبسة محقورة وقال بعض
الحكما البس من الثياب ما لا يزدريك فيه العظما ولا يعيبك عليه العلما

وقال بعض الشعراء

ان العيون رمتك اذ فاجاتها ... وعليك من شهر الثياب لباس
اما الطعام فكل لنفسك ما تشا ... واجعل ثيابك ما اشتهاه الناس

واعلم ان من المروة ان يكون الانسان معتدل الحال في مراعاة لباسه من غير
اكثار واطراح مراعاتها وترك تفقدها مهانة وذل مراعاتها وصرف
الهمة الى العناية بها دناة ونقص وربما توهم بعض من خلا من فضل وعري
عن تمييز ان ذلك هو المروة الكاملة والسيرة الفاضلة لما يرى من تميزه
بذلك عن الاكثرين وخروجه عن جملة العوام المسترذلين وخفي عنه انه

اذا

اذا عدا طوره وتجاوز قدره كان اشنع لذكره وابعث على ذمه وكان كما

قال المتنبي

لا يعجبن عظيما حسن بردته ... وهل تروق دفينا جودة الكفن

حكي المبرد ان رجلا من قريش كان اذا اتسع لبس ارث ثيابه واذا
ضاق لبس احسنها فقيل له في ذلك فقال اذا اتسعت تزينت بالجود
واذا اضقت فبالهيبة وقد اتى ابن الرومي بابلغ من هذا المعنى

في شعره فقال

وما الحلي الا زينة لنقيصة ... يتمم من حسن اذا الحسن قصرا
واما اذا كان الجمال موفرا ... كحسنك لم يحتج الى ان يزورا

ولذلك قالت الحكما لبست العزة في حسن البزة قال بعض الشعرا

وترى سفيه القوم يدنس عرضه ... سفها ويمسح نعله وشراكها

واذا اشتد كلفه بمراعاة لباسه وقطعه ذلك من مراعاة نفسه وصار
الملبوس عنده انفس وهو على مراعاته احرص وقد قيل في منثور الحكم
البس من الثياب ما يخدمك ولا تلبس من الثياب ما يستخدمك وقال
خالد بن صفوان لاياس بن معاوية ارى لا تبالي ما لبست قال البس
ثوبا اقي به نفسي احب الي من لبس ثوب اقيه بنفسي وكما قال انه لا يكون
شديد الاطراح لها فقد حكى ابن عايشة ان رجلا جاء الى النبي
صلى الله عليه وسلم فنظر اليه رث الهيبة فقال له ما لك قال من كل المال قد
اتاني الله تعالى قال فان الله تعالى يحب اذا انعم على امرء نعمه ان ينظر
الى اثرها عليه وقيل المروة الظاهرة في الثياب الطاهرة وهكذا القول
في غلمانه وحشمه ان اشتد كلفه بهم صار عليهم قيما ولهم خادما وان
اطرحهم قل رشادهم وظهر فسادهم وصاروا سببا لمقته وطريقا الى ذمه
ولكن يكفهم عن سيئ الاخلاق وياخذهم بحسن الاداب كما قال بعض الشعرا

سهل الغنا اذا امرت ببابه طلق اليدين مؤدب الخدام

وليكن في تفقد احوالهم على ما يحفظ تجمله ويجبون تبذكره فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ادهنوا يذهب البوس عنكم والبسوا تظهر النعمة عليكم واحسنوا الى مماليككم فانه اكبت لعدوكم وليتوسط فيهم حالتي اللين والخشونة فانه ان لان هان عليهم وان خشن مقتوه وكان على خطر وحكي ان المؤبذ سمع ضحك الخدم في مجلس انوشروان فقال له اما تمنع هولاء الغلمان فقال انوشروان انما يهابنا اعداؤنا وقال ابو تمام الطائي

حشم الصديق عيونهم بحاثة لصديقه عن صدقه ونفاقه

فلينظرن المرء من غلمانه فهم خلائقه على اخلاقه

واعلم ان للنفس حالتين حالة استراحة ان حرمتها اياه كلت وحالة تصرف ان ارحتها فيه اختلت فالاولى بالانسان تقدير حالتيه حالة نومه ودعته وحالة تصرفه ويقظته فان لهما قدرا محدودا او زمانا مخصوصا يضر بالنفس مجاوزة احدهما وتغيير منهما فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال نومة الصبحة معجزة محفرة منجحة مكسلة ونومة مفسلة مغساة للجاه وقال عبد الله بن عباس النوم ثلاثة نومة حرق وهي الصبحة ونومة خلق وهي القايلة ونومة حمق وهي العشا وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نوم الضحى حرق والقيلولة خلق ونوم العشاء حمق قيل في منثور الحكم من لزم الرقاد عدم المراد فاذا اعطى النفس حقها من النوم والدعة واستوفى حقه منها بالتصرف واليقظة خلص بالاستراحة من عجزها وكلالها وسلم بالرياضة من بلادتها وفسادها حكي ان عبد الملك بن عمر بن عبد

الضحى

دخل على ابيه فوجده نائما فقال له يا ابت اتنام في وقت القيلولة والناس بالباب فقال يا بني نفسي مطيتي واكره ان اتعبها فتقوم وينبغي ان يقسم حال تصرفه ويقظته على المهم من حاجاته فان حاجة الانسان لازمة والزمان يقصر عن استيعاب المهم فكيف به ان يجاوز الى ما ليس بمهم هل يكون الا تاركة بعضها بالعراء وملبسه ببعض اخرى جنا ثم عليه ان يتصفح في ليله ما صدر في افعاله نهارا فان الليل احضر للخاطر واجمع للفكر فان كان محمودا امضاه واتبعه ما شاكله وضاهاه وان كان مذموما استدركه ان امكن وانتهى عن مثله في المستقبل فاذا فعل ذلك وجد افعاله لا تنفك من اربعة احوال اما ان يكون قد اصاب فيها الغرض المقصود بها او يكون قد اخطا فيها فوضعها في غير موضعها او يكون قد قصر فيها فنقصت عن حدودها او يكون قد زاد فيها فقد تجاوزت محدودها وهذا التصفح انما هو استظهار بعد تقديم الفكر قبل الفعل للعلم بمواقع الاصابة وبتيقن به استدراك الخطا وقد قيل من كثر اعتباره قل عثاره وكما يتصفح افعال نفسه فكذلك يجب ان يتصفح افعال غيره فربما كان استدراك الصواب منها اسهل لسلامة النفس من شبه الهوى وخلو الخاطر من حسن الظن فان ظفر بصواب وجده من غيره او اعجبه جميل من فعل غيره تقدى رتب نفسه بالعمل به فان السعيد من تصفح افعال غيره فاقتدى باحسنها وانتهى عن سيئها وقد روى زيد بن خالد الجهني عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال السعيد من وعظ بغيره وانشدني بعض اهل الطاهر بن الحسين

ان السعيد له من غيره عظة وفي التجارب تحكيم ومعتبر

وانشدني بعض اهل الطاهر بن الحسين

إذا أعجبتك خصال امرئ — فكنه يكن منه ما يعجبك
فليس على المجد والمكرمات — إذا جئتها حاجب يحجبك

فأما ما يرومه من أعماله ويؤثر الإقدام عليه من مطالبه فيجب أن يقدم الفكر فيه قبل دخوله فإن كان الرجا فيه أغلب من الياس وحمدت العاقبة فيه سلكه من أسهل مطالبه والطف جهاته ويقدر شرفه يكون الإقدام وإن كان الياس غلب عليه من الرجا مع شدة التقرير ودناءة الأمر المطلوب فليحذر أن يكون له متعرضا فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا هممت بأمر فتفكر فيه وفي عاقبته فإن كان رشدا فامضه وإن كان غيا فانته عنه وقالت الحكما طلب ما لا يدرك عجز وقال بعض الشعرا

فإياك والأمر الذي إن توسعت — موارده ضاقت عليك المصادر
فما حسن أن يعذر المرء نفسه — وليس له من سائر الناس عاذر

وليعلم أن لكل حين من أيام عمره خلقا وفي كل وقت من أوقات دهره علاوة فإن تخلق في كبره بأخلاق الصغر وتعاطى أفعال الفكاهة والبطر استصغره من هو أصغر وحقره من هو أقل وأحقر وصار كالمثل المضروب بقول الشاعر

وكل باز يمسه هرم — تجري على رأسه العصافير

كن أيها العاقل مقبلا على شانك راضيا عن زمانك سلما لأهل دهرك جاريا على عادة عصرك منقادا لمن قدمه الناس عليك متحننا على كل من قدمك الناس عليه ولا تباينهم بالعزلة عنهم فيمقتوك ولا تجاهرهم بالمخالفة فيعادوك فلا عيش لممقوت ولا راحة لمعادى وأنشد بعض أهل الأدب

إذا اجتمع الناس في واحد — وخالفهم في الرضى واحد

فقد دل إجماعهم دونه — على عقله أنه فاسد

اجعل نصح نفسك غنيمة عقلك ولا تداهنها بإخفاء عيبك وإظهار عذرك فيصير عدوك أحظى منك في زجر نفسه بإنكارك ومجاهرتك من نفسك التي هي أخص بك لإغرائك لها بأعذارك ومسامحتك فحسبك سوءا برجل ينفع عدوه ويضر نفسه وقد قال بعض الحكما أصلح نفسك لنفسك يكون الناس تبعا لك وقال بعض البلغاء من أصلح نفسه أرغم أنف أعاديه ومن أعمل جده بلغ كنه أمانيه وقال بعض الأدبا من عرف معايبه فلا يلم من عابه وأنشدني أبو ثابت النحوي لبعض الأدبا

ومصروفة عيناه عن عيب نفسه — ولو بان عيب من أخيه لأبصرا
ولو كان ذا الإنسان ينصف نفسه — لأمسك عن عيب الصديق وقصرا

فهذب أيها العاقل نفسك بإنكار عيوبها وانفعها كنفعك ... فإن من لم يكن له من نفسه واعظ لم تنفعه المواعظ أعاننا الله وإياكم على القول بالعمل وعلى النصح بالقبول وهو حسبنا ونعم الوكيل

تم الكتاب بعون الملك الكريم الوهاب بعد عصر يوم الخميس منتصف شهر الله الحرام رجب أحد شهور سنة [illegible] مائة والف بعد الهجرة النبوية على مهاجرها أفضل الصلاة وأزكى السلام ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

بلغ مقابلة حسب الطاقة